

# الآراء والمعنقات

تأليف

الدكتور غوستاف لوبون

نقله الى العربية الاستاذ

محمد عايد زعبي

( خريج جامعة باريس )

كتاب اجتماعي يبحث عن مصدر المعتقدات غير العقلي ، وعن العناصر التي تتألف شخصية الانسان من مجموعها ، وعن الارادة غير الشاعرة ، وعمما بين المنطق العاطفي والمنطق الديني ومنطق الجوع والمنطق العقلي من عراك ، وعمما بين العوامل المتباينة من توازن ، وعن سبب اختلاف الآراء وكيفية انتشارها

عني بنشره

الياس زطون النياس

صاحب

المطبعة العصرية

بالفجالة ، بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بمصر

الى صديقي العزيز :

عبريال هانوتو

وزير خارجية فرنسا الاسبق وأحد أعضاء المجمع  
العالمي الفرنسي والمؤرخ الكبير الذي يعلم بنظره الثاقب  
كيف يكتشف خاف ظواهر الامور أسباب حدوثها .  
غوستاف لوبون



الدكتور غوستاف لوبونه

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله وصحبه وآله أجمعين  
أعرض على القراء ترجمة كتاب « الآراء والمعتقدات » للدكتور غوستاف لوبون  
وبذلك أكون قد وفيت بوعدى فى مقدمة كتاب « روح الاشتراكية »

ولا أرى أن أخص هذا الكتاب فى مقدمة طويلة ، فالكتاب ذو مباحث  
كثيرة ومطالب عديدة لا تُلخص من غير أن تفقد شيئاً من قوتها ، ولا يجز عن  
القارىء من الصعوبة التى ربما يلقاها عند الشروع فى مطالعته ، إذ كلما تقدم فيه  
انجأت له الحقيقة وزال عنه كل غموض .

ولا يقل إننا نشاطر الدكتور لوبون جميع أفكاره وسوانحه فعندنا أن الحقيقة  
غابت عنه فى كثير من المسائل ولا سيما فى مسألة التوحيد والاشراك . وقد كنا نود  
أن نعلق عليها بعض حواش لولم نستصوب ترك ذلك للقارىء وحصر عمالنا فى الترجمة

ولا يسعني هنا إلا أن اشكر للاستاذ الياس أنطون الياس صاحب المطبعة العصرية  
الشهيرة نشر ما نقلته الى العربية من كتب ولصديقى الفاضل محمد علي الطاهر  
صاحب جريدة الشورى ما بذله من همة عالية فى اظهارها .  
والله الموفق لا رب سواه

محمد عادل زعبيتر

نابلس « فلسطين »

# الباب الأول

## المعتقد والمعرفة

### الفصل الأول

#### دائرة المعتقد ودائرة المعرفة

١ — صعوبة تفسير المعتقد

يخلطون المعتقد أحياناً بالمعرفة على ما بينهما من اختلاف كبير. فالعلم والاعتقاد أمران مختلفان في تكوينيهما ومصدرهما، وبالرأى والمعتقد يتم سيرنا وعنهما تنشأ أكثر حوادث التاريخ، ولا فرق بينهما وبين الحوادث الأخرى من حيث كونهما تابعين لنواميس وان كانت هذه النواميس لم تعين حتى الآن .

لقد ظن على الدوام أن دائرة المعتقد حافلة بالأسرار، وهذا هو سبب قلة الكتب التي تضمنت البحث عن مصادر المعتقد مع أن ما تضمنه البحث عن المعرفة كثير الى الغاية، وما أتى به من المساعي القليلة في اكتناه المعتقد يكفي لبيان قلة الاطلاع على حقيقة أمره في الماضي، فلما رضى المؤلفون برأى (ديكارت) في المعتقد قالوا انه صادر عن العقل والارادة، وسيكون من مقاصد هذا الكتاب اثبات كون المعتقد غير عقلي وغير إرادي .

وما غابت صعوبة اكتناه المعتقد عن الفيلسوف العظيم (باسكال) فقد أشار في فصل بحث فيه عن فن الاقناع الى « أن الناس يعتقدون بتأثير العاطفة لا بتأثير الدليل والبرهان » ثم قال « ان بيان كيفية هذا الاعتقادى الاعتقاد بتأثير العاطفة هو من الصعوبة والدقة والغرابة بحيث يستحيل على من هو مثلى »

ولكننا بفضل مكتشفات العلم في الوقت الحاضر نرى إمكان حل تلك المعضلة التي عجز ( باسكال ) عن بيانها ، ومجايها تقدر على الاجابة عن كثير من الأسئلة المهمة التي منها : كيف تستقر الآراء والمعتقدات الدينية والسياسية ؟ ولماذا نشاهد في كثير من المتصفين بسمو المدارك اعتقاد الخرافات والأباطيل ؟ وما هي علة عجز العقل عن تغيير عقائدنا العاطفية ؟ فلولا نظرية المعتقد لظل أمر الاجابة عن هذه الأسئلة وغيرها من المسائل غامضاً متعذراً حله ، وليس العقل بمستطيع أن يفعل ذلك وحده .

وإذا أساء المؤرخون وعلماء النفس فهم حقيقة المعتقد فذلك لأنهم حاولوا أن يشرحوا بالمنطق العقلي حوادث لم يلمسها العقل أبداً ، وسوف نرى أن عناصر المعتقد جميعها خاضعة لقواعد منطقية وثيقة لاصلة بينها وبين القواعد التي استعان بها العلماء في مباحثهم .

شغلت هذه المسئلة بالى منذ مباحثى التاريخية الأولى ، فكان يظهر لى أن المعتقد هو الفاعل الاصلى فى التاريخ ، ولكن كيف تقدر على ايضاح حوادث خارقة للعادة - كتأسيس المعتقدات - أوجبت قيام حضارات وسقوط حضارات أخرى ؟ لقد اعتنقت قبائل البدو فى جزيرة العرب ديناً أتى به أمى فأقامت بفضل هذا هذا الدين فى أقل من خمسين سنة دولة عظيمة كدولة الاسكندر زينت جيدها بقلادة من المبنى الفخمة التى هى آية فى الاعجاز ، وقبل ذلك ببضعة قرون آمنت شعوب متوحشة بعقيدة دعا اليها رسل أتوا من زاوية مجهولة فى بلاد الجليل فقوضت بتأثير هذه العقيدة دعائم العالم القديم مقيمة على أنقاضها حضارة جديدة ينطق كل عنصر منها بذكر الرب .

وبعد أن مضى ما يقرب من عشرين قرناً تزعزع ذلك الايمان وظهر فى سماء الفكر نجوم كانت مجهولة فقام شعب عظيم ورفع راية العصيان زاعماً أنه قطع علائقه بالمضى ، وقد منحه ايمانه المحرب القوى قدرة استطاع بها أن يهيمن على أوروبا المدججة بالسلاح وأن يدخل جميع عواصمها ظافراً على رغم الفوضى التى ألقته الثورة فيها .

فكيف يمكن اكتناء ما في المعتقدات من قوى عجيبة كالتى ذكرناها ؟ ولماذا يخضع الانسان بغتةً لايمان كان يجهله بالأمس ؟ وما هي العلة التى بها يرفع الايمان الانسان الى مستوى ارفع من مستواه ؟ وما هي العناصر النفسية التى تنبجس منها هذه الأسرار ؟ سنسعى فى الإجابة عن جميع ذلك .

لتكوين الآراء والمعتقدات وذبوعها وجوه خارقة للعادة تجمل المؤمنين يعزونها الى مصدر الهى ، ومما يشيرون اليه هو أنهم يمتقونها مع مخالفتها لاكثر منافهم وضوحاً ، نعم قد يمكن إدراك السبب فى انتشار الدين المسيحى بين من يعدهم بسعادة أبدية من عبدان ومحرومين طيب العيش ، ولكن ما هي القوى الخفية التى كانت تحمل الشريف الرومانى على التجرد من أمواله وتعرضه نفسه للعذاب فى سبيل دين جديد ترفضه العادة ويأباه العقل وتحرمه القوانين ؟

لا يجوز نسبة تسليم الناس بذلك الدين الى سخفهم ، فلقد سلم به أيضاً أرباب العقول النيرة منذ القرون الأولى حتى يومنا هذا .

ولا يكون ما يقال فى المعتقد من نظريات قيماً الا بايضاح هذه المسائل كلها ، ومما يقتضى أن تتضمنه هذه النظريات على الخصوص هو بيانها كيف يعتقد صفوة العلماء - الذين بلغت فيهم روح النقد منتمهاها - اساطير صيبانية مضحكة ، قد نتصور أن نيوطن وباسكال وديكارت وغيرهم ممن عاشوا فى بيئة مشبعة من بعض العقائد رضوا غير مجادلين بهذه العقائد رضاهم بنواميس الكون المقدره ، ولكن لماذا لم تضمحل تلك المعتقدات اضمحلالاً تاماً فى أيامنا التى سطعت فيها أنوار العلم على كل بيئة ؟ ثم لماذا تظهر أوهاام غريبة مكان المعتقدات المنحلة كما يؤيد ذلك انتشار طريقة استخدام الأرواح بين أفاضل العلماء ؟ يجب أن نجيب عن جميع هذه الأسئلة أيضاً .

٢ — ما هو الفرق بين المعتقد والمعرفة ؟

لنبين أولاً ما هو المعتقد وماذا يختلف عن المعرفة ، فالمعتقد هو إيمان ناشئ عن مصدر لا شعورى يُكره الانسان على تصديق فكر أو رأى أو تأويل أو مذهب

جزافاً ، وسوف نرى أن العقل غريب عن تكوين المعتقد ، ولا يأخذ العقل في تبرير المعتقد الا بعد أن يتم تكوينه .

يجب أن نصف بالمعتقد كل ما هو من عمل الايمان ، ومتى استعان المرء في تحقيق صحة المعتقد بالتأمل والتجربة لا يظل المعتقد معتقداً بل يصبح معرفة ، فالمعتقد والمعرفة أمران نفسيان يختلفان من حيث المصدر اختلافًا تاماً ، إذ المعتقد كناية عن إلهام لاشعورى ناشئ عن علل بعيدة من إرادتنا ، والمعرفة عبارة عن اقتباس شعورى عقلى قائم على الاختبار والتأمل .

وما اكتشف الانسان الغائص في بحر المعتقد أمر المعرفة الا في زمن ضرب فيه بسهم وافر من الرقى ، وكلما تقدم في عالم المعرفة ظهر له ان الحوادث التي عزا الناس ظهورها الى موجودات علوية لم تحدث الا بتأثير نواميس قاهرة .

وقد تغيرت صورة فهم الكون في الانسان منذ اقتراب من دائرة المعرفة ، ولكنه يصعب الخوض في هذه الدائرة الجديدة كثيراً ، لأن العلم يرى على الدوام شيئاً من المجهول متخلاً في مكنشقاته ، فأكثر الحقائق وضوحاً تَبْطِن شيئاً من الاسرار لا يزال العلم مشبعاً من مثل تلك الدياجير المدلّمة ، وكلما بلغ أفقاً بدت له آفاق جديدة تأنه في فضاء لا حد له ، فهذا العالم الواسع الذي لم يستطع أى فيلسوف أن يضيئه هو ملكوت الاحلام التي تبرز في النفوس آمالاً لا يؤيدها الدليل والبرهان ، وفي هذا الملكوت تجد المعتقدات الدينية والمعتقدات السياسية وكل معتقد آخر قوة غير محدودة .

ومع أن الوصول الى حقيقة علمية صغيرة يتطلب كدّاً طويلاً فان حياة يقين لا ركن له سوى الايمان لا يطلب شيئاً من السعى ، فكل من الناس له معتقد ولكن ما أقل الذين يصعدون منهم الى سماء المعرفة .

يشتمل عالم المعتقد على منطق وسننه ، ومنذ القديم حاول العلماء عبثاً أن يلجوا فيه مستعينين بناهجهم وأساليبهم ، وسنرى في هذا الكتاب لماذا يضيع العلماء ما فيهم من ملكة الانتقاد عند ما يدخلون في دائرة المعرفة ذات الأوهام الخادعة .



المعرفة هي عنصر الحضارة الأساسية وهي العامل الكبير في ارتقائها المادى ، وأما  
المتقد فهو الذى يرسم وجهة الأفكار ومن ثمَّ وجهة السير .  
كان الناس فيما مضى يعزون المعتقدات الى مصدر إلهى فكانوا يعتقدونها غير  
مجادلين فيها ، وعلى رغم علمنا فى الوقت الحاضر أنها صادرة عن انفسنا فانها لا تزال  
ذات سلطان علينا . وما تأثير قوة البرهان فيها الا كتأثيره فى الجوع والعطش ، فلما  
نضج المتقد فى منطقة اللاشعور حيث لا يصل اليها العقل عاناه المرء غير محاج فيه .  
ومصدر المعتقدات اللاشعورى وغير الارادى يمنحها قوة عظيمة ، فالمعتقدات  
دينية كانت أم سياسية أم اجتماعية شأن كبير فى التاريخ على الدوام ، إذ لا تلبث  
المعتقدات بعد أن تصبح عامة أن تصبح قطوباً جاذبة تجذب حوالها كيان الشعوب  
وتطبع سمتها على كل عنصر من عناصر حضارتها فتوصف الحضارة حينئذ باسم الدين  
الذى أوحى اليها ، ولذلك كانت اسما الحضارة البوذية والحضارة الاسلامية والحضارة  
المسيحية أسماء صحيحة صائبة الى الغاية ، ومتى صار المتقد قطب جذب أصبح قطب  
تغيير أيضاً ، لأن عناصر الحياة الاجتماعية المختلفة من فلسفة وفنون وأدب تتبدل  
لتلتئم به .

والثورات الحقيقية هي التى تتجدد بها معتقدات الشعب الاساسية ، غير أنه  
يندر وقوع مثل هذه الثورات ، والذى تأتى به الثورات عادة هو تغيير اسم العقائد  
فقط ، فالإيمان يتبدل موضعاً ولكنه لا يموت أبداً ، لأن احتياج الانسان الى الاعتقاد  
هو عنصر نفسى مسيطر كاللذة والألم .

روح الانسان تمتت الشك ولا تطيق الارتياح ، واذا تطرق الشك أحياناً الى  
قلب الرجل فذلك لأجل محدود ، فالانسان يفتقر الى إيمان دينى أو سياسى أو  
أخلاقى يهيمن عليه ويكفيه عناء التفكير ، واذا تداعى معتقد فذلك ليحل مكانه  
معتقد آخر ، ولا حول للعقل إزاء هذه السنة القاهرة التى لا تتبدل .

والإيمان فى الوقت الحاضر ليس بأقل منه فى القرون الغابرة ، وما يوعظ به فى  
المعابد الجديدة من عقائد لم يكن أخف وطأة من عقائد الماضى ، ولهذا المعابد أنصار

عدد هم كعدد أنصار المعابد السالفة ، فقد أخذ المعتد الاشتراكي أو المعتد الفوضوي يقوم مقام المعتد الديني المحرم دون أن يكون بين الطرفين فرق من حيث القهر والتجبر . والحانة مع كونها تحمل مكان الكنيسة في الغالب إلا أن مصدر ما يسمع فيها من مواظ يأتى بها الزعماء هو الايمان أيضاً .

وإذا كانت نفسية المؤمنين لم تتطور ولو قليلاً منذ القديم - حيث كانت إيسيس وحانحور تجذبان الى معابدهما على ضفتى النيل الوفياً من الحجاج المتحمسين - فذلك لأن المشاعر التى هى اسس النفس الحقيقية حافظت على ثباتها ورسوخها فى غضون الأجيال ، فالذكاء يتقدم وأما المشاعر فلا تبدل ، لا ريب فى أن الايمان بمعتقد لا يكون على العموم إلا وهماً ، ولكننا لا نأسف على ذلك ، لأن الخيال يصبح بفضل الايمان أقوى من الموجود حقيقة ، ومتى تعتنق أمة معتقداً فان هذا المعتد ينعم عليها بتجانس فكرى هو سر وحدتها وقوتها .

وبما أن دائرة المعرفة تختلف عن دائرة المعتد اختلافاً كبيراً فمن العبث أن نقيس الأولى بالثانية كما يفعل اكثر العلماء ، على أن العالم مع تخلصه بالتدرج من رتبة المعتد فانه لا يزال مشبعاً منه وينقاد اليه فى جميع المواضيع التى لم تُعلم جيداً كدقائق الحياة وأصل الأنواع مثلاً ، فما قيل فى هذه المواضيع من النظريات هو عقائد ليست على شىء من الاعتبار إلا بعزوها الى الاساتذة الذين وضعوها .

ولا تطبق سنن المعتد النفسية على العقائد الكبيرة الأساسية - التى وسمت لحة التاريخ بوسم ثابت لا يُطمس - فقط بل تطبق أيضاً على اكثر آرائنا اليومية الموقته فيما يحيط بنا من موجودات واشياء ، فالمشاهدة تدل على أن اكثر هذه الآراء ترتكز على عناصر عاطفية أو دينية مصدرها اللاشعور ، واذا كان الناس يجادلون فى أمرها بحماسة فذلك لأنها من فصيلة المعتد ولأنها تكون مثله .

إذاً من الخطأ أن يظن الانسان أنه يخرج من دائرة المعتد عند ما يعدل عن عقائد انتقلت اليه وراثه ، وسوف نرى أنه كلما حاول أن يتخلص منها غاص فيها اكثر من ذى قبل .

ولما كان ما ينشأ عن تكوين الآراء والمعتقدات من مسائل هو من جنس واحد

فقد وجب البحث فيها على طرز واحد ، فعلى ما بين الآراء والمعتقدات من تباين في النتائج على الأكثر فإن الطرفين من فصيلة واحدة تختلف عن فصيلة المعرفة اختلافاً تاماً .

يرى القارىء أهمية المسائل التي نعالجها في هذا الكتاب وصعوبتها ، فلقد تصورتها في سنين كثيرة تحت سماوات مختلفة ، تارة وأنا أنعم النظر في الوف من الهياكل التي أقامها البشر منذ ثمانين قرناً تمجيداً لآلهته التي استحوذت على خياله ، وتارة وأنا تائه بين أساطين المعابد العظيمة العجيبة المنعكس ظلها على مياه النيل الجليل أو التي أقيمت على ضفتي نهر الغانج ، وكيف أعجب لهذه العجائب من غير أن أفكر في القوى الخفية التي أوجدتها من العدم ؟

مصادفات الحياة ساقنتني الى التنقيب عن فروع العلم الخالص وعلم النفس والتاريخ فاستطعت أن أدرس الطرق العلمية التي يصل بها الانسان الى المعرفة والى العوامل النفسية التي يتولد منها المعتقد ، فالمعتقد والمعرفة هما التاريخ كله والحضارة كلها .

## الفصل التالى

### طرق البحث فى علم النفس

استعان علم النفس فى تكوينه بطرق كثيرة ، ولا نستفيد من هذه الطرق فى بحثنا عن مسائل الآراء والمعتقدات ، فسيرى القارىء من ذكرها مختصراً أننا لا نستطيع أن ننتفع بها فى مباحثنا إلا قليلاً .

الطريقة الروحية . - الطريقة الروحية هى أقدم طريقة استعملت فى البحث عن النفس ، وقد امتد دور تطبيقها وحدها زمناً طويلاً ، فالمفكر حسب هذه الطريقة كان يجتلى فى غرفة مطالعته متجرداً عن العالم الخارجى فيفكر فى نفسه وفى ما استنبطه من النتائج فى الكتب .

لا شك في أنه ظهرت في القرن السابق طرق علمية أحسن من الطريقة الروحية ولكنها غير مشعرة مثلها ، واليكها :

الطريقة النفسية الجثمانية . - لما ظهرت هذه الطريقة ظُنَّ أنه سيكون لها مستقبل مجيد لتطبيقها حوادث الجسم على أحوال النفس ، ولكن سرعان ما بدا للعلماء ضيق دائرتها ، إذ لم تطبق تلك الحوادث إلا على أبسط الأحوال النفسية كسرعة المؤثر العصبي والزمن الضروري لانعكاس الحركة والنسبة العددية بين التهييج والحس الخ ، على أن أموراً كهذه هي بالحقيقة عضوية قلما ينتفع بها علم النفس .

طريقة المراكز الدماغية . - تسمى هذه الطريقة في اسناد أيّ خلل في وظائف النفس الى ضرر يقع في أحد الاعصاب ، على هذه الصورة ظُنَّ أن في الدماغ مراكز هي مصدر أي عمل نفسي ، إلا أنه قد عُضَّ النظر عن تلك المراكز الآن حتى التي لاح منها أنه ثابت صحيح كمركز النطق ومركز الخط .

طريقة الفحص والاختبار . - ظل النجاح حليف هذه الطريقة وقتاً طويلاً ، حتى أن المختبرات النفسية لا تزال مملوءة بألات توزن بها الحركات التي يُظَنُّ أنها ذات علاقة بالعقل والذكاء ، وقد طبع عدد غير يسير من الرسائل في البحث عن هذه الحركات فسلم بما جاء فيها بضعة علماء مشهورين ، والرسالة التي نشرها أحد أنصار هذه الطريقة المتأخرين باحثاً فيها عن الرياضى ( هنرى بوانكاريه ) تدلنا على أن حظ علم النفس من الطريقة المذكورة ضئيل الى الغاية ، ولذا أهملت تماماً في الوقت الحاضر .

طريقة درس الأمراض النفسية . - هذه الطريقة هي التي أتت أكثر من غيرها بوثائق على النشاط النفسى اللاشعورى وعلى التصوف والتقليد وانحلال شخصية الانسان الخ ، وهي على رغم كونها حديثة في تطبيقها فقد علمها اكابر الكتاب الروائيين السابقين كشكسبير ، حقاً لقد اكتشف هؤلاء لما فيهم من دهاء عظيم ونظر ثاقب حوادث لم يعينها العلم الاخيراً ، فاطلموا على أن مكبث متهوس ، وعطيل مصاب بالصرع ، وهملت سكير استحوذت عليه وساوس الخوف ، والملك ليار سخيف سوداوى ذو

جنون غير مطبق ، ومما يجب ملاحظته هو أنه لو كان هؤلاء الاشخاص المشهورون في حالة اعتدال بدلاً من أن يكونوا ذوى نفسية مختلة مذبذبة لما اهتم الادب والفن بأمرهم .

طريقة القياس النفسى . - مع اكتفاء هذه الطريقة الحديثة حتى الآن بالبحث عن الغرائز وعن قليل من الانفعالات البسيطة فانه يظهر أنها ستكون احدى الطرق المعتبرة فى المستقبل ، يقول انصارها أنه لا بد من فحص أحوال الحيوانات الدنيا لفهم نفسية الانسان ، غير أن هذا البيان لم ينل بعد ما يستحقه من الخطوة عند علماء النفس الذين يزعمون وجود فرق قاطع بين عقل الانسان وبين عقل الخيول الذى هو دونه ، فهم على عكس الطبيعة التى لا تعرف مثل هذه الفروق القاطعة ، فقد قطعنا الدور الذى كان ( ديكارت ) يعد فيه الحيوانات آلات متحركة .

ومع ذلك فان تطبيق الطريقة المذكورة كثير المصاعب ، إذ نشاهد أن حواس الحيوانات ومشاعرها تختلف عن حواسنا ومشاعرنا ، ثم إن من يود أن يكتبه الحيوانات فعليه أن يلاحظ حركاتها وسكناتها ملاحظة وثيقة دقيقة ، ولما كان هذا العمل شاقاً فان علم نفس الحيوانات - حتى العليا - لا يزال فى المرحلة الأولى .

الطريقة التى اتخذناها فى هذا الكتاب للبحث عن الآراء والمعتقدات . - يشعر القارىء من الطرق التى ذكرناها آنفاً بأنها لا تصلح لبيان تكوين الآراء والمعتقدات وتطورها ، ولذلك فاننا مضطرون الى الاستعانة بطرق أخرى ، لقد حللنا - بعد أن درسنا ما هو مرتع لنفوذ المعتقد من ذكاء ومشاعر ولا شعور الخ - المعتقدات الدينية والاخلاقية الخ باحثين عن عللها وأسبابها القاهرة ، ومن تاريخ الماضى والحوادث اليومية الحاضرة تتكون مقومات موضوعنا ، فالمعتقدات العظيمة هى فى الغالب تراث الماضى ، والذى يجلب النظر فيها كثيراً هو كونها حافلة بالمستحيلات التى يرفضها العقل النظرى ، وعندما نوضح كيفية اعتناقها يظهر لنا أن الرجل المتعلم والعالم الذى تعود مناهج المختبرات الدقيقة يفقد فى ميدان المعتقد كل ما فيه من ملكة انتقاد ويؤمن بالمعجزات ، وسيكون لنا فى البحث عن مظاهر السحر والشعوذة

بيانات قاطعة في هذا الموضوع ، وسوف ترى أن كثيراً من مشاهير علماء الطبيعة زعموا أنهم عاشوا بين الأشباح وأن أحداً كبير الاساتذة في علم وظائف الاعضاء قص أنه استحضر الأموات وحادثهم وأن استاذاً آخر ليس أقل فضلاً منه قال مؤكداً إنه رأى مقاتلاً لا بأساً خوزة خرج من جسم فتاة تام الاعضاء كما دل على ذلك فحص دورته الدموية وآثار تنفسه .

ثبت لنا هذه الحوادث أن العقل عاجز عن التأثير في اكثر المعتقدات خطأ ، ولكن لماذا يبدو من الانسان مها تكن تربيته سذاجة متناهية عندما يدخل في ساحة المعتقد ؟ قد سعينا لاكتشاف هذا السر في توسيعنا نطاق البحث فدرسنا مصدر الحركة في أنواع الحيوان فظهر لنا أن ما أتى به العلماء من ايضاح لم يكن ناقصاً أو لاغياً الا لمحاولتهم تطبيق مناهج المنطق العقلي على حوادث لم يلها العقل أبداً ، ثم بدا لنا أنه يوجد في حركات الحياة المعقدة - كما في عالم اللاشعور الذي هو باعث الحركة الحقيقي - انتظام لا تأثير للعقل فيه ولا يمكن تعيينه بالفاظ غير صريحة كالفظ « الغريزة » مثلاً .

وتوغلى في هذه المواضيع تحققت وجود أنواع منطقية هي - مع ما بينها وبين المنطق العقلي من تباين - أرفع أو أدنى منه بحسب الأحوال ، على هذه الصورة استطعت أن أضم الى المنطق العقلي الذي علم منذ القديم والمنطق العاطفي الذي بُحث عنه منذ بضع سنين أنواعاً منطقية جديدة قد تنضد وقد تتصادم مغيرة أوضاع نفسيتنا ، والذي يسيطر منها على دائرة المعرفة لا علاقة له بالمعتقدات أصلاً ، وهذا هو السر في كون العالم ذى الفكر النير قد يأتي بآراء عقلية متناقضة حسب وجوده في دائرة المعرفة أو في دائرة المعتقد .

وليس علينا أن نطالب علم النفس المزاول ايضاح تلك المسائل ، فقد ذكر علماء النفس ولا سيما ويليام جيمس « أن علماً يدب الانتقاد النظرى في جميع مفاصله لسريع العطب » ثم قال « إننا ننتظر وميضاً ينفذ ظلام الحقائق النفسية الأساسية » ، ونحن مع كوننا لا نشاطر تماماً رأى هذا المفكر الشهير قوله « إن كتب علم النفس

لا نحوى سوى سلسلة من الحوادث التي لم تلاحظ بدقة ومما حركات عنيفة ونظريات  
تم على الثثرة « فأننا نعترف معه « أن علم النفس المزاوّل لا يشتمل على قاعدة  
نستنبط منها نتيجة كما يستنبط العلول من العلة «  
إذا فأننا نحاول بناء نظرية في تكوين الآراء والمعتقدات وتطورها على أرض  
مكتنظة في الظاهر وهي بكرّ في الباطن .



## الباب الثاني

### ميدان الآراء والمعتقدات النفسى

#### الفصل الأول

#### عوامل الحركة - اللذة والألم

١ - شأن اللذة والألم

اللذة والألم هما لسان الحياة المادية والمعنوية وعنوان الكدر والصفاء فى الأعضاء ، وبهما ترغم الطبيعة الحيوان على الاتيان بأعمال يستحيل الوجود بدونها ، وعليه فان اللذة والألم دليلان على حال معنوية باطنية أى معلولات لعل كما أن الأعراض نتيجة لمرض .

ومن الشعور باللذة والألم تتكون قوة الاحساس ومن هذه القوة تشتق حياة الانسان المادية والمعنوية ويكون لسان الأعضاء المعبر عنه باللذة والألم متجبراً بنسبة ما يقتضى من الحاجات ، ومن هذه الحاجات ما هو قاهر غير ممهل كالجوع مثلاً الجوع هو أشد الآلام هولاً والحب هو أكثر اللذات تغلباً ، وقد تقول كما قال الشاعر الكبير ( شيلر ) إن قوام العالم هو الجوع والحب ، واما أنواع اللذة والألم الأخرى فهى عوامل أقل سطوة وشدة ، ولذلك أخطأ ( شوبنهاور ) حيث قال : « إنه يمكن ارجاع جميع العوامل التى تحرك الانسان الى ثلاثة : الأثرة والخبث والرحمة »

وقد أنكر بعض الفلاسفة فى هذه السنين شأن اللذة والألم فى حركاتنا ، قال ويليام جيمس : « لا تأثير لهما فى انفعالنا ، فمن الذى يعبس للتلذذ بالعبوس ؟ ومن



الذى يتنفس للتلذذ بالتنفس ؟ » فاقامة الحججة على هذه الصورة أمر غير صحيح ،  
فالإنسان لا يتنفس للتلذذ بالتنفس ، وإنما يتنفس درأً للألم الناشئ عن قطع النفس ،  
وكذلك فإنه لا يعبس للتلذذ بالعبوس ، وإنما يعبس عند كدره الذى هو من أنواع الألم

٢ — صفات اللذة والألم المتقطعة

لا استمرار فى اللذة والألم ، فمن طبيعتهما الوهن السريع ، ولا يحدثان الا  
الا ليكونا غير مطَّيقين ، فاذا استمرت اللذة فلا تبقى لذة ، وينقص الألم إذا اتصل  
ولم ينقطع ، وقد يصير نقصان الألم لذة .

وعليه فاللذة ليست لذة الا اذا لم تتصل ، ولا تكون اللذة معروفة الا اذا  
قيست بالألم ، وقول بعضهم وجود لذة أبدية كلام خال من كل معنى كما ذكر  
افلاطون ، فالآلهة على رأى افلاطون لا تعرف الألم ، ولذلك فإنها لا تشعر باللذة .

وتقطع اللذة والألم هو نتيجة ناموس عضوى قاض يجعل التبدل أساس الاحساس ،  
فنحن لا نشعر بالأحوال اذا اتصلت ، ولكننا نشعر بالفروق بين الأحوال التى تقع  
فى آن واحد أو التى تقع متوالية مترادفة ، فطقطة الساعة مها تعمل لا تلبث أن  
لا تُسمع ، والطحان لا يفيق من جمعجة رحاه بل من انقطاعها ، ولهذا السبب فان  
اللذة بامتدادها تصبح غير لازمة مالم تنقطع ، وسرعان ما يصير نعيم الفردوس الذى  
يحل به المؤمنون غير جاذب اذا لم يتنقلوا مناوبة من النار الى الجنة ومن الجنة الى النار .  
واللذة أمر نسبي تابع للأحوال ، أى ان ألم اليوم قد يصبح لذة فى الغد والعكس  
بالعكس ، فيصير ألم الرجل الذى أكره على أكل كسرات خبز يابسة بعد أن تغذى  
غذاء وافراً لذة اذا ترك أياماً فى جزيرة جرداء على أن يأكل من تلك الكسرات .  
وقد أصاب المثل العامى القائل إن الانسان يتمتع باللذة التى تروقه حيث يجدها ،  
فلذة العامل الذى يشرب صاخباً فى الحانة تختاف عن لذة المتقن والعالم والمخترع  
والشاعر — وقما يجدون فى أعمالهم — اختلافاً كبيراً ، ولا ريب فى أن اللذة التى  
حصلت لنيوطن من اكتشافه سنن الجاذبية هى أعظم من اللذة التى تحصل له لو انتقلت  
إليه نساء كثيرات من نساء الملك سليمان .

ويظهر لنا شأن اللذة والألم ظهوراً واضحاً عند ما نتخيل الأرواح التي يعتقد وجودها المؤمنون بأكثر الأديان ، فلما كانت هذه الأرواح عاطلة من الحواس والمشاعر فانها لا تبالي باللذة والألم ولا تعرف شيئاً من بواعث حركتنا ، وما كان يقلقها من اكثار احبائها وشدائدهم لا يؤثر فيها ، ولا تشعر لهذه العلة بحاجة الى مناجاتهم ، ومن هنا نقول إن وجود هذه الأرواح وهم لا أساس له .

### ٣ — الرغبة نتيجة اللذة والألم

اللذة والألم يورثان الرغبة ، أى الرغبة فى بلوغ اللذة واجتناب الألم ، فالرغبة هى المحرك الأساسى للإرادة والباعثة على العمل .

والرغبة هى التى توحى الى الإرادة التى تكون بدونها معدومة ، وعلى نسبة الرغبة تكون الإرادة قوية او ضعيفة ، ومع ذلك لا يجوز خلط الإرادة بالرغبة كما فعل كثير من الفلاسفة كشوبنهاور وكوندياك ، فإذا كانت الرغبة مصدر كل ما يراد فانه يرغب فى أمور كثيرة لا تراد ، فالإرادة تتضمن التأمل والتقصّد والتنفيذ أى تستلزم أحوالاً شعورية لا يرى مثلها فى الرغبة .

الرغبة هى مقياس القيم ، وهذا المقياس يختلف باختلاف الأزمنة والأمم ، فمثل الأمة الأعلى هو عنوان رغبتهما ، إذ الرغبة باستيلائها على قوة الإدراك فى الإنسان تحول طرز تصورهم وآرائهم ومعتقداتهم ، ولقد أصاب الفيلسوف (سبينوزا) حيث قال : « نرى الأشياء مليحة برغبتنا لا ببصيرتنا . »

ولما لم تكن قيمة الأشياء بنفسها فإن الرغبة هى التى تمنحها قيمة ، وتكون هذه القيمة على نسبة ما فى الرغبة من شدة ، واكبر دليل على ذلك تحول قيمة الآثار الفنية ، وعلى رغم كون الرغبة منبع كل جهد وحركة الإنسان المطلقة وسبب آلهته وموجدة مشله الأعلى فانه لا تتمثل لها فى المعابد القديمة ، والمصلح الكبير (بوذا) وحده هو الذى أدرك أن الرغبة هى المهيمنة على الأشياء وأنها مصدر الحركة فى الناس ، وقد حاول لتحرير البشر من يؤسها وسوقه الى راحة سرمدية أن يقضى عليها ، ومع خضوع ملايين من الناس لشريعته فانه لم يقدر على خضد شوكتها .

حقاً لا يستطيع الانسان أن يعيش بدون رغبة ، نعم قد يكون في عالم الافكار الذي تصوره افلاطون جمال رائع ونماذج خالدة ولكن بما أنه لم تُخَي هذا العالم نفخة رغبة فان أمره لا يهمنا .

٤ — الامل هو اللذة المرجوة

الامل ابن الرغبة لا الرغبة نفسها ، إذ هو عبارة عن استعداد نفسى يجعل الانسان يعتقد إمكان تحقيقه ما فيه من رغبة ، فقد يرغب المرء في شيء دون أن يأمله ، فعلى قلة من يأملون الثروة ترى جميع الناس يرغبون فيها ، وكذلك العلماء فانهم يرغبون في اكتشاف علة عال الحوادث مع أنهم لا يأملون ان يصلوا اليه ، وقد تقترب الرغبة من الامل في بعض الأحيان فتختلط به ، فالانسان في لعبة الدولاب يرغب في الربح ويأمله .

ويمكننا أن نعرف الامل باللذة المرجوة ، وفي الغالب يكون الامل في دور الرجاء أشقى للغلة منه في إنجازه ، وسبب ذلك واضح ، فاللذة المنجزة تكون محدودة مقداراً وزماناً مع أنه لا أحد لما يوجبه الامل من أحلام ، ولم يوجد سلطان الامل وفتته الا لاشتماله على ما في اللذة من إمكانات ، فهو عصا سحر قادرة على تحويل كل شيء ، وهذا هو سر كون دعاة التجدد لم يفعلوا سوى إقامة أمل مكان آخر .

٥ — العادة هي ناظمة اللذة والامل .

العادة هي ناظمة الحس ، فهي سبب الاستمرار في افعال الانسان لثمة لها حد اللذة والالم فيه ، وبها يألف أشد المصاعب ويتحمل اعظم الجهود ، والطفل بتأثيرها يتعود تعب الحياة عند ما يكرهه سن العزلة على العيش تحت سماء الشمس .

والعادة التي هي ناظمة حياة الفرد هي دعامة الحياة الاجتماعية أيضاً ، والأمر الشاق في حياة الامة هو أن تبتدع لنفسها عادات اجتماعية وأن لا تجمد إزاء هذه العادات إذ انه عندما تثقل وطأة العادات زمنياً طويلاً على الامة لا تتخلص من ربقته الا بثورات عنيفة ، ولذلك وجب أن لا يطول الوقوف عند حد العادة ، فالمدنيات والافراد والامم الشائخة هي التي تميل الى الرزوح تحت أثقال العادة وقتاً كبيراً ومن العبث أن نتكلم

في شأنها كثيراً، فلقد جابت نظر جميع الفلاسفة وصارت تُعتبر حكمة قومية .  
قال ( باسكال ) :

« ماذا تكون مبادئنا الفطرية إذا لم تصدر عن العادة ؟ فالعادة هي طبيعة ثانية تقوض أركان الأولى ، ومنها نأخذ اشد أدلتنا قوة وأكثرها فيضاً ، وهي التي تعين وجهة النفس دون أن يفكر الانسان في ذلك ، وبها يصبح الانسان نصرانياً أو وثنياً أو تركياً أو محترفاً أو جندياً الخ ، ثم بها تستعين النفس وقتما تعثر على مكان الحقيقة . »  
ولو أن قدرة خارقة جعلت الانسان أو الشعب يهرب من تأثير العادة لاصاب الفالج حياته فجأة لان العادة هي التي تملي علينا كل يوم ما يجب أن نقوله ونفعله ونفكر فيه .

٦ — اعتبار اللذة والالم حقيقتين نفسيتين اساسيتين .

حاول الفلاسفة أن يزعموا ما في الانسان من يقين وأن يثبتوا أنه لا يعلم من العالم غير الظواهر ، غير أن هنالك حقيقتين ليس باستطاعة أحد أن ينقضهما وهما اللذة والالم ، فمنهما تشتق حركة البشر ونشاطه واليهما يستند ما تعد به الأشرائع الدينية والديوية وتتوعد به من ثواب وعقاب وجنة وجحيم .

ويظهر الالم واللذة في الانسان منذ ما تدب الحياة فيه ، فبقوة الحس لا بالفكر يشعر الانسان بوجوده ولو قال ( ديكارت ) : « اشعر ولذلك فاني موجود » بدلاً من قوله « افكر ولذلك فاني موجود » لكان قوله أقرب الى الحقيقة ، لان دستورهم إذا تبدل على هذا الوجه يُطبق على جميع الناس لا على فريق وحده .

ومن هاتين الحقيقتين يمكن استنباط فلسفة حياتية عملية ، وبهما يجاب جواباً صائباً عن السؤال الذي جاء مكرراً في سفر سليمان ، وهو : لماذا يشتغل الانسان ويسعى كثيراً مع أن الموت ينتظره والأرض مستخدم يوماً ما ؟

الانسان يسعى لأنه يجمل المستقبل ولأن الطبيعة في الحال ترغمه على البحث عن اللذة والفرار من الألم ، فالفاعل الذي يضنيه العمل والراهبة التي لا تجزع من القروح والمبشر الذي ينكل به الهمج والعالم الذي يكدح في حل مسألة والمكروب الصغير

الذى يمد متحركاً في قطرة ماء لا يكابدون ما يكابدونه الا بتأثير عاملين : جذب اللذة وخوف الألم .

لا حركة بغير هذين الباعثين ، ولا تصور وجود بواعث أخرى غيرهما على رغم اختلاف الألفاظ ، فحب الجمال والحرب والتدين والشهوات إن هي الا أمور صادرة عن مصدر عضوى واحد ، ولا تلبث حركة البشر أن تزول بزوال ذلك العاملين اللذين لا ريب فيهما : اللذة والألم .

### الفصل التالى

## تقلبات الحس هي أساس حياة الفرد وحياة المجتمع

١ — حدود الشعور باللذة والألم

تطبيق قواعد الوزن والقياس على درس الحوادث الجثمانية هو المرحلة الأولى في تقدم هذا الدرس ، فلولا ميزان الحرارة لاكتفى بتقديرات شخصية تختلف باختلاف الناس ، وما أتى به الانسان من رقى في ميدان العقل لم يوث بمثله في دائرة العاطفة ، ولذا ترانا عاطلين من ميزان نزن به المشاعر .

ومع ذلك فانه يظهر أن شعورنا باللذة والألم يتراوح بين حدين محصورين ، يدعم هذا القول ما تم على يد علماء وظائف الاعضاء من تجارب ، فلقد أثبت هؤلاء العلماء أن للحس حداً أعظماً لا يتجاوزه مهما يزد المحرض وأن له حداً أصغرياً لا ينزل دونه .

ولا يزيد الحس بنسبة المحرض الذى يوجبه ، فيقتضى أن يزيد المحرض على نسبة هندسية ليزيد الحس على نسبة حسائية ، ولهذا يجب لمضاعفة ما تولده آلة الطرب من حس زيادة عددها عشر مرات ، ويقتضى لجعل ما تولده من حس ثلاث مرات زيادتها مئة ضعف ، واذا أريدت مضاعفة طنين عشر آلات طرب يوقع عليها عشرة

مغنين فانه يقتضى ايصالها الى ألف ضعف ، وبتطبيقنا هذه الافكار على اللذة والألم نرى أنه لا بد من زيادة المحرض كثيرا لزيادتهما قليلاً

لا ريب في أن الارقام المذكورة غير مطلقة ، وانما غرضنا من جميع ذلك أن تثبت أن الشعور باللذة والألم يتراوح بين حدين محدودين ، وكيف يكون الأمر خلاف ذلك ؟ قد تعانى الأعضاء بالتدريج كل تطور ولكنها عاجزة عن احتمال أى تحول فجائى لاشتمالها على عوامل ناظمة تقيها من مثل ذلك ، فحرارة الجسم فى حال الصحة لا تتقلب أكثر من بضعة أعشار الدرجة . وما يشتد الحر أو البرد فى العالم الخارجى ولا يشاهد نقص الحرارة وزيادتها درجتين أو ثلاث درجات بالنسبة الى درجة حال الصحة الا فى الأمراض الشديدة المبلكة ، وفى كل وجود حد للتوازن لا يتعد منه .

وبهذه المناسبة نذكر وجود ناموس آخر يدعى « ناموس عدم تجمع المشاعر » ، فلذا الناموس - مع إغفال أمره فى الغالب - شأن كبير فى حياتنا الشاعرة ، نعلم أن بعض الأشياء كصفحة الفوطوغراف مثلاً لها مزينة تكويم ما يقرعنا من المؤثرات الصغيرة المتتابعة ، وينشأ عن تجمع هذه المؤثرات الصغيرة المكررة تكريراً كافياً على مر الأيام نتيجة كالتى تصدر عن مؤثر قوى قصير الأجل ، على هذه الصورة تستطيع صفحة الفوطوغراف أن ترسم نجومًا لا تقدر العين المجردة على رؤيتها نظراً لأن شبكة العين لا تحتوى خاصة تكديس المؤثرات الصغيرة ، وما قيل عن العين يقال مثله عن باقى الحواس من حيث عدم قدرتها على تكويم المؤثرات ، اللهم اذا استثنينا بضعة شواذ

وتقريباً للذهن نقول : انه إذا هلك ثلاثئة شخص فى حادثة قطار فان حزننا شديداً عملاً قلوبنا ، وتفعم الصحف أعمدها بتفصيل الواقعة ، ويتبادل الملوك برقيات التعزية ، وأما اذا فرضنا أن هلاك هؤلاء تم بفعل سلسلة من الحوادث الصغيرة وقعت فى بحر السنة فان ما ينتابنا من الكدر قليل الى الغاية ، ذلك لان حواسنا لم تجمع كل أثر صغير أوجبه تلك السلسلة .

فلنفرح لكون الأمر على هذا الوجه ، فلو بُني الوجود على شكل مستعد لتكديس الآلام لكانت الحياة شيئاً ثقيلاً لا يطاق

٢ — تقلبات الحس في الفرد وشأنها في الحياة الاجتماعية  
ظير لنا مما تقدم أن تقلبات الحس محدودة زماناً واتساعاً ، والاختبار يثبت أن  
الحس يتراوح بين هذه الحدود ، ومما يغير الحس على الخصوص تغييراً متتابعاً هو  
المرض والصحة والبيئة والحوادث ، ومما شبه الحس في قلبه بالبحيرة التي يجعل النسيم  
وجبهها ذا أخاديد وعضون

وتوضح لنا تلك التقلبات المستمرة لماذا تتحول أذواقنا وأفكارنا وآراؤنا على  
الدوام ، والتقلبات المذكورة تكون أشد من ذي قبل عندما تأخذ العادات والمعتقدات  
الموروثة التي تحدد تقلبات الحس في الأفعال ، فعدم الثبات عند ذلك يصبح قاعدة  
ومن علل الآراء ما يحدد تقلبات الحس أيضاً ، ونعد من هذه العلل العدوى  
النفسية التي تحدث عادات موقته قادرة على منح تقلبات شتياً من الثبات ، ومتى أصبح  
حس المجتمع على شيء من الرسوخ الموقت فإن آثاراً مختلفة تؤلف معبرة عنه وتعد  
هذه الآثار مرآة الزمن .

وبعد أن يصفو الحس بفعل بعض المحرضات المكررة فإنه يدنو من الذوق  
الخالص قليلاً ، وكلما صفا الحس ينشلم حده ، فأنعام ( لوللى ) التي كانت تسحر قلوب  
آبائنا تورث فينا ضجراً وملالاً ، وأكثر الروايات الملائنة التي نالت منذ خمسين سنة  
حظوة عند الجمهور أصبح لا يلائم ذوقنا ، وسبب ذلك كون مسألة توافق الأصوات  
حلت بالتدرج مكان مسألة النغم ، فيقتضى لإطراب الحواس التي أعيهاها التعمب في  
الوقت الحاضر إيجاد شيء من الشذوذ في الألحان كان يمدُّ خطأ عند مقترعى الأنعام  
في الماضي .

تدلنا آثار أحد الأزمنة على شعور ذلك الزمان وتقلباته ، ولكون هذه الآثار  
عنواناً صادقاً للشعور الذي ساد الزمان المذكور فإنه يسهل توقعيتها ، ولمثل هذا السبب  
تكون الآثار الفنية أفيد من كتب التاريخ ، فلما كان المؤرخ ينظر الى الماضي من  
خلال شعوره الشخصى الحاضر فإن شروحه تكون بحكم الطبيعة غير سديدة ،  
والتقصص والروايات وألواح التصوير والمباني هي على خلاف كتب التاريخ مصدر معرفة  
صحيح موجب للاعتبار والاتفات .

ولا ينتقل الحس زماناً ومكاناً ، فلا شك في أن البناء العظيم الذى يقوم مستعيناً بعناصر تخص قرونًا قديمة أو شعوبًا مختلفة يمس شعورنا لاشتقاقه من مشاعر تناقض مشاعرنا ، ولو تغير شعورنا بتأثير تطور النوع لأصبح ما نعجب له الآن من آثار الماضى — كالبارتون والكنائس الفوطية والقصائد الغراء والتصاوير والنقوش الشهيرة — غير جدير بأن نتأمل فيه ، وليس من الضروري أن يكون تطور الشعوب مديداً لنستخف بما تعجب به الآن ، فيكفى لذلك أن تستمر التربية على اتجاهاها الحاضر نحو الاختصاص وأن يدوم اقتراب المجموع من القبض على زمام الأمور اقتراباً سريعاً ، لأن آثار الفن في نظر المجموع كناية عن نفائس وكليات تستحق الاهانة ، فعندما استحوذ نظام ( الكومون ) الذى هو عنوان روح الجماعات الصادق لم يتأخر رجاله عن حرق أجمل مباني باريس كدائرة البلدية وقصور التويلرى ، والمصادفة هى التى أنقذت قصر اللوثر وتحفه من يد التخريب

ومهما يكن مستقبل آثار الماضى فانها لا تزال ماثلة للعيان وهى التى ترشدنا الى تاريخ الحس والشعور ، فلولا هذه العناصر المستنبطة من الادب والفن لما اطلعنا على شعور الأزمنة ولجهلناه كما نجهل سكان البرجيس ، وما فى الأزمنة من معقول تقف عليه فى كتب العلم لخاوها من سمات مؤلفيها العاطفية ، فاذا كانت الروايات تم على تاريخها بنفسها مثلاً فان رسائل الهندسة ليست كذلك ، فقد يمكن أحد الرياضيين المتأخرين أن ينتحل رسالة ( أوقليدس ) الهندسية القديمة التى لا تزال تُدرّس ، لأن ( أوقليدس ) لما وضع رسالته استعان بالمعقولات التى لا صلة بينها وبين الحس والمشاعر أبداً ، فالعقل يضع حقائق عامة خالدة والحس يضع حقائق خاصة زائلة

٣ — ما ينشأ عن تقلبات الحس فى المجموع من تبدل فى المثل الاعلى والمعتقد

غاية الحركة فى الاسان هى البحث عن السعادة أى طلب اللذة وطرده الألم ، على هذا المبدأ اتفق الناس أجمعون ، وانما اختلفوا فى معنى السعادة ووسائل نيلها ، وللسعادة أشكال متنوعة مع اتفاق المقصود ، فأحلام الحب والغنى والرفعة والايمان إن هى إلا أوهام مسيطرة تلقىها الطبيعة فى قلوبنا لتسوقنا الى أقصى الغايات ، ومتى يتغير



مبدأ السعادة اى المثل الاعلى فى الرجل أو الامة فان طرز نظره فى الحياة ومصيره يتغيران ، وليس التاريخ سوى الاخبار عما يبذله الانسان من الجهد فى سبيل إقامة مثل أعلى والقضاء عليه بعد أن يصل اليه ويكتشف بطالانه

ومن أمل السعادة التى يتخيلها الشعب والمعتقدات التى هى عنوان ذلك الأمل تكون قوة هذا الشعب ، فمثل الشعب الأعلى يتولد معه و ينمو بنموه ويموت عند موته، ومهما تكن قيمة ذلك المثل الأعلى فانه يمنح الشعب الذى يعتنقه منعة عظيمة ، وتكون هذه المنعة على نسبة تأثير المثل الأعلى وان كانت وعود هذا المثل قليلة ، نعم قد ندرك السرفى كون الشهيد يرى من خلال الموقد باب الجنة ، ولكن ما هى فائدة الجندى الرومانى أو جندى نابليون من طوافه فى أقطار الارض إن لم يكن القتل أو القرع ؟ فقد كان المثل الاعلى الذى استولى على شعبه من القوة والجبروت بحيث يلفظ جذوة آلامه ، ومن مقتضياته أن يعد المرء أمر اللحاق بالأبطال سعادة أو فردوساً حاضراً يأخذ بمجامع الألباب .

### الفصل الثالث

دوائر الحركات الحيوية والنفسية — الحياة الشاعرة والحياة اللاشاعرة

١ — دوائر الحركات الحيوية والنفسية

لما كانت غاية هذا الكتاب هى البحث عن تكوين الآراء والمعتقدات فمن الضرورى ان نعلم أولاً البقعة التى تنبت فيها ، وقد زادت أهمية هذا البحث بنسبة ما أثبتته مبتكرات العلم الحديث من البطالان فى كتب علم النفس القديمة .

يمكننا أن نرجع حوادث ذوات الحياة الى ثلاثة أنواع تنضدت بعد أن تم ظهورها واحداً بعد الآخر على مر القرون ، وهى : أولاً الحوادث الحيوية كالغذوية والتنفس الخ ، ثانياً الحوادث العاطفية كالمشاعر والاطماع الخ ، ثالثاً الحوادث العقلية

كالتأمل والتفكير الخ . والحوادث العقلية هي أحدثها ظهوراً في تاريخ البشر ، والحياة العضوية والحياة العاطفية والحياة العقلية يؤثر بعضها في البعض الآخر تأثيراً متصلاً على رغم كونها مختلفة منفصلة ، ولهذا العلة يستحيل إدراك الأخيرة من غير أن نبحث عن الأولى ، فلقد أخطأ علماء النفس بتركهم أمر البحث في الحوادث الحيوية الى علماء وظائف الأعضاء وحدهم .

وسوف تثبت شأن الحوادث الحيوية عند ما نبحث في جزء من هذا الكتاب عن الحوادث التي يهيمن المنطق الحيوى عليها ، وأما في هذا الفصل فاننا لا نبحث الا عن المرحلة الأولى للحياة النفسية أى عن حركة النفس اللاشاعرة ، ولهذا المرحلة أهمية عظيمة ، إذ نرى جذور أفكارنا وسيرنا سائجةً فيها .

٢ — النفسية اللاشاعرة ومصادر الالهام

المشاعر لا تنفذ دائرة الشعور إلا بعد أن تنضج في منطقة اللاشعور نضجاً آلياً ، وبما أن الحوادث العقلية الشعورية هي أسهل إدراكاً فان علم النفس لم يطلع على غيرها في بدء أمره ، إلا أن العلم الحديث دل — مستعيناً بطرق صحيحة غير مباشرة — على أن الحوادث اللاشعورية تمثل في الحياة دوراً هو في الغالب أهم من الدور الذى تمثله الحوادث العقلية ، فيمكننا أن نتيس الحياة العقلية بالجزائر الصغيرة التي هي شماریخ جبال عظيمة مستترة بالماء ، وهذه الجبال هي اللاشعور .

معظم اللاشعور موروث عن الآباء ، وما قوته الا لكونه يمثل ميراث سلسلة طويلة من القرون التي زاد كل منها فيه شيئاً ، وقد أصبح شأنه الذى أغفل في الماضى من الأهمية بحيث أن بعض الفلاسفة — وعلى الخصوص ويليام جيمس وبركسون — أخذوا يفسرون أكثر الحوادث النفسية به ، وبتأثير هؤلاء الفلاسفة ظهرت في العالم حركة قوية ضد المذهب العقلى ، وقد غالى انصار المذهب الجديد في التشيع فيه فطفقوا ينسون أن المنطق العقلى وحده يأتى بمبتكرات العلم والصناعة التي هي قوام حضارتنا .

ولم تنشأ المباحث التي منحت دائرة اللاشعور تلك الأهمية عن التأمل بل عن

تجارب أتى بها لغاية أخرى هي ليست إيجاد أدلة فلسفية ، وأنى أذكر من تلك التجارب مباحث التنويم المغنطيسى وأنحلال الذات والسير فى المنام واستخدام الارواح الخ ، غير أن عامة المعلولات لا تزال مجهولة ، فى علم النفس اللاشعورى كما فى علم النفس الشعورى يجب الاكتفاء فى الغالب بالتحقيق والملاحظة .

والذى يسيرنا فى أكثر حوادث الحياة اليومية هو اللاشعور ، فلا تلبث ممارسة احدى الصنائع أن تصبح سهلة بعد أن يصير اللاشعور مديراً لها ، وما الأخلاق القويمة سوى لاشعور مثقف مهذب .

ويمكننا أن نقول إن اللاشعور هو عبارة عن مخزن مكتظ بالأحوال العاطفية والذهنية قد يتضعع ولكنه لا يقنى أبداً ، ولو سلمنا بما نترصده من أعراض بعض الأمراض لقلنا ان العناصر التى تدخل فى عالم اللاشعور تبقى فيه زمناً طويلاً ، بهذه الصورة وحدها نفسر بعض الحوادث التى نشاهدها فى الوسطاء أو المرضى الذين يتكلمون لغات لم يتعلموها ولكنهم سمعوها فى ريعان شبابهم .

والالهام الذى هو أصل الدهاء والعبقرية يصدر عن اللاشعور الموروث وعن التربية الصحيحة ، نعم يلوح لنا أن إلهامات القائد الذى يدوخ البلاد ويتحكم فى القدر ، والمتفنن الماهر الذى يبرز ما فى الأشياء من رونق وجمال ، والعالم الشهير الذى يستجلى الاسرار هي أمور غريزية ، ولكن اللاشعور الذى صدرت عنه هو الذى أنضجها مقداراً فمقداراً ، والمشاعر وان أمكن ان تظهر بتأثير بعض العوامل العقلية الا أنها تكون فى عالم اللاشعور على كل حال ، وقد ينتهى نضجها التدريجى بأن تظهر للعيان فجأة كالانقلابات الدينية والسياسية .

والمشاعر التى نضجت فى عالم اللاشعور لا تنفذ دائرة الشعور الا بتأثير أحد المحرضات ، وهذا هو السر فى جهاننا أحياناً مشاعرنا الحقيقية نحو ما يحيط بنا من موجودات ، وما أكثر المرات التى تكون فيها مشاعرنا وما ينشأ عنها من آراء ومعتقدات خلاف ما نظن ، وفى بعض الاوقات يكون الحب أو الحقد مستولياً على نفوسنا من غير أن نعلم ذلك ، وانما يدولنا ذلك عندما نرغم على العمل ، فالعمل

هو بالحقيقة مقياس المشاعر الذى لا ريب فيه ، وبه يعرف الانسان نفسه وتظل الآراء بدونه الفاظاً فارغة لا معنى لها .

٣ — اشكال اللاشعور : اللاشعور الذهنى واللاشعور العاطفى

يمكننا على ما أظن تفریق ثلاثة أنواع مختلفة فى عالم اللاشعور ، فالنوع الأول هو اللاشعور العضوى المسيطر على جميع أمور الحياة كالتنفس والدورة الدموية الخ ، فلما استقر أمره بتعاقب الوراثة فإنه يتوم بوظائفه قياماً داعياً للعجب دون أن نعلم ذلك ، وهو يسير الحياة فيقودنا من الطفولة الى الهرم ومنه الى الموت من غير أن نقدر على إدراك عمله .

وفوق اللاشعور العضوى يوجد نوع آخر يقال له اللاشعور العاطفى ، فتكوين هذا اللاشعور تم بعد تكوين الأول ، ولذلك فإنه أقل رسوخاً منه وإن كان على جانب عظيم من الرسوخ ، من أجل هذا الرسوخ الكبير ترانا لا نؤثر فى المشاعر الا قليلاً مع أننا نقدر على تبديل المواضيع التى نؤثر فيها بشاعرنا .

وعلى رأس تلك السلسلة يوجد نوع يسمى اللاشعور الذهنى ، فلما كان ظهوره على مسرح الكون حديثاً فإن جذور الوراثة ليست سائخة فيه كما يجب ، ومع أن أمر اللاشعور العضوى واللاشعور العاطفى قد أصبح من الثبات بحيث نشأت عنه غرائز تنتقل بالارث نرى أن اللاشعور الذهنى لا يزال يبدو على شكل أهواء وأغراض ، والتربية هى التى تتدرج به الى الكمال فى كل جيل .

إن للتربية سلطاناً كبيراً على اللاشعور الذهنى لكونه أقل رسوخاً من ذينك النوعين ، وليس لهذا اللاشعور سوى تأثير ضئيل فى المشاعر التى هى قوام الخلق ، وأما اللاشعور العاطفى فإنه يكون فى الغالب سيداً مهيمناً غير مبال بالمعقولات ، وهذا سبب كون كثير من الرجال الذين يكونون على جانب عظيم من الفطنة والصواب فى مؤلفاتهم وخطبهم يصبحون فى سيرهم آلات متحركة يقولون ما لا يودون أن يقولوه ويفعلون ما لا يريدون أن يفعلوه .

نستنتج من الايضاح السابق أن العقل ليس - كما ظن زمنًا طويلًا - أهم عامل في الحياة النفسية ، فاللاشعور هو الذى يُنْضِجُ ولا تصل نتأج هذا النضج الى دائرة العقل الا تامة التكوين كالالفاظ التى تتدفق على شفتى الخطيب ، وتتجلى قوة اللاشعور فى كون جميع ما يتم به على جانب عظيم من الدقة والضبط ، فالتدرب على إحدى الصنائع لا يكمل إلا إذا صار العمل يُنْجَزُ بقوة التكرار على شكل لاشعورى ، ولذا عرفنا التربية فى كتاب آخر بأنها عبارة عن إدخال الشعور الى اللاشعور .

ومع أن علم الحياة الحديث أصاب فى تقضه مبدأ علة العال فاننا نرى سلسلة الأشياء تبدو كأنها خاضعة لهذا المبدأ ، يؤيد ذلك كون الشروح العقلية التى أتى بها العلماء لم تقدر على حل كثير من الأمور الغامضة فى الكون ، على أننا لو نظرنا الى اللاشعور من حيث نتأجه لرأيناه يشتمل على شياطين لطيفة - هى سبب الاسباب الحديث - تسعى فى إعمائنا لنضحى بمنافعنا الشخصية فى سبيل منافع الجنس ، وما هذه الشياطين الا كناية عن ضرورات تأصلت فى النفوس بفعل الزمان .

والأمر مها يكن فان اللاشعور يهيمن علينا فى الغالب ويعمى أبصارنا على الدوام ، ولا نأسف على ذلك ، لأن كشف المصير يجعل الحياة شقية ، فالبقر لا يرى الكلاً مطمئناً إذا علم أن مصيره الى الذبح واكثر الموجودات تتقهقر جزعاً لو اطلعت على نصيبها .

## الفصل الرابع

### الذات العاطفة والذات العاقلة

١ - الذات العاطفة والذات العاقلة .

يرشدنا البحث عن العوامل التى هى سبب آرائنا ومعتقداتنا الى كون هذه الآراء والمعتقدات تابعة لأنواع المنطق المختلفة ، وقبل درس هذه الأنواع أقسم العناصر

النفسية تقسماً أساسياً هو أصل كل تقسيم ، فهذه العناصر النفسية قسمان : العناصر العاطفة والعناصر العاقلة ، وبهذا يسهل فهم فصول كثيرة نبحت فيها عن أنواع المنطق المختلفة .

تميز المشاعر عن العقل أمر وقع حديثاً في تاريخ البشر ، فقد كان أجدادنا الأقدمون يحسون ويتأثرون كثيراً ولكنهم كانوا لا يعقلون الا قليلاً ، غير أن الانسان لما بلغ شأواً بعيداً في تطوره أخذ يتفلسف ويتحذق فظهر الفرق حينئذ بين المشاعر والعقل ، وأما العهد الذي ثبت فيه كون المشاعر تخضع لأحكام منطق خاص يختلف عن المنطق العقلي اختلافاً كبيراً فقريب الى الغاية .

وجهل هذا التفريق هو أحد أسباب الخطأ في ظنوننا وأفكارنا ، فقد أرادت كنانة كثيرة من المشتغلين بالسياسة أن يقيموا بالعقل ما لا يتم أمره الا بالمشاعر ، وقد رأى كثير من المؤرخين الذين قل اطلاعهم على دقائق الأمور أن يشرحوا بالمنطق العقلي حوادث لم يلبها العقل قط ، وهذا هو السبب في أن تكوين أكثر العوامل المهمة في التاريخ - كنشوء المعتقدات وانتشارها - ظل معروفاً قليلاً .

وهناك فلاسفة عظام خاطوا مخطئين المنطق العاطفي بالمنطق العقلي ، فقد حاول ( كانت ) تشييد دعائم علم الأخلاق على أساس العقل مع أنه لا شأن للعقل في أكثر منابع الأخلاق ، ولا يزال أكثر علماء النفس يتجادون في الضلال المذكور ، وقد أصاب ( ريبو ) في إشارته الى ذلك حيث قال : « يريد علماء النفس بأوهامهم العقلية المتأصلة أن ينسبوا كل شيء الى العقل وأن يشرحوا به كل أمر جاهلين أن الحياة النباتية جاءت قبل الحياة الحيوانية وأن هذه تستند الى تلك وأن الحياة العاطفة أتت قبل الحياة العاقلة وأن هذه تستند الى تلك . »

ومن الضروري أن أطلب في البحث عن الفرق بين العاطفي والمعقول لأبغ الغاية التي توخيتها في هذا الكتاب ، إذ الغفلة عنه تقضى علينا بأن نجعل تكوين الآراء والمعتقدات ، ومع ذلك يصعب أن نفرق بين العاطفي والمعقول تفريقاً دقيقاً لأن التقسيمات اللازمة في مباحث العلم تُفرض الى ما تجمله الطبيعة من قطع في سلسلة الأشياء ، الا أن العلم لا يتكون إذا لم نعلم كيف نفصل ما اتصل .

إن انفصال العاطفي عن المعقول وقع في دور بلغ فيه الإنسان درجة راقية من درجات التطور، ونظن أن المعقول نشأ عن العاطفي لكون العاطفي أقدم منه ثم إن الحيوان يكون في الغالب ذا مشاعر نامية مثل مشاعرنا، فالإنسان لا يمتاز من الحيوان إلا بتقدم عقله .

ومن صفات المشاعر كونها معلومة من قبل صاحبها مع أنه يصعب تعريفها، وإذا عُبِّرَ عنها بعبارة عقلية، فبالعقل نعرف وبالمشاعر نشعر، ولا يمكن الأعراب عن المعرفة والشعور بلسان واحد، نعم قد استطاع العقل أن يجد له لساناً متقناً محكمًا ولكن لسان المشاعر لا يزال مبهمًا غير صريح .

ومع تأثير الذات العاطفة والذات العاقلة الواحدة في الأخرى فإن لهما كيانين مختلفين، لأن الذات العاطفة تتطور على رغم أنفنا وكثيراً ما تتطور ضدنا، وهذا سر ما في الحياة من تناقض، فإذا أمكن أن نزرع أحياناً مشاعرنا فلا تقدر على إيجادها أو محوها .

إذاً ليس من الصواب أن نؤنب المرء إذا تغير، ذلك لأن هذا التائب ينم على المبدأ الباطل القتل إن العقل يستطيع أن يهيم على المشاعر، فمتى ينقلب الحب الى ضده فإن العقل يلاحظ هذا الانقلاب فقط دون أن يكون علتة، ولا علاقة للأسباب التي يتخيلها العقل عند ما يفسر مثل ذلك الانقلاب بالأسباب الأصلية التي نجعلها، وفي الغالب لا نعرف مشاعرنا الحقيقية أكثر من أن نعرف العوامل الموجبة لها . قال ريبو : « كثيراً ما يتصور المرء أنه يشعر بحبه لآخر حباً جماً، فالغيباب أو ضرورة انقطاع أخرى قد تثبت لنا أن هذا الحب سريع العطب كما أنه قد تثبت لنا صدق حب لا يكون بادياً بتأثير العادة . »

وعلى ما تقدم يتعذر إدراك سير الذات العاطفة عن طريق الذات العاقلة كما لاحظ المؤلف المشار إليه أيضاً، ومع ما بين الحياة العاطفة والحياة العاقلة من تباين واختلاف فإننا لا نبالي في سلوكنا بالفرق بين المشاعر والذكاء، يؤيد هذا القول طرق تربيتنا اللاتينية . فمن أباطيل جامعاتنا الخطرة هو اعتقادها أن إتمام الذكاء بالتعليم يؤدي الى نمو المشاعر التي هي أساس الخلق، وهي في ذلك على خلاف

التربية الانكازية التي أدركت منذ زمن طويل أن تهذيب الخلق لا يتم بمزاولة الكتب .

وبما أن الذات العاطفة تختلف عن الذات العاقلة فاننا لا ندهش إذا سمعنا أن رجلاً ذا ذكاء عال قد يكون نذلاً في أخلاقه<sup>(١)</sup> . لا ريب في أن الذكاء والتعليم - بإثباتهما أن عدم الاستقامة يضرّ الانسان أكثر مما يفيد - يجعلاننا لا نصادف سوى قليل من المتعلمين يتخذون اللصوصية مهنة ، ولكن اذا وجدت في المتعلم روح لص فإنه يتمسك بها على رغم ما ناله من الشهادات العلمية وبها يستعين في أعماله غير الشريفة .

والفرق بين الذات العاطفة والذات العاقلة الذي يشاهد في اكثر الأفراد يشاهد أيضاً في بعض الشعوب ، فقد أشارت ( مدام دوستايل ) الى انه لا ارتباط بين الشاعر والذكاء في الالمان ، ويشاهد هذا الفرق في الجماعات الموقتة على وجه اكثر وضوحاً ، لأن العناصر التي تملئ على الجموع أمر حركتها هي الشاعر لا الذكاء وقد بينت عال ذلك في كتاب آخر ، فلنتذكر أن الذكاء الذي يختلف باختلاف الاشخاص ولا ينتقل كالمشاعر بالمعدوى النفسية لا يكون ذا شكل جموعى أصلاً ، وأما الأشخاص الذين ينتسبون الى عرق واحد فهم ذوو مشاعر متجانسة لا تلبث أن تتحد عند ما يصبحون جماعة

والعنصر الأساسي في الانسان هو الذات العاطفة ، فلما تم نضج هذه الذات ببطء على مر الأجيال فانها تتطور في الأفراد والشعوب بسرعة أقل من السرعة التي

---

( ١ ) نذكر من بين الأمثلة الكثيرة التي حكي عنها التاريخ مثال الوزير ( بيكن ) البارز : لم يكن في زمن هذا الوزير من يدانيه ذكاء ، ولكن لم يكن أيضاً من أبدى مثله دناءة ، فقد كانت باكورة أعماله في الحياة أن خان (الكونت ديسكس) الذي أحسن اليه اكثر من كل انسان فأوجب قطع رأسه طمأناً في نيل منصب عند الملكة ( اليبابات ) ، وبعد أن جلس الملك جاك الأول على العرش نال منصب نائب عام ثم منصب وزير بناء على رجاء الدوك دوكنتقام الذي خانه أيضاً ، وفي أيام وزارته بلغت جرأته على سرقة بيت المال والناس مبلغاً جعل القضاء يتبعه ، وقد حاول عبثاً أن يستعطف قلب القضاة باعترافه كتابية بذنوبه ، إذ حكموا عليه بالسجن مؤبداً .



يتطور بها الذكاء ، نعم يظهر أول وهلة أن التاريخ يناقض هذا الفكر ، لأن التاريخ يدلنا على أن مشاعر جديدة تتولد مختلفة عن التي جاءت قبلها اختلافاً عظيماً ، فالأمة التي ظهرت في وقت بمظهر المحب للحرب لا تلبث أن تصبح مسالمة ، وكثيراً ما نجىء الحاجة الى المساواة بعد الحاجة الى التفاوت ، وطوراً تحل الزندقة مكان الايمان ، إلا أن تحليل هذه الأمور يثبت لنا أن تطور تلك المشاعر ليس إلا ظاهرياً ، فالحقيقة هي أن المشاعر لا تبدل سوى توازنها ، وعلّة هذا التبدل هو كون الانسان في المجتمع يضطر الى تكيف مشاعره حسب مقتضيات الوقت التي يلجىء اليها تعاقب الأحوال ، فتستولى حينئذ بعض المشاعر التي كانت مزجورة على البعض الآخر

وقد يبدو لنا أحياناً أن المشاعر تغيرت مع أن هذا التغير لم يكن إلا موضعياً ، فالأمل الجاذب الذي يقود العامل في الوقت الحاضر الى الحانات حيث يعده رسل الانجيل الجديد بمحنة مقبلة هو عين المشاعر التي كانت تسوق آباءنا الى الكنائس حيث كان يتراءى لهم من بخار لبانها تفتح أبواب السعادة الأبدية .

## ٢ — مظاهر الحياة العاطفة : الانفعالات والمشاعر والحرص

يطلق المؤلفون على مظاهر الحياة العاطفة اسم الانفعالات أو اسم المشاعر ، وعندى أن وصف تلك المظاهر يتطلب تقسيمها الى ثلاثة أنواع : الانفعالات والمشاعر والحرص ، فاما الانفعالات فهي مشاعر موقته غير ثابتة وهي تنشأ عن احدى الحوادث الفجائية كالنازلة والمنعة والوعيد والشتيمة ، ونعد الغضب والخوف والهول من فصيلة الانفعالات ، وأما المشاعر فهي حال عاطفية مستمرة كالحلم والرفق والدمائة الخ ، وأما الحرص فصادر عن مشاعر شديدة قادرة على إبطال تأثير الأخرى كالحنق والحب الخ .

ويقابل هذه الأحوال النفسية تغير في وظائف الأعضاء مع اننا لا نعرف سوى بضع نتائج دالة على وقوع تلك التغيرات كاحمرار الوجه واضطراب الدورة الدموية الخ ، فما يقع في الخلايا العصبية من تبدل طبيعي أو كيميائي وما ينشأ عن هذا التبدل من مشاعر يثبتان لنا وجود صلة بين الطرفين لا نعرف عنها شيئاً سوى طورها النهائي ،

ومما يتعذر علينا في الوقت الحاضر هو أن نبين كيف ينقلب تطور خليات الاعضاء  
تطوراً كيمياوياً الى مشاعر .

وقد تختلف المشاعر والانفعالات باختلاف ما يطرأ على الاعضاء من أحوال  
صادرة عن بعض المهيجات كشرب القهوة والمسكرات الخ  
وأبسط المشاعر هو كثير التعبد بالحقيقة ، ولكن عند ما نعجز عن تحليله نصفه  
بالبسيط تقريباً للذهن ، فنحن في ذلك كالكيمياء الذي يعتبر بعض الاجسام  
بسيطة حين لا يقدر على تحليلها .

ويبحث علماء النفس أحياناً عن المشاعر الذهنية ، فقد قال ( ريبو ) ان هذا  
التعبير « يدل على أحوال عاطفية طيبة أو ذات لغوب هي من عمل الذكاء » ، إنني  
لا أرضى بهذه النظرية التي لا تفرق بين العلة ومعلولها ، فأحد المشاعر وإن جاز أن  
يحدث بتأثير طعام شهي إلا أنه يبقى من نوع المشاعر على الدوام .

ومتى زادت المشاعر قوة واستعصت تصبح حرصاً كما ينسا ذلك آنفاً ، ولم  
يستطع علماء النفس أن يُعرّفوا المشاعر ويصنفوها ، فقد قسمها ( سينوزا ) الى الرغبة  
والفرح والحزن واستخرج من هذه الاقسام بقية المشاعر ، واما ( ديكرت ) فقد قال  
بوجود ستة أنواع أصلية هي العجب والحب والحقد والرغبة والفرح والحزن ، فهذه  
التقسيمات إن هي إلا أوضاع لغوية لا توضح شيئاً ولا تقف أمام سلطان النقد .

قد يتكون الحرص كالصاعقة فجأة وقد يتكون على مهل ، وعند ما يتم نشوءه يستولى  
على الذهن أو العاطفة دون أن يكون للعقل الذي يخضع لحكمه تأثير فيه ، والحرص  
الكبير يندر وقوعه ، فلما كان الحرص الذي يقع في الغالب موقفاً فإنه لا يلبث أن  
يزول بعد أن ينال صاحبه مبتغاه ، وهذه قاعدة ثابتة في مسائل الحب ، فإبطال  
الحب الشديد هم على الاكثر أناس تحول الاحوال دون التقائهم كثيراً ، والحرص  
الذي يستمر زمناً طويلاً هو الذي يضطرم على الدوام كلاحقاد السياسية مثلاً ،  
ويغيب الحرص في أغلب الاوقات منطقتاً وفي أقلها متبدلاً ، وحينئذ تتحول الآراء  
التي كانت سبب ظهوره ، قال ريبو : « قد ينقلب حب الانسان من حب بشري  
الى حب الهى وقد يتحول التعصب الدينى الى تعصب سياسى أو اجتماعى والعكس

بالعكس ، مثال ذلك ( ايغناس دولوايولا ) الذى عدل عن خدمة أحد الملوك الى خدمة المسيح مؤسساً طريقة اليسوعيين »

والعقل لا يؤثر فى الحرص الا بعد أن يطرأ على الحرص ضعف ، وأما تأثيره فيكون بتسليطه أحد المشاعر على الآخر ، وما يقع وقتئذ من عراك فبين المشاعر لا بين المشاعر والعقل .

٣ — ذاكرة الشاعر

للمشاعر ذاكرة كذاكرة العقل وان كانت أدنى منها كثيراً ، فهي لا تلبث أن تهين بفعل الزمان ، وأما ذاكرة العقل فهي على جانب عظيم من الثبات عند ما يستعان بها حتى أن آثاراً كبيرة ككتب الهندوس المقدسة المسماة (فيدا) وأغانى (هوميروس) انتقلت الينا جيلاً بعد جيل عن طريق ذاكرة العقل ، وقد كان طلاب العلم فى القرن الثالث عشر — حيث كانت الكتب نادرة ثمينة — يحفظون عن ظهر القلب ما على عليهم من الدروس . قال ( اتكينسون ) : « إن كتب الصين التقليدية لو محقت فى هذه الايام لاستطاع أكثر من مليون صيني أن يجمعوها بفضل ذاكرتهم »

ولو كانت ذاكرة المشاعر كذاكرة العقل ثباتاً لجعل ما نحفظه من آلام حياتنا لا تُطاق ، غير أنه يعترض على عدم رسوخ ذاكرة المشاعر بدوام احقاد الطبقات والشعوب دواماً مستمراً مع تعاقب السنين ، نجيب عن هذا الاعتراض قائلين إن ذلك الاستمرار الظاهرى لم ينشأ الا عن علل واحدة تكررت تكراراً متصلاً . حقاً إن الحقد اذا لم ينبّه لا يدوم أبداً ، فلولا الصحف الألمانية التى كانت توقد نار الحقد فى قلوب الألمان ضد الافرنسيين إيقاداً غير منقطع لزال ذلك الحقد ، واذا بقى الكره يغلي فى صدور الهولنديين للانكليز الذين سلبوهم فى الماضى مستعمراتهم فذلك لأن حوادث كثيرة كحرب الترنسفال أحييت ذلك الكره ولأن هولندا تعتقد على الدوام أن انكلترا تهددها ، وثبتت المحالفة الروسية والاتلاف الفرنسوى الانكليزى كيف أن شعوباً متعادية فى الماضى لا تلبث ان تنسى احقادها اذا لم

تحافظ عليها ، واغرب ما في ذلك هو أن انكلترا أصبحت صديقتنا في وقت غير بعيد من حدوث مذلة ( فاشودا ) .

يوضح المبدأ القائل بقلة استمرار ذاكرة المشاعر كثيراً من الحوادث المماثلة لحياة الشعوب ، فيجب ان لا يُعتمد على شكرها كما أنه يقتضى ان لا يُفزعَ من حقدها .

؛ — اشتراك المشاعر واشتراك الأفكار

سنبحث عن بعض عناصر الذكاء الأساسية في الفصل الذي خصصناه في هذا الكتاب لفحص المنطق العقلي ، واذا أشرنا هنا الى تلك العناصر فذلك لبيان كيفية اشتراك العناصر العقلية والعناصر العاطفية وتأثير بعضها في البعض الآخر .

ان صفة الذكاء البارزة هي التأمل والتعقل أى إدراك علائق الأشياء الظاهرة والمستترة حسب بعض القواعد والسنن ، وكذلك المنطق العاطفي فله قواعده وسننه ولما كانت منطقة اللاشعور مرتع هذه السنن فانها لا تبدو للشعور الا كمعولات .

بيننا أن حياتنا النفسية تتألف من مشاعر ومعقولات ، فكيف يؤثر أحد هذين الطرفين في الآخر ؟ نعلم من نظريات علم النفس أن الأفكار تشترك على وجهين : اشتراك بفعل المحاكاة والمشابهة واشتراك بفعل الاتصال والملاصقة ، فاما الاشتراك بفعل المحاكاة والمشابهة فهو أن يذكرنا الانطباع الحاضر بانطباعات سابقة متشابهة ، وأما الاشتراك بفعل الاتصال والملاصقة فهو أن يذكرنا الانطباع الحاضر بانطباعات أخرى وقعت معاً دون أن يكون بينها وجه شبه ، ويظهر لنا أن المشاعر تشترك كما تشترك الأفكار ، وقد يشترك الطرفان بالسوية بحيث نتذكر باحدهما الطرف الثاني .

والفرق بين اشتراك المشاعر واشتراك الأفكار هو أن الأول يقع في الغالب على وجه لاشعورى بعيد من تأثيرنا ، وسنرى على رغم هذا الفرق أن الذات العاطفية والذات العاقلة قد تؤثر أحدهما في الأخرى بفعل الاشتراك الذى أشرنا اليه في هذا المطلب .

## الفصل الخامس

### عناصر الذات ، امتزاج المشاعر التي يتألف الخلق منها

١ — عناصر الخلق

يتألف الخلق من تكتل عناصر عاطفية ينضم إليها بضعة عناصر عقلية تمتاز بالأولى قليلاً جداً ، فمن العناصر العاطفية تشتق شخصية الانسان الحقيقية ، وبما أن هذه العناصر كثيرة الى الغاية فانه ينشأ عن اشتراكها اخلاق متنوعة أى أخلاق نشيطة وأخلاق متبصرة وأخلاق جامدة وأخلاق حساسة الخ ، وكل من هذه الأخلاق يعمل عمله المختلف بتأثير المحرضات الواحدة .

وقد يكون الملاط بين عناصر الخلق وثيقاً وقد يكون واهناً ، فمن العناصر ذات الملاط المتين تتألف شخصيات قوية تظل ثابتة على رغم تغير البيئة والأحوال ، ومن العناصر ذات الملاط الضعيف تتألف شخصيات رخوة مذبذبة متقلبة تتبدل بتأثير أخف المؤثرات إذا لم تعين مقتضيات الحياة اليومية وجهتها كما تعين ضفتا النهر مجراه ، غير أن الخلق مهما يكن ثابتاً فإنه يبقى مربوطاً بأحوالنا العضوية ، فالألم العصبي أو الرثية أو المغص يحول الفرح الى غم والصالح الى خبث والعزم الى خنث ، ولذلك لم يكن نابليون المريض في ( واترلو ) نابليون الممهور ، ولو كان ( يوليوس قيصر ) ذاتخمة لما عبر نهر ( الروبيكون ) ، وكذلك العوامل الأدبية فانها تؤثر في الخلق أو تعين وجهته على الأقل ، فمتى يمتنع المرء ايماناً فان حبه للدنيا ينقلب الى حب الله ، وقد يصبح الكاهن المتمصب الظالم ملحداً ولكنه يصير مؤذياً متعصباً لالحاده .

لقد بينت أن الخلق والعقل ليسا متآزبين في نموها ، فعلى نسبة ميل الخلق الى الوهن ينمو العقل ، فالذى أوجب تداعى مدنيات عظيمة هو شدة العزم في الشعوب ذات العقل الصغير ، إذ إن أرباب النفوس ذات الحزم والاقدام لا تقف أمام

ما ينصبه العقل من الموانع ، ولا تلبث السلطة في المجتمعات الزاهرة النضرة التي ضعفت الارادة فيها أن تنتهي في الغالب الى أولى الجراءة من محدودى العقل والذكاء ، وهذا ما يجعلنى أشاطر مختاراً رأى ( فاكهه ) القائل متى يسود السلم أوروبا فان « الشعب الذى يبقى مسلحاً يفتتحها » وسيستعبد هذا الشعب شعوب أوروبا ويرغم المسالمين من أصحاب الذكاء الماطلين من النشاط والعزم على العمل الذى يستفيد منه

٢ - أخلاق الشعب الجامعة

لكل شعب اخلاق جامعة مشتركة بين أكثر أفرادها ، فلكل الأخلاق تحدث في الشعب آراء متشابهة في بضعة مواضيع جوهرية ، ولا حاجة لاخلاق الشعب الاساسية أن تكون عديدة ، إذ الاستقرار في أخلاق الشعب لا عددها هو الذى يهيمن على مصيره ، فلو أخذنا الانكليز مثلاً لرأينا أن العوامل التى تقود تاريخهم هي من القلة بحيث يمكن تلخيصها في بضعة أسطر واليكها : عبادة المجهود الثابت المستمر الذى يمنع المرء من التقهر أمام أى مانع والذى يجعله يعتبر كل كارثة أمراً لا يرتق فتقه ، احترام العادات وكل ما أثبتته الزمان احتراماً دينياً ، الحاجة الى العمل وازدراء تأملات الفكر العقيمة ، احتقار الضعف ، حب الواجب ، اعتبار ردع الرجل نفسه بنفسه صفة أصلية يجب على التربية أن تعتنى بها اعتناء خاصاً .

وهناك نفاص خلقية لا تطاق في الأفراد ولكنها تصبح فضائل عندما تخص المجتمع كالفخر مثلاً ، فالفخر الشعبى يحرض الأمم على الحركة والعمل ، وبفضله كان الجندى الرومانى يجد ثواباً كافياً بانتسابه الى أمة دوخت العالم ، وما الشجاعة الحارقة التى أبدتها اليابانيون في حربهم الأخيرة مع الروس الا صادرة عن مثل ذلك الفخر ، ثم إن الفخر أساس الرقى ، فحق شعرت الأمة بافضليتها على الأمم الأخرى فانها تبذل جهدها للمحافظة على تلك الأفضلية .

بالخاق لا بالذكاء تفترق الشعوب وتتحاب وتباعد ، وما بينها من تباين فبالأخلاق لا بالذكاء الذى هو من نوع واحد عند جميعها ، ولما كان تأثير الشيء الواحد في الشعوب يختلف باختلافها فان سير هذه الشعوب يتباين بحكم الطبيعة حتى

في الأحوال التي يظهر أنها واحدة ، وسواء أنظرنا الى الشعوب أم نظرنا الى الأفراد فان الاختلاف بين البشر يكون باختلاف الاخلاق اكثر منه بالمنافع والذكا .

٣ — تطور عناصر الخلق

بما أن لحة الخلق تتألف من مشاعر أساسية فان تطور المشاعر المذكورة يقع ببطء على مر القرون كما يؤيد ذلك ثبات الأخلاق القومية ، فالعناصر النفسية التي هي مصدر هذه المشاعر راسخة رسوخ العناصر التشريحية ، ولكن يوجد حول الأخلاق الأصلية أخلاق ثانوية تستطيع أن تتغير حسب الزمان والبيئة .

والذي يتبدل على الخصوص هو الموضوع الذي تطبق عليه المشاعر ، فاحب الأسرة ثم القبيلة ثم المدينة ثم الوطن الا تطبق مشاعر واحدة على جموع مختلفة ، ونعد المذهب الأممي والمذهب السلمي عبارة عن انتشار جديد لتلك المشاعر ، كانت الحمية الوطنية قبل قرن مجهولة في المانيا على وجه التقريب ، فقد كانت المانيا منقسمة الى دويلات متنافسة ، وإذا عُدَّ حب الاتحاد بعدئذ في المانيا فضيلة فان هذه الفضيلة ليست سوى ذبوع مشاعر قديمة بين طبقات جديدة .

الأحوال العاطفية هي من الثبات بحيث يتطلب تطبيقها على مواضيع جديدة جهوداً عظيمة ، فقد أوجب نيل شيء من التسامح قتل ألوف من الشهداء وسيل الدماء كالنهر في حومة الوغى كما قال الموسيو ( لايس ) .

ومن الأمور الخطرة في حياة الشعب هو أن يسعى هذا الشعب مستعيناً بالعقل في إيجاد مشاعر مناقضة للمشاعر التي رسخت فيه بفعل الطبيعة ، فها نحن نعانى نتائج ثورتنا الكبرى حتى الآن ، إذ أفضت هذه الثورة الى انتشار الاشتراكية التي تزعم أن من الممكنات تغيير مجرى الأشياء الطبيعي وتجديد روح الأمم .

ولا يعترض على المبدأ القائل بثبات المشاعر كوننا نشاهد في بعض الأحيان تقلبات فجائية في شخصية الانسان كالتحولات الاسراف الى بخل والحب الى حقد والتعصب الديني الى تعصب للحاد الخ ، فهذه التقلبات لم تكن الا تطبيقاً للمشاعر الواحدة على مواضيع مختلفة .

ويوجد عوامل متنوعة - كقفتضيات الاقتصاد مثلاً - قادرة على نقل مكان مشاعرنا دون أن تبدل شيئاً فيها ، ونذكر من بين مقتضيات الاقتصاد كون انتشار الملكية بين كثير من الناس يؤدي الى تناقص عدد المواليد ، فلو أصبح جميع أبناء البلاد ملاء كلاً لقل عدد السكان اكثر من ذى قبل على ما يحتمل .

لا تبدل المشاعر التي هي أساس الخلق وجهتها من غير أن تنقلب حياة المجتمع رأساً على عقب ، فما مصدر الحروب الدينية والحروب الصليبية والثورات إلا ذلك التبدل ، والذي يجملنا في الوقت الحاضر نرى جو المستقبل مكفهراً هو أن مشاعر طبقات الشعب اخذت تحول وجهتها ، فقد أصبح كل واحد - بفعل أوهام المذهب الاشتراكي - ساخطاً على نصيبه معتقداً أنه يستحق نصيباً آخر اطيب منه ، وقد صار العامل يظن أن الطبقات القائدة مستغلة ، ولذا صار يحلم بالاستيلاء على أموالها عنوة .

## الفصل العاشر

### انحلال الخلق وتقلبات الذات

١ - التوازن بين عناصر الخلق

بيننا أن عناصر الخلق راسخة رسوخ العناصر التشرىحية ، والآن نقول إنه قد يصيب الاولى ما يصيب الثانية من أمراض مختلفة حتى الانحلال التام ، فلهذه الأحوال تأثير عظيم في تكوين الآراء والمعتقدات ، ويظل إدراك بعض الحوادث التاريخية ممتنعاً إذا لم نقف على ما يقع في الخلق من تبدل عرضي .

وسوف نرى في فصل آخر أن العوامل التي تصدر عنها آراؤنا ومعتقداتنا وأفعالنا هي مثل العيارات الموضوعة على كفتي الميزان ، فالكفة التي تنقل عياراتها تهبط ، غير أن الامور لا تجرى تماماً على هذا الوجه البسيط ، فقد تهزيف العوامل التي اتخذنا العيارات رمزاً لها بتأثير بعض المعكرات ، حينئذ يتغير الاحساس وينقل مقياس القيم ويتحول اتجاه الحياة فتتجدد الذات .



تشاهد تلك التقلبات على الخصوص عندما يطرأ اختلال عظيم على ما بين البيئة الاجتماعية التي تغيرت فجأة وبين المشاعر من توازن ، والوقوف على التوازن بين البيئة التي تكتنفنا والعناصر التي تتألف منها انما هو على جانب عظيم من الأهمية ، فهذا التوازن لا يختص بعلم النفس وحده بل يتناول علم الكيمياء وعلم الطبيعة وعلم الحياة أيضاً ، فالجسم - سواء أ كان جماداً أم كان من ذوات الحياة - ينشأ عن توازن بينه وبين بيئته ، ويتبدل هذا الجسم بتبدل البيئة ، فقد يمكن سبيكة الفولاذ أن تصبح بخاراً خفيفاً إذا كانت في بيئة ملائمة .

وكذلك فان اقطاب السياسة يقدرون عند الحاجة على تغيير ما بين عناصر الخلق القومى من توازن وذلك بجعلهم ما هو ملائم منها لمقتضيات الزمن يتغلب على الأخرى .

٢ - تقلبات الذات

تبين من الملاحظات السابقة أن الذات قد تتحول ، وتشتق هذه الذات كما رأينا من عاملين لازمين هما الموجود نفسه ثم بيئته ، والقول بأن ذات الانسان متحولة لا يلائم الافكار التقليدية التي تزعم ثبات الذات ووحدتها .

حقاً إن ذات الإنسان تتألف من خلايا لا يحصى عديدها ، فكل خلية تشترك في تكوين وحدة الذات اشتراك الجندي في تكوين وحدة الجيش ، والتجانس الواقع بين الألوف من الرجال الذين يتألف الجيش منهم ناشئ عن اتحاد حركتهم الذى قد تقضى عليه علل كثيرة .

ولا طائل تحت الادعاء بأن الذات تظهر ثابتة على وجه العموم ، فالذات إذا لم تغير فذلك لعدم تحول البيئة الاجتماعية ، ولو تحولت البيئة فجأة - كما يقع أيام الفتن - لتبدل الاشخاص أنفسهم تماماً ، فقد شوهد في دور الهول الاكبر رجال من أبناء الطبقات الوسطى اشتهروا في الماضى بدماثة أخلاقهم ولين طبائعهم قد اصبحتوا سفاهة كين متعصبين ، وعندما هدأت الزوبعة وعادت البيئة السابقة رجعت الى أولئك الرجال شخصيتهم السامية ، ولقد فصلت هذه النظرية منذ زمن بعيد فأثبتت أن حياة رجال الثورة الفرنسية تظل سرّاً غامضاً بدونها .

وما هي عناصر الذات التي تتركب شخصية الانسان من مجموعها؟ لا يزال علم النفس غير مجيب عن هذا السؤال؛ وأما نحن فنقول إن عناصر الذات تنشأ عن شخصيات موروثه تكونت بتعاقب القرون، فالذات هي كما ذكرت مؤلفة من ملايين من محايٍ خلوية، ومن هذه المحاي تتكون اطوار كثيرة.

فبعض المهيجات الشديدة أو بعض الامراض كالتي تشاهد في الوسطاء والمنومين الخ تحول تلك الاطوار وتولد ولو مؤقتاً في الرجل نفسه شخصية أخرى أرفع أو أدنى من شخصيته المعتادة، فنحن نشتمل على إمكانات خلفية هي أعظم مما نطبقه عادة وتحركها فينا بعض الحوادث والأحوال.

٣ - عناصر الثبات في الذات

تألف من البقايا والفضلات التي تنتقل الينا بالوراثة طبقة خلقية عميقة ثابتة، وبهذه البقايا الارثية يختلف الانكايزي عن الفرنسي أو الصيني اختلافاً كبيراً، إلا أنه ينضم الى هذه الموروثات عناصر مصدرها التربية والبيئة الاجتماعية كالطائفة والقبيلة والمهنة وغيرها من المؤثرات الكثيرة، فهذه العناصر هي التي تعين وجهة الانسان تعييناً ثابتاً.

واكثر العناصر التي تتكون الذات من مجموعها فعلاً - بعد العرق - هي التي تتعرف بها الجماعة التي ننسب اليها، فلما صُبت افراد هذه الجماعة عسكرية كانت أم قضائية أم كهنوتية أم نوتية الخ في قالب واحد من الافكار والآراء والسلوك فإنهم يكونون ذوى أخلاق متجانسة. وإذا تقاربت آراء هؤلاء وأحكامهم بوجه عام فذلك لأن زمرتهم الاجتماعية بتسويتها بينهم جعلت شذوذ اى واحد منهم أمراً لا يطاق، فمن يريد أن يمتاز من جماعته تناصبه هذه الجماعة العدا بمرمتها.

ولا يخلو استبداد الطبقات الاجتماعية من فائدة كما سنبين ذلك، فأين يجد أكثر الناس انتحاءهم النفسى الضرورى إذا لم تكن آراء الجماعة التي هم منها وسيرها دليلاً لهم؟ إنهم بفضل الزمرة التي ينتسبون اليها يملكون طرزاً في السير والدفع على

شئ من الثبات ، وبفضل هذه الزمرة أيضاً نرى لأرباب الطبائع الهينة وجهة وقراراً في الحياة .

ويحتوى الناس بانتمائهم الى احدى الجماعات على قدرة لا يحلم بها الرجل وهو منفرد أبداً ، فلم تكن مذابج الثورة الفرنسية الهائلة صادرة عن أعمال فردية ، وإنما أتى بها مقترفوها - من جيرونديين ودانطونيين وهيبريين وروبسبيريين - وهم على شكل جماعات تطااحت تطاحناً تجلى فيه ما هو خاص بالجماعات من تعصب أعمى ووحشية شديدة .

٤ - صعوبة التنبؤ بما يندأ عن الخلق من سير وحركة .

لا يدعين أحد أنه يعرف ذاتاً غير متقلبة اولا تؤثر فيها الاحوال ، وإنما الذى يمكنه أن يقوله هو أن الاحوال إذا لم تتغير فان سير الشخص الذى اختبره لا يتغير أبداً ، لا ريب في أن رئيس القلم الذى أنشأ تقارير صادقة في عشرين سنة يستمر على إنشاء مثلها بصدقه المعبود ، ولكن يجدر بنا أن لا نؤكد هذا القول كثيراً ، إذ قد تحدث أحوال جديدة - كحرص شديد يستولى على بصيرته أو خطر يهدد شرف أهله أو وطنه - فيصبح مجرمًا أو بطلاً .

وتشاهد تقلبات الذات في منطقة المشاعر وحدها على وجه التقريب ، وأما في منطقة الذكاء والعقل فالتقلب ضعيف الى الغاية . فالسخي يبق سخيًا على الدوام ، وتقلبات الذات التى تمنعنا من معرفة أمثالنا معرفة حقيقية أساسية تمنعنا من معرفة أنفسنا أيضاً ، ولذلك كانت حكمة قدماء الفلاسفة القائلة « اعرف نفسك بنفسك » نصيحة يتعذر تحقيقها ، فالذات الظاهرة تكون عادة ذاتاً خادعة كاذبة ، ليس لان المرء يعزو إلى نفسه كثيراً من الصفات الحسنة دون أن يعترف بأية تقصية فيه فقط بل لان الذات وان اشتملت على قسط قليل من العناصر الشاعرة فان أكثرها يتألف من عناصر لا شعورية يتمتع اختبارها .

والطريقة التى يكتشف بها الرجل أمر نفسه هى الفعل والحركة ، فهو لا يعرف نفسه الا بعد ان يختبر سيره في أحوال معينة ، والقول بأننا نعلم قدامًا كيف

يسير في احدى الاحوال المتقبلة ليس الا زعمًا وهميًا ، فعند ما اقسم المرشال ( ناى )  
للويس الثامن عشر انه سيأتى بنا بليون أسيراً في قفص من حديد كان صادقاً في يمينه ،  
ولكن نظرة من سيده نابليون جعلته ينقض عهده ، وقد كانت عاقبة هذا القائد  
المنكود الحظ أن أعدم رمياً بالرصاص جزاء جهله حقيقة نفسه ، ولو كان لويس الثامن  
عشر ذا اطلاع على نواميس علم النفس لعفا عنه على ما يحتمل .

تظهر نظريات الخلق التي شرحناها في هذا الكتاب متناقضة ، فلقد قلنا مؤكداً  
إن المشاعر التي يتألف منها الخلق هي على جانب عظيم من الرسوخ والثبات ، ثم اشرفنا  
الى إمكان تقلب الذات ، الا أن هذا التناقض يزول إذا تذكرنا الأمور الآتية وهي :  
أولاً: إن الاخلاق تتألف من عناصر عاطفية أساسية لا تتبدل على وجه التقريب ،  
وينضم اليها عناصر أخرى ثانوية تتغير بسهولة كتغير العناصر التي يوجبها مربى  
الحيوانات في النوع دون أن يغير صفاته الجوهرية .

ثانياً: إن الانواع النفسية كالانواع التشريحية تخضع للبيئة خضوعاً تاماً ، فهي  
مضطرة الى ملائمة مع تقلبات هذه البيئة إذا كانت هذه التقلبات غير عظيمة أو  
غير فجائية .

ثالثاً: قد يلوح لنا أن المشاعر نفسها تغيرت عند تطبيقيها على مواضيع مختلفة ،  
مع أن الواقع هو كون طبيعة هذه المشاعر لا تتغير أبداً ، فاذا انقلب حب الدنيا الى  
حب الله في بعض الاحوال فان المشاعر تكون قد بدلت اسمها لا طبيعتها .

ولهذه الملاحظات فائدة عملية ، فهي تعتبر قاعدة لكثير من المسائل المهمة في  
الوقت الحاضر كمشكلة التربية مثلاً . لقد شوهد أن التربية تغير الذكاء أو المعرفة  
الشخصية فاستنتج أنها تغير المشاعر أيضاً ، فدل ذلك على الجهل بأن الاحوال  
العاطفية والاحوال الذهنية لا تتطور تطوراً متساوياً ، وبتوغلنا في الموضوع نرى أن  
شأن التربية والانظمة السياسية ضعيف في مصير الافراد والامم .

يظهر أن هذا الرأي المخالف لمعتقداتنا الديمقراطية يناقض ما نشاهده من أحوال  
بعض الامم الحديثة أيضاً ، وذلك ما يمنع من الاقبال عليه بسهولة .

يعترض البارون ( موتونو ) - سفير اليابان في بطرسبرغ وأحد اقرباب السياسة

فى الشرق الاقصى المشهورين - على فى مقدمة كتبى المترجمة الى اللغة اليابانية  
قنلاً إنه طراً بتأثير الافكار الاوروبية على النفسية اليابانية تبدلات كثيرة ، إننى  
لا أظن أن تلك الافكار أثرت تأثيراً حقيقياً فى نفسية اليابانيين وإنما تسربت  
الأفكار المذكورة فى ثنايا الروح اليابانية الموروثة من غير أن تغير شيئاً فى اجزائها  
الجوهرية ، فإقامة المدفع مكان الخدفة أو المقلاع يحول مصير الامة تحويلاً تاماً  
والكنه لا يغير اخلاقها القومية أبداً .

نستنتج من هذا الفصل أن الآراء والحركة لما كانت تنشأ عن علل بعيدة من  
الارادة والاختيار فإن تأثيرنا فيها محدود الى الغاية ، ومع ذلك فسوف نرى أن  
مكافحة المقادير المستولية على مشاعرنا وأفكارنا أمر ممكن .

---

## الباب الثالث

# أنواع المنطق المسيرة لارائنا ومعتقداتنا

### الفصل الأول

### تقسيم المنطق

١ — دل للمنطق اشكال متنوعة ؟

لقد اعتبر المنطق حتى اليوم فناً للتعقل والبرهنة ، إلا أن الحياة هي السير وليس البرهان هو المسير ، وسوف تثبت في هذا الفصل والفصول الآتية أن ما عددناه آنفاً من حدود ودوائر للحياة والنفس خاضع لأنواع منطقية مختلفة ، فلما رأينا أن العمل والحركة هما مقياس المنطق الوحيد فأننا نعتبر أن المنطق يختلف باختلاف ما يفرضه اليه من نتائج متباينة .

ففي أي أمر كان يجب على العالم النفسى أن لا يبحث بحثاً منفرداً عن غايته المبتغاة وحدها أو الوسائل التي اتخذت لنيلها أو النجاح بها أو الاخفاق فيها ، إذ الذي يهم ذلك العالم هو العوامل الموجدة لذلك الأمر ، فاذا وجدت أعمال صالحة أو أئيمة فليس منها ما هو غير منطقي ، وانما صدرت هذه الأعمال عن أنواع منطقية مختلفة لا يسد أحدها مسد الآخر ، خذ المنطق العقلي مثلاً ترأه يختلف في تفسيره أو اكتناهه للأعمال المذكورة عن المنطق الدينى والمنطق العاطفي ومنطق الجموع .

٢ — أنواع المنطق الخمسة

للمنطق خمسة أنواع على ما أعتقد وهي : منطق الحياة والمنطق العاطفي ومنطق

الجموع والمنطق الدينى والمنطق العقلى ، وسأكتفى الآن باجمالها على أن أخصص بعدئذ فصلاً لكل واحد منها .

منطق الحياة - سنبين الأسباب التى دفعتنا الى وضع هذا النوع من المنطق فى الفصل الذى خصصناه للبحث عنه ، وإنما نقول الآن ان منطق الحياة الذى يسيطر على بقاء الأنواع وأشكالها يجرى حكمه بعيداً من تأثير إرادتنا ويأتى بمطابقات تسير بفعل قوى لا نعرف من أمرها شيئاً ، ويظهر أن القوى المذكورة تسير كأنها مألوفة لعقل اسمى من عقلنا وأنها غير آلية لاختلاف تأثيرها فى كل آن بحسب الغاية التى ترمى اليها ، فضم منطق الحياة الى ما يهيم عليه من أنواع المنطق الأخرى يملأ فراغاً أخفته نظريات ما بعد الطبيعة عن العيان .

المنطق العاطفى - لم يعرف علماء النفس فى الماضى سوى المنطق العقلى ، وقد أخذوا فى هذا الوقت يضيفون اليه المنطق العاطفى أو منطق المشاعر الذى يختلف عنه اختلافاً كلياً ، ووجه التباين بين المنطقين هو أن اشتراك الأفكار والمعقولات يكون شعورياً مع أن اشتراك المشاعر هو غير شعورى ، ثم ان المنطق العاطفى يقودنا فى أكثر أعمالنا .

منطق الجموع - يجب أن لا يخلط هذا المنطق بالمنطق العقلى ، فلقد أثبتنا منذ كثير من السنين أن المرء وهو جزء من الجماعة يكون فى سيره غيره وهو منفرد ، وهذا ما يجعلنا نقول انه مسير وهو فى الجماعة بمنطق خاص يتضمن ما يشاهد فى الجموع وحدها من أصول ومبادئ .

المنطق الدينى - المنطق الدينى نتيجة لما فى الانسان من روح دينية ، وهذه الروح التى كانت عامة بين الناس فى القرون الغابرة لا تزال منتشرة على ما يظهر ، ولا أهمية لارتباط الأشياء والحوادث بعضها ببعض عند اولى النفوس الدينية ، فالارتباط المذكور فى نظر هؤلاء ان هو الا أمر يختص بوجودات علوية نعانى عزاؤها فقط ، ولا يختلف المنطق الدينى عن المنطق العاطفى بكونه شعورياً اختيارياً فقط بل بتسببيه أعمالاً تناقض أعمال المنطق العاطفى مناقضة تامة .

المنطق العقلى - هذا المنطق هو فن التأليف بين الأفكار والتمييز بين ما تشابه

وما اختلف منها ، وعنه وحده على وجه التقريب بحث علماء النفس منذ ( اريستوطاليس ) فوضعوا فيه كتباً عديدة .

٣ - اقتران أنواع المنطق

أنواع المنطق قد تنضد أو تتحد أو تتعارك في الأشخاص أنفسهم ، وقد يتغاب أحدها على الأنواع الأخرى بحسب الزمان والشعوب أحياناً من غير أن يبطل عملها تماماً .

كان المنطق العاطفي يسوق القائد في أثينا الى شهب الحرب على خصومه ، وكان المنطق الديني يدفعه الى اسنشارة الآلهة في الزمن المناسب لاجراء حركاته ، وكان المنطق العقلي يملى عليه خططه ، وفي أثناء جميع ذلك كان منطق الحياة يعيِّشه .

وستتجلى لنا أوصاف أنواع المنطق في مباحثنا الآتية ، ولكن لا يطعن القارىء باكتشاف كنهها في المباحث المذكورة ، فهذا الكنه لا يزال مجهولاً حتى كنه المنطق العقلي الذى بحث عنه أكثر من سواه . حقاً اننا لم نستدل على وجود أنواع للمنطق الابنتائجها . وليس هذا شأنها وحدها بل ان أكثر العلوم دقة كالعلوم الطبيعية مجبورة على الاستناد الى فرضيات ومزاعم تحولت الى حقائق محتملة عند ما اقتضت الضرورة ذلك .

ان مباحث الضياء والنور والحرارة والكهرباء وكل مباحث علم الطبيعة قائمة على « فرضية الأثير » وقد اقتضت الضرورة أن يسند الى هذا الجوهر المجهول خصائص يتعذر إدراكها والتوفيق بينها كالزعم بأنه اقصى من الفولاذ مع أن الاجسام المادية تسير فيه دون أن تلقى صعوبة ، فبعد أن كان علماء الطبيعة يعدون كثافة « الأثير » ألطف من كثافة الغاز كثيراً اضطروا لايضاح احدى الحادثات الجديدة الى القول بأنه ذو ثقل أشد من ثقل المعادن بملايين من المرات .

فاذا كانت العلوم التى هى على جانب كبير من الصحة كعلم الطبيعة تستعين بفرضيات فاننا لا نعجب من سيرنا على مثل هذا النهج فى علم كعلم النفس أشد تعقيداً من العلوم الأخرى ، فعلماء الطبيعة لا يجزمون بوجود « الأثير » ، وانما يقولون ان



الامور تجري كما لو كان « الأثير » موجوداً . فلولا الزعم بوجود « الأثير » لاستحال تفسير الحوادث ، ونحن كذلك فإنا لانجزم بوجود أنواع منطقية ذات كينونات منفصلة ، ولكننا نقول ان الحوادث تجري كأن هذه الكينونات موجودة في الحقيقة .

## الفصل الثاني

### منطق الحياة

١ — شأن منطق الحياة

أبسط حوادث الحياة في الظاهر كالتى تشاهد في الحياة الواحدة هي على جانب كبير من التعقيد ، فامظاهر هذه الحوادث ارتباط وثيق يشبه ارتباط العناصر العقلية الذى نسميه المنطق ، ولذلك ليس ما يمنعنا من اطلاق اسم المنطق عليها أيضاً

ويسيطر منطق الحياة على جميع الحوادث الجثمانية ، فما تأتى به خلايا الجسم من أفعال لم يكن آلياً ويتحول بحسب مقتضيات الزمن ، فكأن هذه الأفعال مقودة من عقل خاص يختلف عن عقلنا اختلافاً كلياً . ولا ثبات ذلك نكتفى بنقل هذه العبارات التى جاءت في كتابي المسمى « تطور المادة » واليكها :

« تأتى البنى الذرية التى تصنع الخلايا بأعمال نطاسية لا تقدر على الاتيان بثلاثها بل ولا بثقل هو دونها في مختبراتنا ، فهي تقدر على تحليل أمتهن الأجسام وأصاها كالكلورور دوسوديوم ، واستخراج الأزوت من الاملاح الأمونياكية والفوسفور من الفوسفات الخ ، تدير هذه الأفعال الغريبة المتجهة نحو أحد المقاصد قوى مجهولة تسير كأنها ذات ذكاء أرفع من ذكائنا ، وما تنجزه القوى المذكورة في أدوار الحياة من عمل فأسنى جداً مما يقدر أرقى العالوم على فعله ، وسيعتبر العالم الذى يستطيع

أن يحال بذكائه وسعة عقله ما تقدر خلايا أحقر الموجودات على تحليله كآله لسموه على باقى البشر . »

تؤيد أفعال الحياة الجمائية أنها مضطرة الى التحول حينما وجدت ، فاذا دخل فى تركيب الموجود شىء غير نافع فانه لا يلبث أن يُزال أو يُنبَد ، وأما الشىء المفيد فانه يرسل الى الاعضا . فيتجول هنالك تحولاً عجيباً ، وتشبك هذه الأفعال التى لا يحصيها عد من غير أن تتضرر ، ذلك لأنها تسير سيراً هو غاية فى الاتقان والاحكام ، ومتى تقف حركة المنطق الدقيق الذى يدير المراكز العصبية فان الموت يقع لا محالة .

وعليه يجوز تسمية تلك المراكز العصبية « مراكز الادراك الجمائى » فهى تسير الحياة وتجرسها لا يجادها حسب الأحوال عناصر دفاع عن الحياة مختلفة وهى كما قال الدكتور بونيه : « تعلم أحسن من أى عالم من علماء وظائف الأعضاء أو من أى طبيب ماذا يلائم العضو الضعيف من دواء ، وليس شأن العلم الراقى سوى تحريكها عند فتورها . »

ومتى تتطور الخلية على شكل معين أو متى يعتاض الحيوان عن العضو الأبتى عضواً آخر مستعيناً بأعصاب وعضلات وأوعية شريانية فانا نشاهد منطق الحياة يهيه مثل ذلك الطارىء الفجائى من الحوادث ما يعجز المنطق العقلى عن تقليده وادراك أمره ، وأيضاً فان منطق الحياة هو الذى يعلم الطائر كيف يطير وكيف يقب طيرانه حسب الأحوال ، فقد اقتضى مر عصور عديدة على الانسان حتى استطاع بمنطقه العقلى أن يقلد الطائر قليلاً .

وما فى أعمال الحياة من ضبط وإحكام وما تفعله كل يوم من التمام بالاحوال ذات القلب المستمر وما فيها من استعداد للدفاع عن الجسم ضد عوارض العالم الخارجى الفجائية يجعلنا نعد تعبير « منطق الحياة » تعبيراً ضرورياً .

ومنطق الحياة هو الذى ينظم ديمومة الفرد والنوع الذى ينتسب اليه ، فحياة الفرد زائلة ، وحياة النوع وان كانت أطول الا أنها ليست مؤبدة ، إذ تدلنا بقايا

الأنواع الجيولوجية على أن هذه الأنواع لم تظل باقية حتى اليوم ، بل سبقها أنواع وعقبها أخرى ذات دوام محدود .

يظهر أن الأنواع تزول حينما تثقل وطأة ما ورثته عن الأجداد من خصائص فلا تقدر على ملاءمة تقلبات البيئة ، هذا هو تاريخ عالم النبات وعالم الحيوان كما انه تاريخ كثير من الشعوب ، فالنوع أو الفرد أو الشعب في دور الطفولة يمتاز بمرونة عظيمة يستطيع بها أن يلائم أى تحول في البيئة ، وأما في دور شيخوخته فيكون ذا صلابة تمنعه من الالتئام ، وهذا هو السر في كون أحد الموجودات في مستقبل العمر يلائم تقلبات البيئة مع أن هذه التقلبات تقضى عليه في دور انحطاطه ، وكذلك فان هذا يوضح لنا لماذا تغيب الشعوب الشائخة عن التاريخ عند ما لا تقدر على التحول .

ولو اقتصر منطق الحياة على تنظيم وظائف الحياة لأغفلنا أمر البحث فيه ، ولكن ما العمل وهو مسيطر على عوامل مهمة للآراء والمعتقدات والسير والحركة ، ثم لما كانت الحياة دعامة المشاعر فاننا قد نتصور أن منطق الحياة ليس ذا تأثير في المنطق العاطفي فقط بل أن احد هذين المنطقين مختلط بالآخر ، نقول ذلك ونحن نرى أن المنطقين المذكورين منفصلان وانما منطق الحياة هو البقعة التي ينبت عليها المنطق العاطفي .

إذاً ليس عندنا إيضاح كاشف نهال به سبب انكار منطق الحياة من قبل علماء النفس ، فهذا المنطق هو أهم أنواع المنطق الأخرى لهيئته عليها فمتى يأمرها تجييه طائفة .

٢ — الفرائز ومنطق الحياة .

إن ( بركسون ) وان أصاب في تفريقه بين الغريزة والعقل لكنه لم يصب كبد الحقيقة تماماً ، إذ يوجد كثير من الفرائز هي عادات عقلية أو عاطفية تراكت بالوراثة ، وأما التفریق بين حوادث الحياة بسيطة كانت — كالجوع والحب — أم معقدة — كالتى تشاهد في الحشرات — وبين الذكاء فصحيح .

والبحث عن بعض الغرائز كثير الصعوبة ولا يتم استقرارها على شيء من الوضوح الا بتراكب جميع ما في كتب علم النفس المزاولة من أفكار، حقاً يقتضى التسليم بأن الموجودات الدنيا تسير في بعض الأحوال كما يسير الانسان الموس من عقل عال وذلك حسب طرق تجهل كتبها ولكننا لا نجدها مشاهدتنا لها، ولا تظهر هذه الدراية في الموجودات التي هي على شيء من التقدم كالحشرات مثلاً بل تشاهد ايضاً في الموجودات الأولية كالحليات التي لا شكل ولا جنس لها والتي تدل على بزوغ فجر الحياة، فالحلية المائية أى الكرية التي تكونت بذاتها من حبيبات حية هي بعزمها على مسك قنينة تآى بأعمال تناسب غايتها وتتحول بحسب الأحوال كأنها ذات تمييز وإدراك، وقد صرح ( داروين ) عندما حقق سعى بعض الحشرات الدقيق في المحافظة على البيوضات التي تخرج الديدان منها على شكل غير شكلها « أن التأمل في هذا الموضوع عقيم » لا شك في أن نواميس منطق الحياة وقواعده متمنذر إدراكها ولكنه يجب علينا ان نحقق نتائجها بضبط ودقة كي نثبت أن هذه النتائج غير صادرة عن قدرة عمياء يعبر عنها بالفريزة

وايس ما هو اكثر بصيرة وحقاً من ساسلة منطق الحياة، وكنه هذا المنطق مع كونه لا يزال مجهولاً إلا أن تعيين وجهته سهل هين، فغاياته أن يوجد في الشخص وسائل ضرورية سواء لبقائه بالتناسل أو للملاءمة الأحوال الخارجية، والوسائل المذكورة هي من الاتقان والاحكام بحيث لا تباغها الآمال والهلم، فقد بين كثير من علماء الطبيعة مثل ( بلانشار ) و ( فابر ) الخ دقة أعمال الحشرات وقوة التمييز فيها واستعدادها لتغيير سيرها حسب الأحوال فقالوا إنها تعلم كيف تحول خواص المواد الغذائية التي هيأتها لدوادها حسبما تكون ذكراً أو أنثى، وأنه يوجد أنواع من الحشرات غير ضارية ولكن لما كان دوادها لا يعيش الا من الفرائس الحية فانها تشاها على وجه لا تتفسخ فيه حتى تنقب الدواد البيض فتخرج منها وتفترسها ثم يعترف ( فابر ) بأنه يوجد في الحشرة - عدا غريزتها التي تدير أعمالها النوعية الثابتة - شيء من الشعور والاستعداد للكمال، غير أنه لم يجرؤ على تسمية هذا الاستعداد الأولى بالذكاء فأطلق عليه اسم « قوة التمييز »، ويصدر عما يوصفه ( فابر ) بكلمة التمييز نتائج يتعذر

على أمير العلماء وأكثرتهم براعة أن يفعل مثلياً ، ولذلك قال مستتجاً : « إن الحشرة بصحوها تلتقى العجب والدهش فينا . »

ومثل هذه الحوادث العديدة التي شاهدها العالم ( غاستون بونيه ) أحد أعضاء المجمع العلمي في النمل والنحل جعله يسند إلى الحشرات صفة سماها « إدراك الجمع » فقد أبان أن النحل تطيع أوامر « لجنة القفير المدبرة » وتتغير هذه الأوامر حسب معلومات الباحثين عن طبائع النحل الذين يرودون كل صباح الضواحي والاربابض ، ومتى تغادر النحلة القفير فانها تنفذ الأمر تماماً ، فاذا أرسلتها اللجنة إلى تفقد الماء في حوض وكان يُرش على جانب هذا الحوض شراب أو عسل هدرأ فان النحلة لا تانفت إلى ذلك الشراب أو العسل ، والنحل الذي فوّض إليه أمر اجتناء رب النبات لا يعبأ بالطعام والتماح الخ .

وكيان هذه الحشرات الصغيرة الاجتماعية منظم إلى الغاية ، قال المؤلف المذكور : « مثل القفير في نظامه كمثل نظام الاشتراكية الحكومية المسوية حيث لا حب ولا إخلاص ولا رحمة ولا إحسان فكل واحد مرغم على الرزوح تحت أثقال العمل المتواصل في سبيل المجتمع »

تلقى تلك الحوادث التي كثرت مشاهدتها بابلية في أنصار علم النفس العقلي القديم ، لأن الحوادث المذكورة وإن كانت توضح سابقاً بكلمة الغريزة إلا أن التحقيق أثبت أنه ينطوى تحت هذا اللفظ المتبدل سلسلة من الحوادث المجهولة جهلاً تاماً ، كانت الغريزة تعتبر فيما مضى صفة ثابتة أنعمت بها الطبيعة على الحيوانات يوم تكوینها كي تسيروا في أدوار الحياة كما يقود الراعي قطيعه ، وقد عد ( ديكارت ) الحيوانات آلات متحركة ، فعلى ما في حركة هذه الآلات من أمر غريب عجيب بدت له كشيء بسيط جداً .

ولكن لما تعمق العلماء في مباحثهم اعترفوا بتحول الغرائز التي كان يظن أنها ثابتة لا تتحول ، خذ النحل مثلاً تر أنه يقدر على تغيير قفيره عندما تدفعه الضرورة إلى ذلك ، وقد جاء في مذكرة للمسيو ( روبرو ) عرضها سنة ١٩٠٨ على مجمع العلوم وبحث فيها عن تقدم الغريزة في زنايبير افريقيا « أن ما بين أنواع تلك الزنايبير من

فروق يُمكننا من أن نستقرئ سلسلة تطور غريزتها التي تتجه - بادئة من الزنابير المنفردة - نحو الزنابير الاجتماعية . »

وما لاحظناه من حوادث الحشرات نلاحظ مثله في الحيوانات العليا ، فيذه الحيوانات تستطيع أن تأتى بأفعال يتألف من تدوينها علم راق لو كان المنطق العقلي هو الذى أملاها ، ونعد من تلك الأفعال إدخار الحيوان ما يحتاج اليه من قوة شديدة ليطير فى الهواء من غير عناء كما يشاهد فى الصقور والخطاطيف الخ ، فالطيور المذكورة تهبط من ارتفاع كبير مطاردة طرائدها ، ولأجل ذلك تطوى أجنحتها فتزل الى الأرض على شكل منحني ، وهى تستفيد من القوة الحادة التى نالتها فى أثناء هبوطها عند صعودها ثانية فى الهواء ، ومما يقدر عليه الطير أيضاً هو أن ينال برشاقة ما فى منحدر مجارى الهواء من قوة يلائم بها على الفور تقابلات الجو الفجائية

لا ريب فى أن تعبير منطق الحياة الذى أوجدناه لا يؤدى الآن الى ايضاح حقائق الأمور أيضاً كاشفاً ، ولكنه يفيدنا على الأقل بآثاره أن جميع أفعال الحيوان التى زعم أنها غريزية هى بالحقيقة غير ناشئة عن الغريزة العمياء التى حاول العلماء حتى الآن أن يسندوها اليها ، فالمدول عن الشروح الآلية كالتى أتى بها (ديكارت) هو فى الواقع تسليم بوجود عالم نفسي واسع مجهول نكاد لا نبصر منه سوى وميض خفيف .

ومع أن البيان السابق يبتعد قليلاً من مقاصد هذا الكتاب فإننا نعدده شيئاً جوهرياً لا مناص من الالماع اليه فيه ، فلا يذهب عن بالنا عند البحث فى علل آرائنا ومعتقداتنا أنه يستتر تحت سطح الحوادث الخارجى قوى لم تدركها الأبصار وهى أقوى من عقولنا المسيرة بها فى الغالب .

نلخص هذا الفصل بالكلمات الآتية وهى : إن ظهور منطق الحياة قد تم قبل ظهور أنواع المنطق الأخرى وأنه لا حياة بدونه ، فلو توقف عمله لصارت الأرض بلقماً كالحما تتحكم فيه قوى الطبيعة العمياء أى القوى التى ليست عضوية

## الفصل الثالث

### المنطق العاطفي ومنطق الجموع

١ — المنطق العاطفي

قد ميز العلماء منذ وقت بعيد دائرتين في روح البشر وهما دائرة المشاعر ودائرة العقل ، وأما القول بوجود منطق للمشاعر فقد وقع في زمن قريب ، وقبل أن نفرق بين المنطق العقلي ومنطق المشاعر نعترف بأن للحياة العاطفية كياناً مستقلاً عن كيان الحياة العقلية ، فظهور الحياة العقلية قريب في تاريخ العالم مع أن الحياة العاطفية وما تضمنته من منطق قد سير ذوات الحياة منذ الأجيال الجيولوجية ، وقد عاشت الحيوانات وبلغت غايتها على ما يرام بفعل منطق الحياة والمنطق العاطفي فقط ، خذ الدجاجة مثلاً ترأى تعرف بعاطفتها كيف تربي فراراً مجبها وتقودها وتعلمها الاقتيات وتكف أذى عدوها عنها .

أيام كان الناس لا يعرفون غير المنطق العقلي كانوا يرون أن العقل هو مصدر ما فيهم من ظنون وأفكار ، والواقع أن العقل أصل المسائل العلمية ، وهو كما يكون سبب الأمور الاعتيادية التي تحدث في أثناء الحياة اليومية ، فالمنطق العاطفي هو في الغالب مصدرها ، وكلما أمعنا في تفهم ما للمبادئ العاطفية من تأثير نتوثق من صحة هذا القول الأساسي ، حينئذ نرى أن أدلاء العاطفة هي غير أدلاء العقل وأن حوادث المنطق العاطفي يرتبط بعضها ببعض حسب قواعد وثيقة بعيدة من المنطق العقلي .

وسيكون شأن المنطق العاطفي الذي استأثرت به أهواء الكتاب الروائيين والشعراء حتى الآن عظيماً في علم النفس القادم ، فشأن المؤثرات العاطفية في الحياة هو في الدرجة الأولى كما قال ( ريبو ) ، وليست المعرفة ربةً بل أمةً كما قال هذا الفيلسوف أيضاً .

٢ — مقارنة بين المنطق العاطفي والمنطق العقلي

تبدو أوصاف المنطق العقلي والمنطق العاطفي بالمقايضة بينهما ، فالمنطق العقلي يدير دائرة الشعور ، وأما المنطق العاطفي فإنه مستولٍ على دائرة اللاشعور ، وبما أن سلسلة المنطق العاطفي لاشعورية فإننا لا ندرك تطور مشاعرنا الا قليلاً ، فنحن نقود حياتنا العقلية ، ولكن لا سلطان لنا على حياتنا العاطفية .

والمنطق العاطفي والمنطق العقلي كلاهما من الاختلاف بحيث يتعذر إيجاد مقياس مشترك بينهما ، ولذلك يستحيل أن نعبر عن المشاعر بكلمات مصدرها العقل ، وليس المنطق العقلي بمستطيع أن يفهم أو يفسر أو يزن ما يمليه منطق المشاعر من أعمال ، وأما الكلمات التي نحاول أن نشرح المشاعر بها فإنها توضح هذه المشاعر ايضاً رديتاً ، وإذا تمكَّنت من ذلك قليلاً فحسب ناموس الاشتراك النفسى ، فمن تعود ربط المشاعر ببعض الألفاظ نتذكر عند خروج تلك الألفاظ بعض هواجس نفسية عاطفية ، والموسيقى التي هي لسان المشاعر الصادق تذكرنا بالمشاعر أحسن ممَّا تذكرنا بها الألفاظ والكلمات ، ولكن نظراً لخلوها من الضبط فإنها لا تكون واسطة ارتباط بين مشاعر الناس الاعلى وجه مبهم .

ويجهل المنطق العاطفي المنطق العقلي ، ولذلك يبت في الأمور قبل أن يتم الثاني تفكيره ، فهو لا يبالي بالمنطق العقلي بالمعتولات والمتناقضات والأصول والمبادئ .

ويستند المنطق العقلي الى مبادئ مادية مستنبطة من التجربة والاختبار ، فالحوادث الصريحة المجردة التي يسهل قياسها هي قوام تلك المبادئ ، وأما المنطق العاطفي فلا دعامة له سوى مبادئ معنوية أدبية يتعذر قياسها وتقديرها على وجه الضبط والصحة ، وهذا هو السر في كون هواجس النفس الشعورية الصادرة عن المنطق العاطفي تظل مبهمه غير صريحة على الدوام .

وتشترك الأفكار في المنطق العقلي حسب قواعد عامة معلومة ، وأما المشاعر في المنطق العاطفي فإنها تجتمع في الغالب على شكل غير إرادي وبمقتضى نظام دقيق لم نعلم منه سوى شيء يسير . وفضلاً عن ذلك تقول إن بعض المشاعر تولد مشاعر



أخرى لا تلبث أن تترجح بها ، فلألم يوجب النغم والحب يورث السرور والغضب يولد الميل الى الإنتقام الخ .

ولكون قواعد المنطق العقلي مادية فانها تطبق على صورة واحدة من قبل جميع الرجال الذين بانعوا شأواً من الرقى ، وهذا هو سبب اتفاق هؤلاء الرجال على جميع المواضيع العامة ، وأما المنطق العاطفي فانه بالعكس يختلف باختلاف الناس ، إذ الناس متباينون في مشاعرهم . ولذلك تعذر الاتفاق على جميع المسائل التي تمس المشاعر كالمعتقدات الدينية والأخلاقية والسياسية الخ .

ولما كانت قواعد المنطق العاطفي غير عامة كقواعد المنطق العقلي فان الرسالة التي تؤلف في منطق أحد الناس العاطفي لا تطبق على الباقين ، وأما رسالة المنطق العقلي فانها ثابتة تشمل الناس قاطبة .

تبين من الملاحظات السابقة أن الأمور الواحدة تختلف بحكم الضرورة عند النظر اليها من خلال المنطق العقلي أو المنطق العاطفي ، فمن الخطأ أن نحكم بالعمل حوادث أمالها منطق المشاعر .

وعلى رغم قلة اطلاعنا على سنن المنطق العاطفي فان الاستقراء يدلنا على بضع قواعد يستعملها أعظم الخطباء في أغاب الأوقات ، فبدلاً من أن يقضى اولئك الخطباء أوقاتهم في تنظيم الأدلة وتسيق البراهين التي هي إن أقنعت لا تؤثر في السامعين فانهم يحركون بالتدرج ساكن هؤلاء السامعين بضروب المؤثرات التي يتفنون في تنويعها لعلمهم أن ما يوجه أحد المحرضات من تأثير لا يابث أن يهن وينفذ ، وهم باستدراج لبق وكلمات ساحرة وصوت عذب يكوّنون جواً عاطفياً ملائماً لقبول استنتاجاتهم .

والمشاعر لأنها العامل الحقيقي في أفعالنا فمن الطبيعي أن يتودنا منطقتها ، إذ الناس متى هاجت عواطفهم يغيرون سيرهم ومتى كسبت قلوبهم يغلبون على أمرهم ، وأما استفادة الخطيب من المنطق العقلي فهي أنه يرسم به خططاً يرتب بها خطبه .

والمبادئ العاطفية تؤثر في الصورة التي نتصور بها العالم ، وهي أساس أفكارنا الخلقية والدينية والسياسية والاجتماعية ، وكذلك الحقائق العامة فان نظرياتنا مشبعة من تلك المبادئ .

ومن حسن الحفظ كون المنطق العاطفي لا يديرنا على الدوام ، فسوف نرى أن المنطق العقلي يقدر أحياناً على زجر اندفاعاته ، إلا أن هذا الزجر لا يتم بسهولة ، لأن المنطق العقلي لا يزال ضعيفاً على رغم نموه بتعاقب القرون ، ومع ذلك فإن الطريق الطويلة التي قطعها المنطق العقلي تبدو لنا عند البحث عن الممخ الذين استحوذت عليهم المشاعر الخالصة ، إذ تسير هؤلاء الفطريين الذين ليس للمنطق العقلي سلطان عليهم اندفاعاتهم ، فمتى بعضهم الجوع يتدهورون على فرستهم ، ومتى يعتمدون على عدوهم ينقضون عليه كالوحوش ، هكذا كان يعيش رجال القرون الخالية الذين عدوهم فلاسفة الثورة الفرنسية تماذج يُقتدى بها .

٢ — منطق الجموع

المنطق العاطفي هو إحدى الدعام التي يستند إليها منطق الجموع ، ولا نبحت الآن عن هذا المنطق ، فسندرسه في فصل آراء الجموع ومعتقداتها ، وإنما ننبه هنا إلى أنه لا يمكن خاطر المنطق العاطفي بمنطق الجموع الذي لا يتجلى الا في الجملعات والذي قد يؤدي الى أفعال تناقض التي تصدر عن المنطق العاطفي ، وسوف نرى أنه يتألف من روح الجموع مركب خاص لا يعرف المستحيل ولا التبصر وتكون المشاعر فيه مفرطة وفيه يبطل عمل المنطق العقلي .

بيننا في هذا الفصل أن المنطق العاطفي — مع المنطق الديني الذي سنبحث عنه الآن — هو مصدر الحركة فينا ، فالحركة لا تكون الا بالحس ، ومتى نحس يبرز حكم المنطق المذكور ، حقاً لقد سيطر هذا المنطق على جميع الأجيال ، وما تخلص الانسان قليلاً من ربقته الا في دور قريب ، فالساعة التي يهيمن فيها المنطق العقلي على المنطق العاطفي بدلاً من أن يهيمن هذا على ذلك لم تدق بعد .

## الفصل الرابع المنطق الدينى

١ - أوصاف المنطق الدينى

المنطق العقلى هو منطق شعورى يعلم الانسان التعقل والتفكير والبرهنة والاختراع ، والمنطق العاطفى هو منطق لا شعورى يصدر عنه سيرنا ، ولا تأثير للعقل والذكاء فى حلقاته فى الغالب ، وأما المنطق الدينى الذى ندرسه الآن فطبقة أعلى من طبقة المنطق العاطفى ، فالحيوانات لا تعرف المنطق الدينى مع أنها ذات مشاعر كثيرة والمنطق الدينى على رغم كونه أدنى من المنطق العقلى - الذى نيم على درجة راقية فى التطور - مثلَ بما ولده من معتقدات دوراً عظيماً فى تاريخ الامم ، وهو مصدر التأويل والتفسير للدين - مع أنهما غريبان عن العقل - هما ذوا سلطان على الحركة ، ولوحل المنطق العقلى فى الماضى مكان المنطق الدينى لكان سير التاريخ خلاف ماوقع . والمنطق الدينى يرضى كالمناطق العاطفى بالمتناقضات ، ولكنه ليس كالثانى لا شعورياً ، وكثيراً ما يتضمن شيئاً من التأمل والتفكير ، وبالحرارة التى هى مقياس أنواع المنطق يظهر لنا الفرق بين المنطق الدينى والمنطق العاطفى ظهوراً واضحاً ، فالمنطق الدينى يسوق الانسان الى مالا يسوقه اليه المنطق العاطفى من أعمال تناقض أكثر منافعه صراحة ، ومن يتصفح تاريخ الامم السياسى أو الدينى ير أمثلة كثيرة على ذلك . قد يعترض عند مطالعة تاريخ الحوادث المذكورة التى أدت الى اختفاء كثير من الأحوال العاطفية كالحياء وحب الأبناء بأن يقال ان هذا الاختفاء ينشأ عن حلول مشاعر مكان أخرى ، ولكن ما هى علة هذا الحلول ؟ يقتضى أن لا يبحث عنها فى المنطق العقلى لأن العقل لا يشير علينا بان نعمل تلك الأعمال ، وكذلك يجب أن لا يبحث عنها فى المنطق العاطفى ، إذآ تلجئنا الضرورة الى الاستعانة بمنطق آخر يسمى المنطق الدينى ، وما بين المنطق الدينى والمنطق العاطفى من فروق سيتجلى لنا على وجه أوضح من ذى قبل عندما نفحص شأن المنطق الدينى فى تاريخ الحضارة .

ويقوم في المنطق الدينى مقام العال الطبيعية - التى سلم بها المنطق العقلى - عزائم موجودات أو قوى علوية تجب خشيتها ومداراتها لأنها ذات أهواء وتأثير فى جميع أفعالنا ، وتشاهد قوة المنطق الدينى على الخصوص عند أولى النفوس التى أصيب فى تسميتها بالنفوس الدينية ، فالنفسية الدينية تتجلى فى الشخص بأسناده قدرة سحرية لا تأثير للعقل فيها الى وجود أو شىء معين أو قوة مجهولة ، وتختلف نتائج هذه النفسية بحسب النفوس ، فهى عند بعضهم دعامة لمعتقدات دينية معلومة تترامى لهم أنها صادرة عن شىء يقال له ألوهيات ، والقوى العلوية هى عند آخرين أمر مبهم ولكنها ذات سلطان وقدرة ، وحينئذ تبدو روح التدين فى هؤلاء على شكل احدى الخرافات أو الاساطير ، ولذلك نقول ان الملاحد متدين كالتقى الورع وفى الغالب يكون أشد تدينًا منه . يستدل على الروح الدينية فى الانسان بعزوه الى تيمة أو تعويذة أو عدد أو ماء أو حج أو ذخيرة خصائص خارقة للمادة ، ويستدل عليها أيضاً بأسناده الى الانظمة السياسية أو الاجتماعية قوة قادرة على تحويل الرجال ، وخلق التدين وإن كان على الدوام يتبدل شكلاً الا أنه لا يغير شيئاً من جوهره الذى ينسب به شأنًا عظيمًا الى بعض القوى الحافلة بالاسرار ، فاذا تغير موضوع التدين بفعل الزمان فان خلق التدين لا يتبدل أبداً .

ولا يبالى خلق التدين بالنقد مهما يكن صائبًا ، ولذا يورث فى النفس سذاجة لاحد لها ، فالذين يلقبون أنفسهم بأحرار الفكر لنبذهم قواعد الدين يعتقدون الشعور بالأمور قبل وقوعها أو يعتقدون الفؤول والطوابع أو يعتقدون ما فى حبل المصلوب من قدرة سحرية أو يعتقدون شؤم العدد الثالث عشر ، فالعالم فى نظرهم يشمل على كثير من الاشياء التى تحمل معها سعادة أو شقاء ، وليس بين الناس مقامر لا يؤمن بهذا المبدأ ايمانًا قاطعًا .

ولما كان ايمان المعتقد لا نهاية له فان المستحيلات العقلية لا تؤثر فيه ولا يحرق العقل والتجربة والاختبار حجابيه أبداً ، وكذلك حبوط الآمال لا يضعضه لجعله المرء يعتقد أن القوى الخارقة ذات الاهواء والأغراض لا تسير حسب ناموس معين ، وكلما تقدم الانسان فى سلم الحضارة تتحدد روح التدين العامة عند الهمج

بالتدريج وتنحصر في بضعة مواضع يؤمن بها الرجل المتمدن ايمان الرجل الفطرى أى ايماناً لا تزغزه الأدلة والبراهين العلمية ، وبهذا الامر المشاهد ندرك السبب في تسليم بعض أفاضل العلماء بعمائد صادرة عن السحر والتنجيم .

ولا ريب في أن مبتكرات العقل تعجز عن زلزلة خلق التدين لالتجاء هذا الخلق على الدوام بعالم الآخرة الذى يتعذر على العلم أن يقتحمه ، ولذا كان عدد الذين يرغبون في الآخرة عظيماً الى الغاية .

٢ — خلق التدين أساس المعتقدات

خلق التدين هو البقعة التى تنبت فيها المعتقدات الدينية والسياسية وغيرها ، وتشاهد نتائج هذا الخلق على الخصوص عند الهمج ، فلما كان لا علم لهؤلاء بسنن الكون فانهم يعيشون في عالم مغمم بالأرواح التى تجب قراءة العزائم عليها بدون انقطاع، ويتوهمون على الدوام أنه يوجد خلف كل حقيقة ظاهرة قدرة خفية تسببها ، وأما الرجل المتمدن فذو معتقدات أرقى من تلك ، لأنه مشبع بتأثير التربية من المبدأ القائل بوجود نواميس ضرورية في عالم الطبيعة لا يستطيع ان ينكرها ، الا أنه يعتقد أنه بصلواته يتمكن من جعل قوى ما بعد الطبيعة توقف عمل تلك النواميس ، فعلى هذا الوجه يجتمع المنطق الدينى والمنطق العقلى أحياناً في نفس واحد من غير أن يؤثر أحدهما في الآخر .

وما في المؤمن الحقيقي من سرعة التصديق فلا حد له بوجه عام ، وأعظم المعجزات لا تلقى في قلبه حيرة ، إذ لا نهاية لما يعزوه الى الله من قدرة .

يرى في كنيسة ( اوفايدو ) صندوق يقول الاعلان الذى وُزِع على زائريها انه جيء به بغتة من مدينة القدس بواسطة الرياح وانه يحتوى على « لبن من لبن أم يسوع المسيح وشعرات مسحت بها القديسة هيالانة رجلى مُخَاصِ العالم والعصا التى فلق بها موسى البحر الأحمر وجفیر القديس بطرس الخ » فهذه الوثيقة التى هى واحدة من ألوف من الوثائق المتماثلة تثبت لنا كيف أن العقيدة الدينية شديدة التأثير ، ونعد من نوع الوثيقة المذكورة بقية جسد أحد القديسين الموضوعة في صندوق ذهب محفوظ في احدى الكنائس العظيمة وحبل المصلوب ، فعلياً أن ننظر الى تلك الوثائق بعين

مغضية وقلب سمح ، ذلك لانها وليدة آمال السعادة أولاً وليكونها صادرة عما في النفس من احتياجات متأصلة ثانياً .

وإذا نظرنا الى المنطق الديني من خلال جميع عناصر الحياة الاجتماعية فاننا نراه ذا تأثير في الفنون والآداب والسياسة وصناعة الشفاء ، فما الدور الروائي الا أحد مظاهره ، وليس عند أرباب الفن سوى عقائد دينية تجعلهم لا يعبأون بطرق التحليل العقلي ، ويتجلى تأثير الروح الدينية في عالم السياسة على الخصوص ، فالأحزاب الرديكالية واللاإكليروسية والمتطرفة تعيش على جانب عظيم من التدين .

ولا تزال البقاع التي ارتادها العلم محدودة الى الغاية مع أنه لا أحد لرغباتنا، ولا شك في أن سيطرة المنطق الديني على البشر ستمتد زمنياً طويلاً بعد ، فهو بايجاده القوانين والعادات والاديان قد ولد جميع الأوهام التي سيرت النوع الانساني حتى يومنا هذا ، وهو من القوة بحيث يقدر على جعل الخيال حقيقة . وبتأثيره عرف ملايين من الرجال الفرح أو الالم ، وما في العالم من مثل عليا فصادر عنه .

## الفصل الخامس

### المنطق العقلي

#### ١ - عناصر المنطق العقلي الأساسية

قد ألفت للبحث عن المنطق العقلي مؤلفات كثيرة ذات فائدة قليلة ، والذي يجعلنا نتكلم عنه في هذا الكتاب هو أولاً إنه يمثل أحياناً في تكوين الآراء دوراً لا بأس فيه ، وثانياً لبيان وجه الفرق بينه وبين أنواع المنطق الأخرى التي بحثنا عنها في الفصول السابقة ، وسنباشر بيان بعض العناصر التي يستند اليها المنطق العقلي في عمله وهي : الارادة والدقة والتأمل .

الارادة - الارادة هي صفة يعزم بها الانسان على الاتيان بعمل ولها ثلاثة أطوار : التفكير والقصد والتنفيذ . وإذا انعمنا النظر فيها نرى أنها تصدر عن العقل

والعاطفة معاً ، فهي تنشأ عن العاطفة لأن جوهر بواعث العمل في الانسان هو العاطفة وهي تنشأ عن العقل لأننا بفضل الدقة والتأمل نمزج في روحنا صوراً نفسية يقدر بعضها على ابطال عمل البعض الآخر .

وخلافاً لما جاء في كتب علم النفس تقول ان الارادة قد تكون شعورية وقد تكون لاشعورية ، وأقوى العزائم واشدها هي اللاشعورية ، فهي التي لا يملك الحيوان وأكثر الناس سواها ، واذا صعب علينا مشاهدة شكل الارادة اللاشعورية فذلك لأن العقل يتدخل على الفور كي يوضح ما تنجزه تلك الارادة من أعمال ايضاحاً يجعلنا نتصور أنه هو الذي سبب تلك الاعمال .

ويرى ( ديكارت ) - وقد شاطره كثير من الفلاسفة في الوقت الحاضر رأيه - أن للارادة كياناً غير كيان العقل هو أصل معتقداتنا ، فالاعتقاد عند ( ديكارت ) هو ارادة التسليم ببديءٍ يميله العقل أو انكار ذلك المبدئ ، وسوف انقض هذه النظرية التي لايزال أكثر الفلاسفة يناضلون عنها في هذا الكتاب بأن أثبت أن المعتقد لا يكون ارادياً أصلاً .

ويقرب ( اريستوطاليس ) من المبادئ المشروحة هنا أكثر من ( ديكارت ) ذلك لأنه بنى نظريته في علم النفس على التمييز بين الصفات العاطفية والصفات العقلية ، ثم قال ان الارادة تظهر من مزج هذين الطرفين أحدهما بالآخر ، فعلى هذا الوجه تكون الارادة معلولة لاعلة ويكون ( اريستوطاليس ) اقام العاطفة أمام العقل مع أن ( ديكارت ) اقام الارادة أمامها .

الدقة - الدقة هي أن يمحصر المرء ذهنه في شيء واحد أو في شكل هذا الشيء الواحد أو في ما ينشأ عنه من بوادر فيجرد منه الموضوع الذي يهيمه .

وقد عدَّ كثيرٌ من المؤلفين الدقة وجهاً من وجوه الارادة ، فهي على رغم كونها خاضعةً للارادة ليست متحدة بها ذاتاً ومعنى ، وكذلك لا يجوز خلط الدقة بالعقل الذي لم تكن الدقة سوى عنصر يستعين به .

تطبع الأشياء التي تحيط بنا طابعها على حواسنا ، فلو تم شعورنا بجميعها شعوراً متساوياً كآلة الفوتوغراف مثلاً لاشتمل دماغنا على صور كثيرة لا فائدة فيها ،

واكتننا بفضل دقتنا لا ندرك الأشياء الا بنسبة احتياجنا ، وذلك بأن نحصر ذهننا في أحد المواضيع .

ويتصف الحيوان بالدقة أيضاً ، ولكن دقته غير ارادية مع أنها قد تكون في الانسان ارادية ، وينشأ عن نمو الدقة في الرجل زيادة في قدرته العقلية ، وعلى نسبة الدقة في المرء يعظم عقله ، فلولا دقة ( نيوطن ) العظيمة لما ذاع صيت ( نيوطن ) وإذا تجلّت عبقرية هذا الرجل بفته فذلك بعد دقة صابرة وتأمل مديد .

التأمل - التأمل يورث التمثل في الانسان ، وهو عبارة عن قدرة الانسان على أن يستحضر - مستعيناً بفعل الدقة - الصور النفسية المشتقة من الاحساسات أو الألفاظ التي تتم على تلك الصور ، حينئذ يمكن مزجها والمقايسة بينها واستخلاص احكام منها ، وبالطريقة المذكورة لا نعلم الأشياء ذاتها بل نقف على ما بين هذه الاشياء من علائق ، الامر الذي هو غاية ما يسعى اليه العلم ، وقابلية التأمل تتضمن قابلية الدقة ، فضعف هذه يستلزم ضعف تلك ، وبالتأمل يتعمق الانسان كما ينبغي بشرط أن لا يتدخل المنطق العاطفي والمنطق الديني في الامر ، فمتى يتناول المعتقد المواضيع التي يراد تعقلها فإن التأمل يخسر ما فيه من استعداد للنقد

٢ - شأن المنطق العقلي

العمل الأساسي للمنطق العقلي هو أن يؤلف هذا المنطق - مستعيناً بالتأمل وبالطريقة المشروحة آنفاً - بين الصور النفسية أو الكلمات التي تعبر عنها وقد عُددَ أساس معتقداتنا زمنياً طويلاً مع أننا نرى أنه لم يكن سبب أي معتقد منها، وإنما الشأن الذي قد يكون له هو أنه يُتمُّ زعزعة المعتقدات بعد أن يكون الدهر قد أكلَّ قواها ، وعلى ما للمنطق العقلي من شأن هو كالمعدوم في تكوين المعتقد فانه ذو شأن كبير في تأليف المعرفة ، فهو الذي أقام صرح العلوم واليه تستند الصناعات الحديثة في تقدمها . إذاً لا يجوز لنا أن نبالغ في بيان قدرته ، ولكن يجب أن نعلم الحدود التي لم يتجاوزها بعد ، فهو ليس ذا سلطان على حوادث الحياة والخواطر ، ولم يضيء من هذه الحوادث ذات الجرى والانصباب سوى شيء قليل مشكوك فيه ، وقد انحصرت دائرة عمله في المادة التي استقرت مؤقتاً بفعل الموت أو الوقت .



ولما رأى العلماء أنه لا شريك للعلم في سيطرته على دائرة المعرفة ظنوا منذ أمد بعيد أن المنطق العقلي الذي هو مصدر العلم ينفع لا يضر تكوين المعتقدات وتطورها، وقد استمر علم النفس على هذا الضلال قروناً عديدة، إلا أنه الآن على وشك الخروج من ضلاله، فقد دل الاختبار على أن الموجودات تتحرك وتسير قبل أن تعقل وتدرک، ولذلك فهي مقودة في أعمالها بأنواع منطقية أخرى، وكلما أمعنا في هذه الحقيقة التي أرجع إليها في الغالب لحداثة ظهورها نرى أن شأن المنطق العقلي ثانوى في حياة الأفراد والأمم.

لم يكن التعقل والإدراك أمرين ضروريين للسير والحركة، فأدنى الحشرات تسير كما يقتضى من غير أن تهتم بمنطقنا، والعقل والإدراك هما فاعلان في الموجودات مستقلان عن فاعل السير، وكثيراً ما يزجران هذا الفاعل عن العمل بدلالتهما على أخطاره.

وبفضل ما فى الناس من اندفاعات عاطفية ودينية يسرون غير مطلعين على كيفية تكوين أعمالهم، ومن العبث أن نؤثر فيهم بقوة الدليل العقلي، إذ إنهم لما فيهم من إدراك قليل يسخرون من كل من ليس على طريقهم، وما مثل الذى يحاول أن يدخل إلى قلوبهم شيئاً من الأفكار العقلية الا كمثل الطفل الذى يسعى فى إدخال عضو كبير فى قمع الخياط، فعلى من يود أن يلزم الأفراد والشعوب ببعض الحقائق العقلية أن يزن قبل ذلك كفاءتهم الدماغية.

وشأن المنطق العقلي فى سياسة الشعوب ضئيل جداً، ولا يتجلى هذا الشأن الا فى الخطب، فالشاعر لا العقل هى التى تسير الأمم وتقيها وتقدمها، وسوف نرى فى باب آخر أن المنطق العاطفى هو الذى يخرج على الدوام ظافراً فى الصراع بينه وبين المنطق العقلي. قال ريبو: «القول إن الفكر المجرد الجاف العارى من مسحة عاطفة كالتفضية الهندسية ذو تأثير فى سير الناس هو زعم نفسى عقيم باطل.» فالوقت الذى تستولى فيه براهين الفلاسفة على العالم لا يزال بعيداً، وانما المعتقدات التى يستخف بها المنطق العقلي هى التى قلبت العالم مرات كثيرة دون أن يقدر هذا المنطق على مقاومتها

٣ - ظهور المنطق العقلي متأخراً بفعل الانسان ضد الطبيعة .

أشرت سابقاً الى أن المنطق العقلي هو آخر أنواع المنطق ظهوراً وأن هذه الأنواع كفت لقيادة الموجودات والأجيال الجيولوجية حتى الوقت الحاضر على وجه التقريب .

ليس المنطق العقلي من عمل الطبيعة بل من عمل الانسان ضد الطبيعة ، فلايجاد الانسان ذكائه وعقله في شخصه قد أخذ بالتدرج يعانى قوى الكون أقل من ذى قبل ويستعبد هذه القوى كل يوم ، ومن كان في ريب من كون الانسان لا الطبيعة موجد المنطق العقلي فليلاحظ أن ما يبذله من مجهود فلمقاتلة حوادث الطبيعة على الخصوص .

والطبيعة لا تبالى بمصير الفرد أبداً ، وإنما تعتنى ببقاء النوع ، فجميع الموجودات عندها سواء ، وما تبذله من همّة في المحافظة على أشد المكروبات إيذاءً هو كالعناية التي تبذلها للمحافظة على أكثر الناس عبقرية ، فبالمنطق العقلي الذي اكتسبناه استطعنا أن نكافح سنن الكون الجائرة وكثيراً ما تم لنا النصر في هذا الكفاح ، وقد انحصرت معاناتنا لتلك السنن في الأمور التي توقفت معرفتنا عند حدها ، فالיום الذي نكنته فيه منطق الحياة والمنطق العاطفي هو اليوم الذي نتغلب فيه على هذين المنطقين ، وحينئذ يملك الانسان ما يعزوه الى آلهته القديمة من قدرة وسلطان .

والعلم لا يزال بعيداً من تحقيق تلك الأمنية ، فع دنوه كل يوم من قدرة الطبيعة المقدره فانه مرغم على معاناة هذه القدرة ببلاءمها ، ولربما كانت هذه القدرة الكبيرة أعظم مما يظنه العلم ، فنحن نخضع لحكم الطبيعة ، وليسكن ألا تخضع الطبيعة نفسها لوجوب ينظم القدر وتدعن له الآلهة ؟ لم تكن الفلسفة من الرقى بحيث تجيب عن هذا السؤال .

# الباب الرابع

## العراك بين أنواع المنطق

### الفصل الأول

التصادم بين المبادئ العاطفية والمبادئ الدينية والمبادئ العقلية

١ — العراك بين أنواع المنطق في الحياة اليومية

عبرنا عن عوامل الآراء والمعتقدات بأنواع المنطق المختلفة وقد بينا أوصافها في الفصول السابقة ، ونظراً لما بين هذه الأنواع من الاختلاف فإنها في الغالب تترك ، فكيف يفصل هذا العراك ؟

لا يبدو العراك المذكور في الواقع الأعلى وجه استثنائي ، إذ يوجد في الحياة اليومية توازن بين ما تناقض من اندفاعات أنواع المنطق ، ويرضي مزاجنا النفسى بأن يسيطر عليه أحد تلك الأنواع بحسب الوقت والبيئة والأحوال ، وليس هذا التوازن اندماجاً لأنواع المنطق بعضها في بعض ، بل هو عبارة عن تنضدها على أن يحافظ كل منها على تأثيره وعمله .

وبتراصف أنواع المنطق المختلفة في المرء نفسه نجيب عن سؤال مهم وهو كيف أن أرباب العقول النيرة الذين تعودوا أساليب العلم وطرقه الدقيقة يؤمنون بمعتقدات دينية أو سياسية أو سحرية أو غيرها من المعتقدات التي ينهزم جيشها أمام المنطق العقلي الخالص ؟ حقاً يسهل الجواب عن ذلك ، فالمنطق العقلي هو دليل هؤلاء الأرباب في مبادئهم العامة ، وأما في معتقداتهم فإنهم يتقادون لقواعد المنطق الديني أو المنطق العاطفي : والعالم ينتقل من دائرة المعرفة الى دائرة المعتقد كما ينتقل من

ممكن الى آخر ، واذا ذهب في الغالب ضحية الخطأ فذلك لمحاولة أن يطبق في تفسير مظاهر المنطق الديني أو العاطفي من معتقد وغيره تفسيراً علمياً مناهج المنطق العقلي .

ومتى ينقطع التوازن بين أنواع المنطق فإنها تعترك ، ويندر أن يغلب المنطق العقلي في ذلك العراك ، إذ يسهل التنكيل به واستعباده من قبل بعض المبادئ الصيانية ، وهذا هو السبب في كون الدليل العقلي لا ينفع في أمر المعتقد دينياً كان أم سياسياً أم اخلاقياً ، ولا تفعل إقامة الحججة العقلية على رأى مصدره العاطفة أو التدين سوى استفزاز رب الرأى المذكور وتهيجه ، وكذلك المرء لا يستطيع بمقله أن يتغلب على رأى فيه ناشئ عن المشاعر والعقيدة الا اذا بلغ هذا الرأى من البلى والدروس مبلغاً ذهب بقوته .

ولا تتجلى لنا نتائج العراك بين المنطق الديني والمنطق العقلي الا بالمثل الذى ضربه ( باسكال ) وخصناه تفصيلاً في فصل آخر ، فمن العبث أن نطلب الآن فيها وسنقتصر في ما يلي على البحث في تصادم المنطق العاطفي والمنطق العقلي ، فأيضاً هذان الطرفان ليسا متكافئين قوة ، وانما يستطيع العقل في أثناء ذلك التصادم أن يسلط بعض المشاعر على الأخرى متدرعاً بأنواع الحيل كى يتمكن من التغلب على التي يود قهرها .

٢ — التصادم بين المبادئ العاطفية والمبادئ العقلية . تأثير الافكار في المشاعر

تؤثر المشاعر التي تقود الانسان في أفكاره كثيراً مع أن هذه لا تؤثر في تلك الا قليلاً ، وليس الفكر سوى نتيجة أحد المشاعر التي تطورت تطوراً غير شعورى مجهول لدينا .

وعلة كون العقل لا يؤثر في المشاعر هي أن حياة المشاعر خافية علينا ، واذا أردنا أن نعرف درجة تطور مشاعرنا على وجه لا تأثير لارادتنا فيه فلننعم النظر في أنفسنا ، حينئذ نرى أنها تنبت نباتاً رَيتاً متباطئاً كالنبات الذى أجاد في وصفه الشاعر الفيلسوف ( سوللى برودوم ) في قصيدته المشهورة التي عنوانها « الاناء الكسير » .

فالكلمة أو الإشارة الواحدة التي لا أهمية لها عند صدورها تستطيع على مر الأيام أن تحول الصداقة الى ضدها .

وشأن العقل في المشاعر التي يتكون الخلق منها هو أن يفصلها بعضها عن بعض وأن يحركها بأحدى الصور النفسية وأن يجعلها على هذا الوجه قادرة على كبح شيء من اندفاعاتنا ، وهو بذلك يرفع الرجل ولو مؤقتاً الى درجة أعلى من درجته . إذا يقدر العقل بتأليفه بين المشاعر والمعقولات أن ينتفع بالمشاعر انتفاع البناء بالحجارة التي يعرف أن يقيم بها نفسها مباني شتي ، وليس تأثير العقل في المشاعر لا حد له بل يظهر أنه محصور ، لأن الاختبار يدلنا على أن العقل يفقد سلطانه عند ما تكون المشاعر شديدة ، وقد تصل بعض المشاعر في قوتها الى حد لا يستطيع العقل وأكثر منافع المرء وضوحاً أن يؤثرها معه فيها ، وسنورد أمثلة كثيرة على هذا الامر في فصل المعتقدات .

لا تتحول المشاعر مباشرة الى أفكار ولكنها تولد أفكاراً لا تلبث أن تستدعي مشاعر ، فكلتا الطرفين مع محافظتهما على استقلالهما يؤثر أحدهما في الآخر تأثيراً متوالياً ، وعلى ذلك فإن الأفكار ذات تأثير لا يسعنا انكاره في حياتنا الفردية والاجتماعية ، وهذا التأثير لا يتم أمره الا اذا استندت الأفكار الى دعائم عاطفية .

ولما كانت المشاعر مصدراً للأفكار فإن ما يقع بين الأفكار من عراك هو بالحقيقة يقع بين المشاعر ، والشعوب التي يظهر أنها تتقاتل من أجل بعض الأفكار هي تتقاتل في الواقع من أجل بعض المشاعر التي تشتق منها تلك الأفكار .

وتفقد أحوال الانسان العاطفية قوتها لاذاتها إذالم تسمح له الفرص باظهارها كما تفقد الاعضاء قوتها لعدم تمرينها ، على هذه الصورة توارت في انكلترا وفرنسا صفات الاشراف الخاتمية التي كانت ضرورية للقيام ببعض الوظائف عند ما ألغيت هذه الوظائف ، وإذ لم تتم تلك الطبقات التي خسرت صفاتها الخاتمية ذكائها أصبحت دون ما كانت سائدة له من طبقات أخرى ، ويظهر أن هذا الناموس الذي يجبهله مربوناً كثيراً والقائل ان المشاعر التي لم تمرن تنفصم لناموس عام ، فتاريخ الامم حافل

بالامثلة المؤيدة له ، ومن تلك الامثلة كون غراتزنا الحربية التي نمت كثيراً أيام الثورة الفرنسية وفي الدور الامبراطورى لم تلبث بعد هذين الدورين أن أخذت تتقلص فاسحة مجالاً لمذهب سلمى داع الى نزع السلاح منتشر كل يوم بين الجموع حتى بين العقلاء ، وقد نشأ عن ذلك التضاد الآتى وهو : كلما صارت الشعوب سلمية أمعنت حكوماتها فى التسليح .

وسبب هذا الشذوذ الظاهرى هو أن الافراد يخضعون لحكم اثرتهم الشخصية مع أن الحكومات مرغمة على الاهتمام بمصالح المجتمع ، فالحكومات بما نالته من تجارب واختبارات متتابعة تعلم أكثر من الجموع وخطباتها أن الامم التي تهين لا تلبث الامم المجاورة لها (١) أن تغزوها وتستولى عليها وهذه سنة قد أجرت حكما على جميع الامم حديثة كانت أم قديمة ، فالبولونيون والمصريون والترك والصرب الخ لم يتجنبوا ما ينتج عن غزوات الشعوب الاخرى من تخريب الا بتزلهم عن جميع اراضيهم أو عن جزء منها .

يحدث تطور المشاعر الذى أشرنا الى بعض نتائجه بفعل كثير من المؤثرات ، ونعدّ من هذه المؤثرات البيئة على الخصوص ، فالانسان كى يلائم البيئة مكره على تنويم قسم من مشاعره والانتفاع بقسم آخر يجعله التمرين قويا متينا ، والتمرين المذكور لا يكون إلا بالتربية التي تهتم بانماء صفات الخلق الاساسية ولا سيما ملكة الاستنباط والشجاعة والارادة وغيرها من الصفات التي تعارضها مشاعر أخرى ، فالخوف من التبعة يلاشى ملكة الاقدام ، ويزول الاخلاص لمنافع المجتمع فى الحال اذا قيّد بالأثرة الشخصية الخ .

(١) لقد أوضح رئيس الوزارة الالمانية هذه الحقيقة فى خطبة ألقاها فى شهر مارس سنة ١٩١١ أمام ( الرخستاغ ) واليك بعضها :

« ان مسألة نزع السلاح هى عند كل خبير مجرب مشكلة يتعذر حلها مادام الانسان انساناً والدول دولا ، فهما يفعل الضمان فانهم سيكونون فريسة الأقباء لا محالة ، والشعب الذى لا يريد أن ينفق على تسليح نفسه ينزل الى الدرجة الثانية كى يحل مكانه شعب أقوى منه »

٣ - تنازع المشاعر . العوامل الزاجرة

جميع من هم على الفطرة من همج وحيوان يميلون الى السير بغرائزهم ، ولكن متى عاش الهمج في قبيلة واصبح الحيوان داجناً فان الضرورة تلجئهم الى زجر بعض تلك الغرائز ، ولا يكون هذا الزجر الا بجعل بعض مشاعرهم القوية - كالخوف من العقاب والطمع في الأجر - تقابل مشاعرهم الأخرى المندفعة ، والقدرة على قهر الاندفاعات العاطفية هي عنصر أساسي للحضارة ، فلولا هذا العنصر الذي هو ركن الاخلاق الركين لكانت الحياة الاجتماعية مستحيلة .

وليست العوامل الزاجرة التي تثبت العادات وعلم الأخلاق والقوانين أمرها كناية عن عراك بين المشاعر والعقل بل هي كما بينت آنفاً عبارة عن صراع بين ما يتقابل من المشاعر بفعل العقل ، ولم يكن للقوانين المدنية او الدينية غاية سوى التأثير في مظاهر بعض المشاعر تأثيراً رادعاً

وكل حضارة تتضمن ضغطاً وقسراً ، فالفطري عند ما تعلم بتأثير ناموس العقود الاجتماعية الأولى كيف يرد جماح اندفاعاته قليلاً تحرر من طور الحيوانية ودخل في طور انساني متأخر ، ولما أكره على ردع نفسه أكثر من ذي قبل دخل في طور الحضارة التي لا تقوم إلا بكبح الانسان نفسه .

ويتطلب الضغط المذكور سعياً مستمراً ، ويتعذر استمرار هذا السعي إذا لم يسهل أمره كأن يصير لا شعورياً بفعل العادة التي ثبتتها التربية ، ومتى أصبح الوازع النفسى على شئ من التقدم فانه يحل مكان الوازع الخارجى ، ولكن إذا لم يستطع الرجل أن يجعل لشخصه وازعاً نفسياً فعليه أن يذعن للوازع الثانى ، فلو تجرد الانسان من هذين الوازعين لرجع الى طور الهمجية الأولى ، نعم ان المشاعر هي التي تقودنا غير أن المجتمعات لا تعيش إذا لم يتعلم أفرادها الحدود التي يجب على مشاعرهم أن تقف عندها والتي يؤدي تجاوزها الى الفوضى والانقراض .

ولا تقل ان المشاعر التي ردهتها مقتضيات الاجتماع المدونة في القوانين عفا أثرها ودرس رسمها ، فمضى تغفلت هذه المشاعر ذات الاندفاع من ربة الزواجر تظهر من عالم الخفاء ، وهذا هو سر المظالم التي تعرف أيام الثورات حيث يصبح المتمرد متوحشاً

## الفصل الثاني

### العراك بين أنواع المنطق في حياة الأمم

١ - نتائج كسر الزواجر الرادعة للمشاعر في الحياة الاجتماعية

إن وجوب زجر المشاعر التي تضر المجتمع بمشاعر أخرى ثبت أمرها بالتربية وعلم الأخلاق والقوانين هو مبدأ الحياة العامة الأساسي كما ذكرنا ، ولا تتحرر المشاعر التي عانت البيئة الاجتماعية في ردعها ما عانت من المصاعب من غير أن ينشأ عن ذلك فوضى ، ومن العلام الأولى لهذه الفوضى هي كثرة اقتراف الجرائم كما نشاهده الآن في فرنسا ، والذي يساعد على زيادة اقتراف الجرائم على الخصوص هو انتشار مذهب الانسانية الذي يشل حركة إنزال العقاب ويسير بالناس الى كسر جميع الروادع .

ويقاسى نظامنا الديمقراطي الحاضر بالتدريج نتائج إبطال تلك الروادع التي هي وحدها تقاوم ما فينا من مشاعر منافية للاجتماع ، فالحدق على الافضاليات والحسد اللذان هما أشد ما أصيب به ذلك النظام من آفات يشتقان من هذه المشاعر المضرة الخطرة التي لا تموت في الانسان أبداً وإن صعب ظهورها في مجتمعات الماضي ذات المراتب المنسلسلة .

والمشاعر المذكورة التي أخذت تنتشر في الوقت الحاضر بتحرير بعض الساسة الطامعين في نيل حظوة عند الجمهور وخريجي الجامعات الساخطين على نصيبهم تجرى حكمها المحرب ذا الجبروت اجراء مستمراً ، فلولا انحلال الزواجر التي رسخت بالوراثة لما حدثت أمور كتمرد موظفي البريد والمعدنين والفتنة التي وقعت في كثير من مدن احدى المديریات الكبيرة ، ومن العوامل التي جعلت هذا الانحلال الاجتماعي أمراً ممكناً هي هبات ولاية الامور الذين أورثهم الخوف ضعفاً في قلوبهم ، وبالتدريج نشأ عن عجز القوانين المبدأ القائل إن الوعيد والايقاع هما اصدق الوسائل لخرق حرمة القوانين ذات الكرامة الحصينة في الماضي .



والذى جعل ولاية الامور يمنحون تلك الهبات الدالة على ندالة فيهم هو إنكارهم بضعة مبادئ نفسية يجب على جميع أولى الحل والعقد أن يعلموها كما علمها اولو الامر المتقدمون ، ومن بين هذه المبادئ نذكر واحداً أساسياً وهو : إن المجتمع يعيش بالمحافظة على الاعتقاد الموروث الذى يأمر باحترام القوانين القائم عليها بناء ذلك المجتمع احتراماً دينياً .

وما فى القوانين من قدرة تجعل الناس يحترمونها فأدبى معنوى ، إذ ليس فى العالم قوة مادية قادرة على إلزام الناس احترام قانون يهتكون جميعهم ستره .

وإذا أراد شيطان شرير أن يقضى على مجتمع فى بضعة أيام فما عليه إلا أن يفرغ أفراده كي يمتنعوا عن إطاعة القوانين ، حينئذ تكون البلية أعظم من غزو العدو واستيلائه ، لأن الفتح يكتب على العموم بتبديل اسماء القابضين على زمام الأمور ، ومن مصاحته أن يحافظ باعتناء على العوامل الاجتماعية التى لها من تأثير شاف ما ليس للجيش الجرامة ، والسعى فى تقويض معتقد الأمة فى سبيل المحافظة على نفوذ القوانين هو استعداد لثورة أديبة أشد خطراً من أية ثورة مادية ، فالمباني التى تخربها الثورة المادية إن أمكن تجديدها بسرعة فان تجديد روح الأمة يتطلب فى الغالب قرونًا طويلة ، وقد عانينا مثل ذلك الانحلال النفسى الأدبى فى أجيال كثيرة من تاريخنا ، واليك ما جاء فى كتاب ( هانوتو ) الذى بحث فيه عن ( جان دارك ) مشيراً الى الأمر المذكور :

« متى تزول سلسلة المراتب فى الأمة ومتى تخسر القيادة نفوذها ومضى يتداعى حصن الحرمه ومضى ينقض البناء الاجتماعى يفسح المجال لأعمال الفرد فكل يسمى وقتئذ فى إنماء عمله حسب نوااميس الطبيعة على أنقاض الانظمة المنهدمة ذات الرطوبة .»  
وما علم أنصار البدع — الذين يحاربون التقاليد باسم التجدد والذين يجهلون بأن يقوضوا دعائم المجتمع ليقضوا على ما فيه من مال ونشب كما حلم ( آتيل ) بأن ينهب روما — أن حياتهم عبارة عن نسيج حاكته الوراثة وأن لا بقاء بغيره ، ولا نجيب ماذا تؤدى اليه تجاربهم من تخريب ، إلا أنه يقتضى مكابدها مرة أخرى ، لان التجارب المكررة وحدها هى التى تثقف الناس ، وما الحقائق المبتوثة فى الكتب سوى كلمات فارغة لا تنفذ روح الشعب الا إذا دعمتها النيران وقصف المدافع .

٢ — المبادئ الدينية والمبادئ العاطفية في حياة الأمم .

إن تأثير المنطق العقلي العظيم في تقدم العلوم وفي تطور حياة الأفراد أحياناً هو ضعيف الى الغاية في حياة الأمم ، ولكن لو نظرنا الى ظواهر الأمور دون أن نكتشف عللها الخفية والقياس السمع الى ما في كتب التاريخ من قصص لرأينا خلاف ذلك ، ألم يلتجئ المؤرخون في شروحاتهم الى العقل ؟ أولاً نشاهد أن الناس مجمعون تقريباً على أن سبب الثورة الفرنسية هو ما جاء في كتب فلاسفة القرن الثامن عشر من المباحث وأن غاية تلك الثورة هي نصر مبادئ العقل ؟

لم يستشهد بالعقل كما استشهد به في أثناء الثورة المذكورة حتى ان الناس أقاموا له تمثالاً في أيامها ، والواقع لم يكن ذا تأثير ضئيل مثله في ذلك الدور ، ستبدولنا هذه الحقيقة عندما نتخلص من نير أفكارنا المتقلبة لنا عن الآباء فتقدر على تدوين كتاب يبحث عن روح الثورة الفرنسية .

والمسير لتلك الثورة في جميع أطوارها حتى في بدائها هو مبدأ عاطفي ، فالذي دفع أبناء الطبقات الوسطى - الذين هم أول من أثارها - الى إيقادها هو الحسد الشديد الذي كان يغلي في صدورهم ضد طبقة اعتقدوا أنهم مساوون لأبنائها ، لا شك في أن الشعب لم يطمع أول وهلة في بعض المناصب العالية التي كان لا أمل له في نيلها ، وعلى رغم هذا فقد استقبل نشوب الثورة الفرنسية بحماسة ذلك لأن تحطيم الروادع الاجتماعية والوعود الخلابية التي وعدوه بها جعلته يرغب في المساواة بينه وبين سادته السابقين وفي ضبط أموالهم ، ولم يستهوه شيء من الشعار الثوري الذي نُقِش على النقود وعلى مقدم الابنية كما استهوته كلمة « المساواة » التي استمر تأثيرها حتى يومنا ، فالناس لا يأخذون الآن كلمة الاخاء على أفواههم نظراً لأن مبدأ تنازع الطبقات أصبح شعار الوقت الحاضر ، وأما مبدأ الجريرة فان الجموع لم تفقه معناه في أي زمن وقد أنكرته على الدوام .

وإذا كانت الثورات تخلب الشعوب فذلك لأن المشاعر تتحرر بها من ربة الزواجر التي أوجبتها مقتضيات الاجتماع ، وقد بينت في فصل سابق تأثير الزواجر

المذكورة في المشاعر . فهذه الزواجر تكون ضرورية للشعوب المتقلبة ذات الاندفاعات الشديدة : وعندما لا تسكن التربة والتقاليد والقوانين هذه الاندفاعات فإن الشعب الذي هي فيه لا يصبح فريسة لزعماء الفتن وخدم بل يكون معرضاً لغزو الشعوب المعادية التي تعلم كيف تستغل قوة الحس والانفعال فيه ، ويثبت ذلك ما ورد في التاريخ من الأمثلة العديدة التي نعد منها حرب سنة ١٨٧٠ ، كان امبراطور فرنسا المريض وملك بروسيا الطاعن في السن يريدان اجتناب الحرب مهما يكلفهما ذلك ، ولكن يمنع ملك بروسيا شهرها عدل عن ترشيح قريبه لعرش اسبانيا ، ولكنه كان يوجد خلف هذين الرجلين المترددين صاحبي الارادة الضعيفة رجل ذو دماغ قدير وعزم كبير قابض على زمام المصير ، فقد استطاع هذا الرجل الحازم بحذفه بضع كلمات من إحدى البرقيات أن يثير غضب أمة شديدة الحس ويكرهها وهي غير مستعدة على شهر الحرب على أعداء اخذوا للحرب أهبتها منذ زمن بعيد ، ثم شرع بعدئذ يلعب في مشاعر كل أمة حتى توصل الى جعلها جميعها محايدة ، ومن هذه الأمم الانكليز الذين أعمتهم مشاعرهم بعد أن أثر فيها ذلك الرجل النفسى الحنك فامتنعوا عن الاشتراك في وضع لأئحة تكون أساساً لمؤتمر غير مدركين . اذا يكلفهم في المستقبل تكوين دولة حربية عظيمة ، وعليه فإن من يعرف كيف يتصرف بمشاعر الناس لا يلبث أن يصبح سيدهم .

٣ — التوازن وعدمه بين أنواع المنطق في حياة الأمم .

تبين لنا من الايضاحات السابقة أن اندفاعات الفرد الصادرة عن أنواع مختلفة للمنطق تكون في حال الاعتدال متوازنة ، والأمر كذلك في حياة الأمم ، ومتى يطرأ شيء على ذلك التوازن بفعل بعض المؤثرات تقع اضطرابات عميقة فتقرب الأمة من القيام بثورة ، فالثورة في الغالب عبارة عن داء نفسى مصدره عدم التوازن بين الاندفاعات الناشئة عن أنواع المنطق المختلفة التي يصبح أحدها متغلباً .

وغلبة المنطق الدينى على الخصوص هي التي تؤدي الى حدوث انقلابات عظيمة في حياة البشر ونورد الحروب الصليبية والحروب الدينية والثورة الفرنسية أمثلة على

ذلك ، فمثل هذه الحوادث عنوان لأزمات تقع في خلق التدين المتين الذي لا تستطيع الأفراد والشعوب أن تتخلص من حكمه .

وتنشأ تقلبات التاريخ عما بين أنواع المنطق المختلفة من تصادم ، فمتى يتغلب المنطق الدينى فإنه يعقب ذلك حروب دينية وما تؤدى اليه من قسوة متجبرة ، ومتى تتم الغلبة للمنطق العاطفى فإننا نشاهد حسب الأحوال إما تأهباً للحرب وإمّا بالعكس انتشاراً للمذهب الانسانى أو مبدأ السلم اللذين لا يكونان أقل سفكاً للدماء من حيث النتيجة ، ومتى يزعم المنطق العقلى أنه تدخل في حياة أمة فلا ينشأ عن ذلك انقلابات اخف من تلك ، إذ لا يكون العقل وقتئذ سوى لباس يستر تحته اندفاعات عاطفية أو دينية .

وظلت الجموع وزعماؤها كما أوضحت مشبعة مثل الأجداد من خلق التدين ، فقتد ورث بعض الالفاظ والصيغ المؤثرة في الجماعات ما للآلهة القديمة التي عبدها الآباء من قدرة سحرية ، وهكذا بقي الامل الوهمى في الجنّات التي تخلب الأبواب حياً .

أساس خلق التدين ثابت ، ولكن أشكاله هي التي تتغير ، والمظهر العقلى الحاضر هو الشكل الأخير لذلك الخلق ، فباسم العقل النظرى يود رسل المعتقدات الحديثة تجديد المجتمعات والبشر ، ويسهل ايضاح ما يُسند الآن الى العقل من قوة قادرة على تحويل المجتمع ، فلما كانت مبتكرات العلوم التي هو سببها عظيمة الى الغاية فقد أصبح من الطبيعى ان يعد قادراً على تغيير المجتمعات ونشر السعادة باسالييه المعهودة .

غير أن تقدم علم النفس أوجب اطلاقنا على أن المجتمعات لا تتطور بتأثير العقل بل بتأثير اندفاعات العاطفة وخلق التدين التي لا سلطان للعقل عليها ، وما على قادة الشعوب الآن أن يأتوا به من مجهود صعب فهو أن يؤلفوا بين اندفاعات أنواع المنطق التي تسيرهم وبين اندفاعات المنطق العقلى التي ترغب في أن تسيطر عليهم سيطرة تامة ، وقد أخذت انكلترا مع كونها مملكة التقاليد تعاني أمر ذلك العراك ، إذ صارت نظمها السياسية التي هي سر عظمتها عرضة لهجمات المبادئ العقلية التي تسعى الأحزاب المتطرفة أن تجدد بها بنيان البلاد الاجتماعى .

ان التصادم بين أنواع المنطق المختلفة لا يستمر أبداً ، فقد رأينا آنفاً أن هذه الأنواع تميل الى التوازن ، نعم يدوم التباين بينها ، ولكن من غير أن نشعر بذلك ، لأن العنصر العقلي في الغالب يخضع لحكم المؤثرات العاطفية والدينية وان لم يعترف بهزيمته ، وبهذا نوضح علة اقلعنا عن المناقشة في عواطفنا ومعتقداتنا على الدوام .

ظهر من الملاحظات السابقة أن لكل من المبادئ الدينية والمبادئ العاطفية نوااميس خاصة ، ولذلك تبقى في النفس مصدراً لسير الأفراد والشعوب ، وعلى ما بين اندفاعات المرء من تناقض فانها لا تلبث أن تتوازن إذالم يعكس صفاؤها ولم يحاول أن يوفق بينها توفيقاً مستحيلاً ، فالحقائق العاطفية والحقائق الدينية والحقائق العقلية هي بنات مختلفة لأنواع من المنطق يتعذر اتحادها .

### الفصل الثالث

#### ميزان العلل

١ — الميزان النفسى — السير والحركة

ان ما بين أنواع المنطق المختلفة من اندفاعات متناقضة يجعلنا في الغالب نتردد في الطريقة التي يجب أن تتبعها ، وبما أن الحياة تقتضى السير فعلينا أن نختار أحد السبل ولكن كيف نختار؟ يتجلى لنا أمر هذا الاختيار بالمثال الآتى :

لنضع أشياء في كفتى ميزان ، فاذا كان ما وضع في كل من الكفتين متساوياً فان عقرب الميزان يبقى عمودياً مذبذباً ، والا فانه يميل الى احدى الجهتين ، وعدا الموازين المادية يوجد موازين نفسية مماثلة لها ، فعلى السير هي عبارات هذه الموازين النفسية ، وأما عقربها فهو العمل الذى ينشأ عن وجود الكفة في إحدى أحوالها .

وقد يكون العقل أحياناً علة السير ، ولكنه ينضم في الغالب الى العال العقلية الشاعرة عال لاشاعرة تثقل وطأنها على إحدى الكفتين ، أى ان العال جميعها

تتقاتل والغلبة في العراك تكون لأقواها، فمتى تكون العائل المتقاتلة ذات قوى متكافئة فإن الكفتين تهتران وقتاً طويلاً قبل أن تميل احدهما الى جية وهناك التردد والتذبذب في الأخلاق ، وعند ما تكون العائل المعتركة متفاوتة في قوتها فان احدى الكفتين تميل لتستقر وهناك يبت الانسان في سيره وحركته .

٢ - شأن الارادة في ميزان العائل

تقدر في الغالب على التصرف في عيارات الميزان النفسى بأن نزيدها أو تقلها فلا ريب في أن الأبطال ذوى الجرأة والأقدام الذين قطعوا جبال الألب وعبروا بحر المانش طائرین أول مرة في الهواء حذفوا من كفتى الميزان بعض العائل العقلية التي قد تثبط عزائمهم في أمور خطيرة كهذه لم يجروا أحد قبلهم على اقتحامها ، ومع ذلك فان الارادة لا تكلف نفسها على الدوام أمر وضع العيارات في ميزان العائل ، إذ ان عناصر الحياة العاطفية أو الدينية تقوم بهذا الأمر من تلقاء نفسها ، وذلك مثل ما يقع في أثناء بعض الحوادث الفجائية كقذف الرجل نفسه الى الماء أيام الشتاء كي ينقذ شخصاً مجهولاً ، فلو كان للتأمل عمل في الأمر لوازن بينه وبين عناصر العاطفة وغير ميل عقرب الميزان ، ومن هنا يتضح لنا السبب في كون حوادث البطولة العظيمة الغريزية كثيرة مع أن حوادث البطولة الصغيرة اليومية المستمرة قليلة العدد كأن يحرم الانسان نفسه ملاذ الحياة في سبيل قريه المريض العاجز .

وعلى ما تقدم فان الارادة الشاعرة قد تؤثر في ميزان العائل ، ولكن إذا كانت هذه الارادة غير شعورية - كما في أمر المعتد - فان عملها يكون لاغياً ، حينئذٍ يجرى المنطق الدينى حكمه مستقلاً عنا ، وعند الحاجة على رغم أنفسنا او ضدنا .

وأما إزاء المنطق العاطفى وحده فقوتنا اكثر مقاومة مما هي إزاء المنطق الدينى ، لأن المشاعر إذا لم تكن غاية في الشدة فان العقل يقدر على التصرف في بعض العيارات اى العائل ، ولا نأسف كثيراً على ضعفنا أمام اندفاعات المنطق العاطفى ، لان هذه الاندفاعات وإن كانت في الغالب ذات نتائج مضره إلا أنها قد تأتي احياناً بأعمال مفيدة للبشر .

ومثي يعلم الانسان أن يوفق بين اندفاعاته العاطفية والدينية و بين مبتكرات العقل فان نطاق الممكنات يتسع في نظره .

وفي توازن العلل حيث تتكون الآراء والمعتقدات كثير من العلل والعوامل التي لا تأثير لنا فيها ، ولو استمر عدم تأثيرنا لقننا كما قال كثير من المذاهب الفلسفية إن القدر هو الذي يسيرنا ، وانقدر بالحقيقة قد استولى على تاريخ البشر زمنًا طويلاً ، لان الناس لما ظلوا عاجزين دوراً مديداً عن قيادة أنفسهم خضعوا لسنن ما اختلف من انواع المنطق التي لا صلة بينها وبين العقل خضوعاً مقدرًا .

٣ - كيف يؤثر المنطق العقلي في ميزان العال .

لقد ظهرت بظهور المنطق العقلي البطيء قوة جديدة في العالم ، وبهذه القوة يؤثر الانسان في الغالب في كفتي ميزان العال ، وقد بينا عند ما بحثنا في كتاب آخر عن انحلال المقادير كيف يصير المنطق العقلي عاملاً كبيراً في هذا الانحلال فبفضل ما في المنطق المذكور من قدرة يستطيع الانسان أن يؤثر في مجرى الامور ، وهو لعدوله بالتدريج عن الاتقياد للمؤثرات اللاشعورية التي كانت تقوده فيما مضى قد أخذ يتعلم كل يوم كيف يهيمن عليها ويقبض على زمامها .

وإذا كان المنطق العقلي - والارادة تدعمه - لا يزال عاجزاً عن تقرير المصير فذلك لأننا نجهل حتى الآن اكثر علل الحوادث ولأن كثيراً من أعمالنا ذو نتائج لا تتحقق الا في مستقبل منعم بالطوارئ ، فهذه الطوارئ ذات أخطار ، وبها ينضم الى ميزان العال عبارات ذات قيم مجبولة .

نستدل على ذلك بكون دهاة البشر الحقيقيين - القابضين على مصير الأمم والذين لا يظير منهم في كل عصر سوى عدد قليل - مع علمهم في الغالب كيف يجعلون الكفة راجحة فأنهم يخاطرون بالامور كثيراً ، وهذه المخاطرة تتجلى لنا على شكل واضح عند النظر الى ( بسمارك ) الذي استشهدنا به مرات عديدة نظراً لنفسيته التي يفيد درسها ، فقد كان المسير لهذا السياسي المحنك هو المبدأ القائل بالوحدة الالمانية ، ولكن ما اكثر المهالك التي تعرض لها والأحوال التي عاكته والموانع التي عاناها في

سبيل ذلك ، كان عليه في أول الأمر أن يقضى على النمسا الحربية ذات النفوذ الذى اتفق لها بفعل ما ضيها المجيد ، وما ناله سنة ١٨٦٦ من نصر فى معركة ( صادوا ) فبعناء ولعجزٍ متناهٍ فى قائد العدو ، ثم كان عليه بعد ذلك أن يحارب نابليون الثالث الذى كان الناس يعدون جيوشه لا تُغلب ، نعم يقدر الرجل العظيم على الاستعداد لجميع تلك الامور ولكن من غير أن يضمن النجاح ، وبالخلق المقدم والذكاء الواسع الحارق وحدهما تُتَّحَم مثل تلك المخاطر .

والمنطق العاطفى على الخصوص هو الذى يتدف بالانسان الى المخاطرة ، وهو الدعامة الأولى التى يستند اليها فى القيام بمشروع يسوق اليه المنطق العقلى أيضاً ، نعم كان يوجد فى اجتياز جبال الألب وعبور بحر المانش بواسطة الطيارة خطر عظيم ، ولكن المنطق العقلى قد دَعَمَ إرادةً مشبعة من حب المجد ومن الميل الى اقتحام المصاعب وغيره من العناصر ذات المصدر العاطفى فوقع ذلك الاجتياز والعبور ، فالسبب فى عظمة رجال التاريخ وأفاضل العلماء وأكابر المفكرين ومشاهير الربانة هو كونهم علموا كيف ينتفعون بجميع أنواع المنطق المسيطرة على الانسان ويتصرفون فى ميزان العال الذى يتقرر فيه أمر المستقبل .

ولا تتقدم الحضارات بالجموع التى هى لَعَبٌ تُسَيِّرُهَا الغرائز بل بصفوة الرجال التى تفكر لأجل الجموع وتقودها ، ولم يفعل الساسة بمحاولتهم تسخير المنطق العقلى لمنطق الجموع كى يبرر اندفاعاته سوى إحداث فوضى عميقة .

نلخص هذا الفصل والفصول التى تقدمته بالكلمات الآتية وهى : إن حوادث التاريخ تنشأ عن توازن أنواع المنطق المختلفة وتصادمها ، ولكل من هذه الأنواع فى ميزان العال الذى توزن فيه مقاديرنا شأنه الخاص ، فأذا هيمن أحدها على الآخر فان مصير الناس يتبدل .

والمنطق العاطفى يجعل الانسان يسير غير متأمل وراء اندفاعات مشؤومة ، والمنطق الدينى يولد الأديان التى تلجىء الانسان الى الاهتمام بنجاته الأبدية ، ومنطق الجماعات يوجب جلوس طبقات الشعب الدنيا على منصة الحكم ويرجع بهذا الشعب الى الهمجية ، والمنطق العقلى يلقى الشكوك والريب فى قلب الانسان ويدفعه إلى البطالة .



# الباب الخامس

## آراء الأفران ومعتقداتهم

### الفصل الأول

العلل الباطنية للآراء والمعتقدات :

« الخلق ، المثل الأعلى ، الاحتياجات ، المنفعة ، الحرص »

١ — تأثير علل الآراء والمعتقدات .

جاء في جريدة ( الكومانتتر ) الانكليزية - بمناسبة كتابي المسمى روح السياسة - ما يأتي : « لربما يظهر يوماً ما كتاب غريب في فن الاقناع ، فلو فرضنا أن علم النفس يصل في المستقبل الى درجة راقية كعلم الهندسة والميكانيك لأمكننا أن ننبئ بتأثير الدليل والبرهان في روح الانسان كما ننبئ بحسوف القمر ، وسيكون لعلم النفس الذي يبلغ تلك الدرجة قواعد نحول بها الرجل الى أي رأى فتصبح روحه حينئذ كالآلة الكاتبة حيث يكفي ضغط زر منها ليظهر الحرف المطلوب حالاً » .

قد نعلم نظرياً باحداث ذلك العام - الذي عرف أقطاب السياسة وزعماء الشعوب منه بضع نبد - في المستقبل ، ولكن ايجاده كاملاً يتطلب ذكاء في البشر اسمى من ذكائه الحاضر كثيراً ، وسبب ذلك جلي واضح : إن من أشد مسائل علم الفلك صعوبة المسئلة التي لم يحل منها العلماء حتى الآن سوى جزء على رغم ما بذلوه من الجهود العظيمة والتي هي عبارة عن تعيين المواضع لثلاثة أجسام مختلفة جرمًا وسرعة مؤثر بعضها في البعض الآخر في آن واحد ، والعناصر النفسية التي يقتضى تعيينها هي أكثر عددًا ويختلف تأثيرها باختلاف قوة الحس والشعور في الاشخاص .

( ٦ ) — الآراء

على أن التنبؤ في سير الناس ليس مستحيلاً على الدوام ، وبيان ذلك أنه يوجد في تركيب المشاعر المعقد - الذي يتألف الخلق منه - عناصر راجحة تعين وجهة الأخرى كعناصر البخل والأثرة وحب الذات والعجب الخ ، فالذي تغلبت عليه هذه المشاعر تسهل قيادته إذ يعلم حينئذ ما هو وتره العاطفي الذي يُضرب عليه ، وأما الرجل الذي توازنت فيه المشاعر دون أن يستحوذ بعضها على البعض الآخر فيصعب اكتناؤه وتسييره .

ولا شأن للعوامل كلها في تكوين الرأي ، فالذي يؤثر منها في رجل لا يؤثر في الآخر ، والذي يوقد نار الحرص في شعب لا يحرك ساكن شعب مجاور .

والحقيقة هي أن تكوين أكثر الآراء والمعتقدات لا يستلزم سوى قليل من العوامل ، فعوامل العرق والبيئة والمدوى تكفي لانشاء المعتقدات العظيمة وعاملا الانفعال والمنفعة الشخصية يكفيان لتكوين الآراء اليومية ، ومع ذلك فانك ترانا مكرهين على البحث في عوامل أخرى ، ذلك لأن هذه العوامل إذا لم تكن ذات تأثير على الدوام فانه ليس فيها ما هو غير مؤثر في أحد الأوقات .

٢ - الخلق

يوجد بجانب أخلاق العرق العامة اخلاق الفرد المتقلبة ، وشأن الأخلاق في تكوين الآراء والمعتقدات عظيم الى الغاية ، فأعقل الحكماء لا يقدر على التخلص من تأثيرها ، وما في مبادئه الفلسفية من تفاؤل او تطير فناشيء عن خلقه أكثر منه عن ذكائه ، وعليه فقد أصاب ( ويليام جيمس ) حيث قال : « إن تاريخ الفلسفة هو تاريخ التصادم بين الأمزجة البشرية ، وهذا الاختلاف بين الامزجة له أيضاً شأنه في ميدان الأدب والفن والحكومة والطبائع ، فاذا نظرنا الى الطبائع نرى من الناس من يبدو عليه التكلف ومنهم من لا يبدو عليه ، وإذا نظرنا الى الحكومة نرى بين اعضائها من هو محب للسلطة ومن هو فوضوى ، وإذا نظرنا الى الأدب نرى بين حملة لوائه من هو لغوى مفرط او مغال في الاسلوب ومن هو مبالغ في تصوير الاشياء كما هي . »

وإذا طبقنا تأثير الخلق الشخصي في الآراء نعلم لماذا بعض الناس محافظون وبعضهم ثوريون ، فالثوريون يميلون بفعل مزاجهم الى الثورة ضد جميع ما يحيط بهم غير مباليين بنظام الأمور نفسه ، وتتألف كتابتهم على العموم من الذين انحلت أخلاقهم الثابتة الارثية بتأثير مختلف العوامل فصاروا لا يلتزمون بالبيئة التي يعيشون فيها ، ونعتبر كثيرين منهم من فصيلة المنحطيين ذوى الأمراض والعاهات الذين لم يلتزموا بالمجتمع فأصبحوا حاقدين عايبه بحكم الطبيعة كما يحقد الهمجي على مدنية أكره على الخضوع لمبادئها .

وجيش الثوريين في الوقت الحاضر يتكون على الخصوص من المنحلين الذين ضاقت المدن الكبيرة بأمراضهم الكحولية والافرنجية والحمية والسمية ذرعاً ، وعلى نسبة تقدم الحضارة يزداد عدد هذا الجيش وسيكون إقناذ المجتمعات من هجماته العنيفة من أشد مشاكل المستقبل خطراً

في بعض الأحيان يكون شأن اولئك العدييي الالتام في التاريخ عظيماً ، ذلك لأنهم ذوو قدرة عظيمة على الاقناع يؤثرون بها في روح الشعوب ، فالتمهوسون أمثال بطرس الراهب ولوثر قلبوا العالم رأساً على عقب .

### ٣ - المثل الأعلى

مثل الأمة الأعلى يدل على كثير من آرائها ومعتقداتها ، فهو خلاصة رغائبها العامة واحتياجاتها وأمانيتها ، والناظم لهذه الخلاصة هو العرق وماضيه وغير ذلك من العوامل التي لا أبحاث عنها الآن ، وقد بينت في كتاب آخر قوة المثل الأعلى فأثبت أنه لا يتزعزع من غير أن يتزلزل دعائم البنيان الاجتماعي الذي يقوم عليه ، وإذا كان كثير من الناس يترددون اليوم في آرائهم ومعتقداتهم ويسرون طائعين خائف اندفاعات كثيرة التناقض فذلك لأنهم ذوو مثل أعلى ضعيف على رغم ما يتصفون به أحياناً من ذكاء هو غاية من السمو والرقى .

وما في المتعصبين من قوة فيشتق من خضوعهم لثلهم الأعلى الخطير خضوعاً

تماماً ، واليوم نشاهد ذلك في الاشتراكيين الذين سحرهم مثلهم الأعلى ، فقد ثقلت وطأة هذا المثل على حياتنا القومية وهو السبب في سن قوانين مبددة لنمو هذه الحياة .  
إذاً لم يكن المثل الأعلى مبدأ نظرياً يمكننا أن نتغاضى عن تأثيره ، فحتى يعم أمره فإنه يكون ذا تأثير عظيم في أدق شؤون الحياة ، حتى إن الذين ينكرون نفوذه يعانون هذا النفوذ على رغم أنوفهم .

والمعتقدات دينية كانت أم اجتماعية أم سياسية لا تكون ذات قوة إلا إذا أصبحت مثلاً أعلى مقبولاً بوجه عام ، وعندما يلتزم المثل الأعلى المذكور مع مقتضيات الزمن وممكناته فإنه يسبب عظمة الأمة التي تعتقه ، ولكن حينما يكون مناقضاً لسير الأمور الطبيعي فإنه يؤدي إلى انقراض تلك الأمة .

٤ - الاحتياجات

الاحتياجات هي من أكبر العوامل في تكوين الرأي وكل تطور اجتماعي ، وعند الجوع أكثرها شدة ، فهو الذي ساق أجدادنا الأولين من الكهوف والمغاور إلى سلم الحضارة ، وهو الذي تسعى لقضائه أكثرية البشر ، ولولاه لما ترك البرابرة أرضهم البور وغيروا مجرى التاريخ بتدهورهم على روما ، وليس شأنه اليوم بأقل منه في الماضي ، فلقد أصاب من قال إن الاشتراكية هي مسألة معدة .

وكما تقدمت الحضارة فإنه يضاف إلى قائمة الاحتياجات القديمة احتياجات جديدة ، وما الاحتياج إلى الأكل وإلى التناسل واللباس والدين والأموال الأدبية والجمال سوى عناوين لمقتضيات الحياة والعاطفة التي تقودنا والتي تنشأ عن علتي الحركة في الموجودات أعني اللذة والألم ، ويؤدي إيجاد احتياجات جديدة في الجموع إلى ظهور آراء حديثة ، ويعرف اقطاب السياسة أن يجدوا احتياجات تفيد بلادهم ، فما الاحتياج إلى الاتحاد في المائسائم إلى إنشاء اسطول حربي قوى سوى احتياجين مصنوعين أكرهت البلاد عليهما .

وقد أوجب تطور الصناعة العلمي حدوث احتياجات جديدة كالخطوط الحديدية والتلفون ، ومن سوء الحظ أن بلغت هذه الاحتياجات من النمو مبلغاً زاد

على الوسائل الضرورية لتقضائها ، فصارت مصدراً للاستياء الذى هو عامل قوى فى انتشار الاشتراكية .

والاحتياجات هى أيضاً سبب التسليح المؤدى إلى الافلاس فى اوروبا ، لانه لما عظمت الاحتياجات كثيراً فى اوروبا واصبح تنازع البقاء فيها أشد منه فى الماضى صارت كل دولة فيها تطمع فى الاغتناء على حساب الدول المجاورة لها ، فالألماني الذى كان منذ خمسين سنة قائماً بأكل الكرنب كان سلمياً لقلّة احتياجاته ، ولكن عند ما زادت احتياجاته بغتة أصبح محارباً متوعداً ، ثم لما كان الالمان يزدادون عدداً وأوشكوا أن يكونوا من الكثرة بحيث لا تكفى بلادهم لإطعامهم فان الوقت الذى تتعلل فيه المانيا باحدى العلل الواهية كى تستولى على الأمم المجاورة وتشاركها فى أمر معيشتها قد قرب ، وهذا السبب وحده هو الذى يدفعها الآن الى بذل نفقات باهظة فى سبيل جيشها وبحريتها .

• — المنفعة .

ليس من الضرورى أن نطنب فى بيان تأثير المنفعة فى تكوين آرائنا ، ذلك لأن هذا الأمر شىء مسلم به ، ويمكننا أن نعتبر أكثر الأشياء من عدة وجوه أى من حيث المنفعة العامة أو من حيث المنفعة الخاصة .

وللمنفعة ما للحرص من قدرة على تحويل ما يلائمها الى حقيقة ، ولذلك فهى فى الغالب أقوى من العقل حتى فى المسائل التى يظهر أن العقل هو المهيمن عاينها ، خذ الاقتصاد السياسى مثلاً ترأى مبادئه المختلفة مشبعة من البحث فى المنفعة الشخصية بحيث نستطيع أن تقدّر بها مقدماً ميل الرجل ذى المهنة المعينة الى نظام حرية المبادلة أو نظام الحماية .

وتقلباتُ الرأى تتبع تقلباتِ المنفعة بحكم الضرورة ، فالمنفعة الشخصية هى العامل الأسمى فى الأمور السياسية ، فالنائب الذى انتقد ضريبة الدخل بما أوتى من قوة لا يلبث أن يدافع عنها بعزم لا يقل عن السابق عند ما يأمل أن يصير وزيراً ، وكذلك الاشتراكيون فانهم يصبحون محافظين بعد أن يفتنوا .

ولا يقتصر أمر المنفعة على تكوين الآراء بل إنها بعد أن تستفزها الاحتياجات تضعف أدب الانسان وحسن سيرته ، فالقاضي الذي يطمع في الرقي والجراحي الذي يعمل عملية جراحية لا تفيد والمحامى الذى يزيد الدعوى تعتيداً تنحط أخلاقهم أكثر من ذى قبل عند ما يحرك احتياجهم الى النفائس منفعتهم .  
وشأن المنفعة الادبية هو كشأن المنفعة المادية فى تكوين الآراء ، فاذا أوردنا عزة النفس المكرومة مثلاً نرى أنها تولد أحقاداً شديدة وما ينشأ عن هذه الاحقاد من آراء ، فمصدر حقد أبناء الطبقة الوسطى على الأشراف وانتقامهم منهم أيام الثورة الفرنسية هو على الخصوص ازدراء هؤلاء لاوئلك فى العهد السابق ، ولو أدرك ( مارا ) - الذى انتقم لنفسه من سادته السابقين - و ( هبرت ) - الذى أوجب قطع كثير من الرؤوس بعد أن كان ملكياً متحمساً - دور الامبراطورية ونالا فيه وظائف وألقاباً لأصبحتا كخصومهما من المحافظين المتأججين .

٦ - الحرص .

إن المشاعر الثابتة الموصوفة بالحرص هى أيضاً مصدر الآراء . والمعتقدات والحركة ، وبما أن بعض أنواع الحرص تنتقل بالعدوى فانه يسهل عليها أن تتسرب فى الجموع حيث تصبح ذات تأثير لا يقاوم ، وما أكثر المرات التى تدهورت فيها بعض الأمم بفعل الحرص على البعض الآخر فى غضون أجيال التاريخ .

وقد يحرك الحرص نشاط الانسان ، ولكنه فى الغالب يفسد سداد الرأى ويمنع الانسان من أن يرى الأمور كما هى وأن يفهم صورة تكوينها ، وسبب كثرة الاغلاط فى كتب التاريخ أن الحرص هو الذى أملى أنبائها

نرى مما تقدم أن الحرص ذو تأثير عظيم فى آرائنا وفى تكوين الحوادث ، ومن دواعى الأسف أن أنواع الحرص ذات التأثير الكبير هى التى ليست محلاً للاعتناء والاعتبار ، فلقد حقق ( كانت ) ما لهذه الأنواع الرديئة من الشأن الاجتماعى العظيم حيث بين أن الخبث هو عامل كبير فى رقى البشر ، ويظهر أن الناس لو اتبعوا مبدأ الانجيل القائل « لِيُحِبَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » بدلاً من أن يتبعوا مبدأ الطبيعة الذى يشير عليهم بأن يقتتلوا لظلوا عائشين فى الكهوف .

## الفصل التالى

### العوامل الخارجية للآراء والمعتقدات

التلقين، الانطباعات الأولى، الاحتياج الى التفسير، الالفاظ، الصور، الأوهام، الضرورة

١ — التلقين

أكثر آرائنا ومعتقداتنا سياسية كانت أم دينية أم اجتماعية نتيجة التلقين، قال ( جيمس ) : « ان التلقين عبارة عن القوة التى تؤثر بها الافكار فى المعتقدات والسير » وعندى أن هذا التعريف غير صحيح، فالتلقين هو بالحقيقة كناية عن قوة الاقتناع ليس بالأفكار وحدها بل بأى عامل آخر كالتوكيد والنفوذ الخ، ولو نظرنا الى الأفكار دون غيرها لرأيناها ذات تأثير ضعيف .

وللتلقين مناهج كثيرة نعد منها البيئة والكتب والجرائد والخطب والعمل الشخصى الخ، والكلام من أكثر هذه المناهج تأثيراً، وتوكيد الكلام يزيده قوة ونفوذاً .

وشدة التلقين تختلف باختلاف العوامل، فهذه الشدة تبتدىء من التأثير الضئيل للبائع الذى يحاول أن يحمنا على ابتياع شىء من سلعه وتنتهى الى التأثير الذى يؤثر به المنوّم فى المصاب بمرض الأعصاب حيث يجعله سلب الارادة، وفى عالم السياسة يكون الزعيم ذو النفوذ العظيم هو المنوّم .

وتكون نتائج التلقين بحسب حالة الملقن النفسية، فالملقن يصبح بتأثير احد المحرضات - كالحقد والحب - التى تضيق دائرة شعوره أكثر انفعالاً فيسهل تحويل آرائه .

ولا يتخلص اولو الفضل من سلطان التلقين، فلقد بين ( جول لوميتير ) فى محاضراته عن ( فينيون ) أن هذا الخبر الشهير أصبح مقوداً من ( مدام كويون ) ذات المرض العصبى بعد أن اتخذته مرشداً لها، إذ استطاعت أن تمنعه بصحة آرائها

في المذهب الصوفي الداعي الى عدم المبالاة بالنجاة الأبدية وبالاعمال . وقد بلغ تأثيرها فيه مبلغاً جعله يعرض ذلك المذهب على مؤتمر من الاساقفة برآسة ( بوسويه ) الذي لم يلبث أن اكتشف تلقين ( مدام كويون ) للحبر المشار اليه فقال : « أنصاع مبهوتاً من رؤيتي امرأة ذات بصرية محدودة قليلة الفضل كثيرة الوهم تؤثر في رجل ذي روح عالية . » غير أن الذين يطلعون على التاريخ الحديث لا يعترفهم الدهش كما اعترى ( بوسويه ) لأن كثيراً من الحوادث ( كمسئلة هومبرت ومسئلة دوبرى دولوماهيرى الخ ) أثبتت لهم أن عدداً كبيراً من الصيارفة الماهرين والمحامين القديرين والقادة المدبرين تركوا ثروتهم بين أيدي أناس محتالين معدودين من الرُعاة المشعوذين .

وما الشعوذة سوى نوع من التلقين ، والانسان يعانى أمرها كما يعانى الطير شعوذة الثعبان ، ومما لا ريب فيه أن بعض الناس النادرين يؤثرون في الحيوان بما يتخذونه من ضروب الرقية كما يشاهد ذلك مربو الحيوانات ، وما أكثر الجرائم التي اقترفت بفعل الشعوذة والرقية ، فما لقيت كونتة ( تارنوسكا ) صعوبة في جعل عشاقها يقتلون رجالاً كثيراً ، وقد اصبحت من النفوذ والتأثير بحيث كان يجب تبديل فرسانها وحرس سجنها تبديلاً مستمراً .

ويوجد شبه بين الأمثلة المذكورة وبين أعمال الوسطاء أو الدراويش الذين يلتقون من يحيط بهم فيجمعونهم يعتقدون أموراً لا أساس لها . على هذا الوجه ذهب كثير من مشاهير العلماء ضحية تلقين الوسيطة المشهورة المسماة ( اوزايا ) كما سأبين ذلك في فصل آخر .

وبما أن شأن الجماعات يزيد بالتدرج وكان التلقين هو المؤثر فيها فان نفوذ الزعماء يعظم يوماً فيوماً ، وما الحكومات الشعبية إلا حكومات بعض زعماء يتجلى استبدادهم في كل آن ، لأن الزعماء هم الذين يأمرون بالاعتصابات ويكرهون الوزراء على إطاعتهم ويسببون وضع قوانين عقيمة مخالفة للعقل والصواب .

قدرة الزعماء على التلقين كبيرة جداً ، وبها يرغبون الجموع على الخضوع والانتقاد ، فلقد بين مدير شركة ( اورليان ) في عيد هذه الشركة السنوى أن موظفيها اعتصبوا



في زمان اضطر فيه الى التسليم بجميع مطالبهم ، ثم قال : « إن سبب هذا الاعتصاب هو بضعة محرضين التجأوا في تحريضهم إلى إقامة الوعيد والسب والشتم مكان الدليل والبرهان » ، ولو كان عند ذلك المدير اطلاع كافٍ على سنن النفس لعلم أن إبطال تلقين أولئك المحركين يتم باخراجهم من الشركة ، فالتلقين لا يقاوم إلا بالتلقين ، ولا يؤدي الإذعان لما يقترحه الزعماء سوى زيادة نفوذهم .

## ٢ — الانطباعات الأولى

الانطباعات الأولى هي أول ما يشعر به المرء عند مصاقبته أول مرة ما جهله سابقاً من رجل أو حادثة أو شيء آخر ، وحيث أن التدقيق في الأمر متعب شاق فإن الناس يكتفون على العموم بالانطباعات الأولى .

والانطباعات في بعض عناصر الحياة الاجتماعية تسير أحياناً هي والبرهان ، ولكن يوجد عناصر أخرى تظل فيها انطباعاتنا الأولى وحدها دليلاً ، ونعد من هذه العناصر الفنون والآداب على الخصوص ، ولما كانت الانطباعات تابعة لمشاعر متبدلة فإن ما تولد في النفوس من صور وآراء يتحول بسهولة ، وهذا هو سر اختلافها باختلاف الأزمنة والأشخاص والشعوب ، فالانطباعات الأولى التي تورثها الأشياء نفسها في أمير اقطاعي أو أسقف من أشياخ ( كالفين ) أو رجل متعلم أو عامي أو عالم لا تكون واحدة ، وأما مسائل العلم التي لا تأثير للعاطفة فيها فإنه قلما يشاهد فيها مثل هذا الاختلاف ، وعلّة ذلك كون أقوالنا ومبادئنا فيها لا تتم بتأثير الانطباعات الأولى .

وأحياناً تزول الانطباعات الأولى بفترة بتأثير انطباعات أخرى مناقضة لها ، ولكنها قد تكون قوية لا تتلاشى الا شيئاً فشيئاً بفعل البلى والدثور

ويقتضى اعتبار الانطباعات الأولى دلائل مبهمّة وعلامات غير صحيحة يجب نقدها والبحث عن حقيقتها على الدوام ، والافان عدم تمحيصها — كما يفعل الناس في الغالب — يؤدي الى وقوع المرء في الضلال مدة حياته ، ذلك لأنه ليس لها دعامة تستند اليها سوى العواطف والكراهة الغريزية التي لا يرشدها أي عقل ولأن مبادئنا

في العدل والظلم والخير والشر والصواب والخطأ تقوم في أكثر الأحيان على هذه الأسس الواهية .

٣ - - - الاحتياج الى التفسير

الاحتياج الى التفسير كالاحتياج الى الاعتقاد يلزم الانسان من المهد الى اللحد ، وقد ساعد على تكوين الآلهة ويساعد على ظهور عدد غير قليل من الآراء ، ويسهل قضاؤه ، فأبسط الأجوبة تكفيه ، وهذه السهولة هي مصدر كثير من الأغلاط وبما أن روح البشر مولعة بالقضايا القاطعة فانها تحافظ على آرائها الباطلة الصادرة عن الاحتياج الى التفسير زمناً طويلاً معتبرة كل من يجارب هذه الآراء عدواً مقلقاً للراحة ، والمحدور الاساسي للآراء القائمة على تفاسير باطلة هو ان الانسان بعد أن يعدها جازمة لا يسعى في البحث عن غيرها ، فلقد أوجب جهلنا جهل أنفسنا تأخر العلوم قرونًا كثيرة وتضييق دائرتها في الوقت الحاضر .

والتعطش الى التفسير يتناول على الدوام أموراً لا تُدرَك ، فالنفس تسلم بأن (المشترى) هو الذي يرسل الرعد والصواعق عوضاً عن أن تعترف بأنها تجهل العلل التي تسببها ، والعلم نفسه بدلا من أن يقر بجهله بعض المواضيع فإنه يكتب في الغالب بمثل هذا التفسير لا يوضحها .

٤ - - - الالفاظ والصيغ والصور

الألفاظ والصيغ من أكثر العوامل توليداً للآراء والمعتقدات ، وهي لما فيها من قدرة رهيبه قد أوجبت هلاك أناس أكثر من الذين قتلهم المدافع ، وما في الالفاظ من قدرة فناشئ عن أنها توقظ في المرء مشاعر دالة عليها ، وقد بينت في مؤلفات أخرى مالها من الشأن في أمور السياسة (١) .

(١) قالت جريدة الطان في عددها الصادر في ٢٩ كانون الثاني سنة ١٩١١ ما يأتي :  
« لقد أجاد الدكتور غوستاف لوبوز - في كتابه الذي بحث فيه عن روح السياسة والاجتماع بحثاً عميقاً - عند ما أشار بمحفته النادر وبصيرته الناقبة الى تأثير الالفاظ السحرى في الجماعات والمجالس نيابية كانت أم غير نيابية ، فقد أتى مجلسنا النيابي بمثل يؤيد صحة نظره ، إذ أن هذا المجلس أصبح منذ بضعة أيام مسحوراً من لائحة « اللامركزية » .

إن قوة الصيغ عظيمة في المجلس ، فيها يحرك رجال السياسة مشاعر السامعين ، ولم يلبث رئيس الوزارة الفرنسية الموسيو ( كلمانسو ) أن سقط بغتة بتأثير لفظ واحد أيقظ في أعضاء البرلمان مشاعر الحزبي التي تكونت أيام حادثة ( فاشودا ) ، وكذلك خلفه فانه سقط للعلّة نفسها ، ولللفظين الآتين اللذين تلوكهما أفواه المشتغين بالسياسة مثل ذلك التأثير وهما : النمول والصعلكة .

وقد تبلغ الألفاظ في فعلها مبلغاً يجعلها تؤثر أحياناً في أكثر الرجال تأملاً ، وعند ما تكون النفس إزاء حادثة يتعذرا ككتاهها فانها تكتفى بإيجاد صيغة ، فلما جهل العلماء أسرار الحياة وعجزوا عن بيان السبب في تحول حبة البلوط الى سنديةانة وعن بيان الكيفية التي تتطور بها ذوات الحياة اكتفوا بصيغ تقوم مقام التفسير والايضاح والالفاظ توقظ في المرء صوراً نفسية ، ولكن الصور المرسومة أجلب للانسان ، وإني ذكرت في كتابي المسعى ( روح السياسة ) مقدار ما أوجبه الاعلانات المصورة من تأثير كبير في الانتخابات الاخيرة التي وقعت في انكلترا ، وقد أدرك أرباب الصناعة والطباعة هذا الأمر ففتنوا في استعمال الاعلانات المصورة ترويحاً لسلمهم .

وولاية الامور أنفسهم قد اطلعوا على شأن الصور في تكوين الآراء ، فبعد ما قل الاكتتاب الاختياري في كتائب الفرسان فكر منذ بضع سنين أحد رجال الحرب الواقفين على سنن النفس في تعليق إعلانات مصورة تمثل فرساناً نشيطين يقومون بانواع التمرينات ، وعلى رأس الاعلانات أشير الى الفوائد التي ينالها المتطوعون ، وقد كانت نتيجة ذلك أن استغنت أكثر الكتائب فكفّت عن قبول اكتتابات جديدة

هـ — الاوهام

تكتنفنا الاوهام منذ عهد الطفولة حتى الموت ، فنحن لا نعيش الا بالاوهام ولا تتبع سوى الاوهام ، وباوهام الحب والحقد والحرص والفخر نحافظ على قوة السير والحركة فينا غافلين عن قسوة المصير

والاوهام العقلية هي قليلة بالنسبة الى الاوهام العاطفية ، واذا كانت تنمو فذلك لأننا نود على الدوام أن نشرح بالعقل مشاعر هي في الغالب مطمورة في دياجير

اللاشعور ، ويحملنا الوهم العاطفي أحياناً على الاعتقاد باننا نحب أنفسنا وأشيائنا لا يهمنا بالحقيقة أمرها ، ويجعلنا هذا الوهم نعتقد أيضاً دوام مشاعرنا لا بد من اختفائها بفعل تطورنا الشخصى .

بهذه الاوهام نحيا وهى التى تزوق لنا الطريق المؤدية الى الفناء الأبدى ، ولا نأسف على كونه يندر تحليها ، فالعقل لا يحلها من غير أن يقضى على بواعث الحركة فينا ، والعوامل التى تشل الارادة تكثر عند البحث عن علل الارادة ، وحينئذ يفوض المرء فى بحر من التناقض والتردد . كتبت مدام ( دوستائيل ) : « ان الاطلاع على كل شئ ، وإدراك كل شئ ، يؤديان الى التذبذب » . فلو وجد ذكاء له ما نعزوه الى الآلهة من قدرة على إدراك الحال والمستقبل فى لحظة واحدة لما اهتم باى أمر ولبطلت بواعث سيره الى الأبد .

يظهر لنا بعد بيان ما تقدم أن الوهم هو ركن حياة الأفراد والشعوب الحقيقى وأنه هو الذى يمكن أن يعتمد عليه وحده ، ومع ذلك فان كتب الفلسفة تغفل عنه أحياناً .

٦ - الضرورة

يوجد فوق أهواء المشترعين الذين لا يفتأون يسنون القوانين فى سبيل اصلاح المجتمع سيد قاهر أعنى : الضرورة ، فالضرورة - وهى لا تبالى بتأملاتنا - تمثل القدر القديم الذى كانت الآلهة نفسها مكرهة على الخضوع له .

والاختلاف بين أوامر المشترعين العمى وبين الضرورة المسيطرة على الأشياء يزيد كل يوم ، ومع هذا الاختلاف نرى أن المجتمع الفرنسى يعيش على رغم قوانينه لا بقوانينه .

والمشرعون لظنهم أنهم قادرون على عمل كل شئ لا يبقى ما هو غير ممكن فى نظرهم ، فيكفى عندهم أن يكون الشئ سديداً ليكون ممكناً ، ولكن الضرورة لا تلبث أن تبدد بيدها الحديدية جميع أوهاهم وخيالاتهم ، ونرى فى التدابير القاسية التى أملتها الضرورة فى اوستراليا ضد الاعتصابات المهددة لحياة تلك البلاد والمؤدية

الى خرابها مثالا بارزا على ذلك ، والغريب في هذه المسألة هو أن أعضاء الوزارة الاسترالية كانوا من الاشتراكيين المتطرفين .

### الفصل الثالث

لماذا تختلف الآراء ولماذا لا يقدر العقل على تقويمها .

١ - اختلاف الأمثلة النفسية يورث اختلاف الآراء .

في جميع المواضيع التي يستحيل إثباتها إثباتاً علمياً يعظم الاختلاف فيما يدور حولها من الآراء ، ولما كانت الآراء قائمة على عناصر عاطفية أو دينية فإنها تتبدل على الخصوص بتبدل البيئة والخلق والتربية والمنفعة الخ .

وعلى رغم هذه التبدلات توجد مناح عامة تسوق الاشخاص أنفسهم الى إبداء آراء من فصائل واحدة ، فما هو مصدر هذه المناحي يا ترى ؟ نكتشف هذا المصدر عند ما نحقق أن الامة ليست عبارة عن أشخاص يختلفون بتربيتهم وأخلاقهم فقط ، بل بصفات انتقلت اليهم بالوراثة على الخصوص .

والمجتمع في أول الامر يتكون من أشخاص لا يختلف بعضهم عن البعض الآخر الا قليلاً ، إذ لا يكون عندهم وقتئذ نفسية أخرى غير نفسية قبيلتهم ، ولكن عوامل التطور والانتخاب لا تلبث أن تجرى حكمها في تفاوت الناس بالتدرج ، حينئذ يترقى بعضهم مسرعاً والبعض الآخر مثاقلاً ، وهكذا يتفاوتون في قطع مراحل الطريق الواحدة .

وينشأ عن ذلك ان المجتمع في دور من أدوار تطوره يحتوي على أناس يمثلون جميع الاطوار التي اجتازها ذلك المجتمع بالتتابع ، ولما لم يقطع بعض هؤلاء الناس حدود نفسية دور سابق فإن هذا البعض لا يستطيع أن يلتئم مع دور لاحق ، اذاً فالحضارة باصلاحها الناس لا تقدر على تحويهم بالتساوي ، فالناس بدلاً من ان يسيروا

نحو المساواة التي تدعو اليها أوها منا الديمقراطية في الوقت الحاضر فأنهم صاثرون الى تفاوت زائد ، ولا يكون مبدأ المساواة الذي كان سنة الاجيال الغابرة ناموس الحال والمستقبل .

وعلى ما تقدم تكون الحضارة بترقيقها التدريجي قد أتت بعمل كعمل الساحر فنشرت في وقت واحد على الأرض الواحدة رجال المغاور والكهوف وأمراء الاقطاعات ومتفني دور النهضة وعمال الدور الحاضر وعلماءه .

وكيف تكون عناصر الشعب المختلفة ذات اشترك ووحدة ؟ نعم قد تتكلم الأمة في الظاهر بلغة واحدة ولكن الألفاظ لا تلبث أن توظف في أبناء هذه مبادئ ومشارع وآراء متباينة الى الغاية ، وعمل الحكومات الشاق في الوقت الحاضر هو أن تحفظ النظام بين هؤلاء الوارثين لأمزجة نفسية كثيرة الاختلاف يتفاوتون بها في الالتئام مع بيئتهم ، ومن العبث أن تسعى في جعلهم متساوين ، فهذا أمر لا يتم بالأنظمة والقوانين ولا بالتربية .

ومن الاوهام الكبيرة السائدة في هذه الأيام هو الاعتقاد أن التربية تساوي بين الناس ، والحقيقة هي أن التربية تظهر مواهب الرجال ولكنها لا تساوي بينهم أبداً ، فما اكثر حملة الشهادات من رجال السياسة وخريجي الجامعات الذين لهم مزاج الهمجي النفسي ودليل الهمج في الحياة .

٢ — عناصر تقويم الآراء

ليس للآراء ما للمعتقدات من ثبات ، وقد تبلغ الآراء في قلبها مبلغاً يجعلنا نظن أننا قادرون على تقويمها بسهولة ، والواقع خلاف ذلك .

ان الطريقتين اللتين تتبادران الى الذهن في اصلاح الآراء وتقويمها هما العقل والتجربة ، وقد رأينا أنه لا تأثير للعقل في المعتقدات الراسخة ، وسنرى الآن هل يؤثر أحياناً في الآراء البسيطة بتأثيره الضعيف وسنرى انه لما دلت المعرفة على عدم كفاية العقل لاضاءة نور الحقيقة ظهر نظامان سياسيان صارت اليهما جميع الحكومات في الامم منذ بداية التاريخ .

واكن اذا كان العقل لا يكفى لاصلاح آرائنا فبأى شىء نبصر الحقيقة فى عالم السياسة والاخلاق والاجتماع ؟ سأبين فى الفصل الآتى أنه ليس عندنا لادراك ذلك سوى طريقة واحدة أعنى التجربة ، فلنبحث الآن عن الشأن الذى عُزى الى العقل ،

٣ — شأن العقل فى تكوين الآراء والاحكام المهمة .

تأثير العقل كبير فى جميع الآراء العلمية والفنية . وأما خطأ علماء النفس والفلاسفة فنأشئ عن اعتقادهم أن للعقل مثل ذلك التأثير فى الآراء العادية ، وقد زعم زعماء الأحزاب الخياليون أنهم يستندون الى العقل فى تكوين آرائهم ، حتى ان رجال العهد نصبوا له تمثالاً وبأسمه يسن فرسان البيان فى الوقت الحاضر النظم والقوانين .

غير ان الاختبار يثبت ان تأثير العقل قليل لا فى حياة الشعوب وحدها بل فى سيرنا اليومي وقد أشار ( تين ) الى ذلك فقال : « لو احتجنا الى الاعتقاد أن الآلهة هى التماسيح لأقمنا للتماسيح معبداً فى ميدان كاروسيل »

وعندى أنه يظهر يوم إقامة هذا المعبد كتبية من الاساندة والمحامين الماهرين لتبرر بناءه بأدلة وبراهين عقلية ، فالعقل يدعن على الدوام لأكثر اندفاعاتنا العاطفية والدينية المخالفة للصواب كى يزكيها .

والواقع هو أن الآراء اليومية تتكون مستقلة عن كل عقل وقد لا تكون ضد العقل ، وبما أننا نسترسل فى اندفاعاتنا العاطفية والدينية التى توجب تلك الآراء فاننا نتخيل أن الآراء المذكورة صحيحة ولا نسمح لأحد بأن يسفها ، ثم لو كان العقل سبب آرائنا الحقيقى لما بدا من جميع الناس سوى رأى واحد فى كل موضوع ولو كان الأمر كما فى القضايا العلمية المسلم بها لا كما فى النظريات العلمية التى ليست سوى تفاسير يميلها المنطق العقلى أحيانا بتأثير المنطق الدينى أو المنطق العاطفى .

وكما ابتعدنا من منطقة العلم الخالص أى كلما مررنا من دائرة المعرفة لندخل فى دائرة المعتقد يزيد الاختلاف بين الآراء فى جميع المواضيع ، وقد يبدو هذا الاختلاف فى المسائل التى يلوح أن العقل هو المسيطر عليها كالأحكام القضائية مثلاً

وستستعين بهذه الأحوال البارزة لثبت كيف يصعب على المنطق العقلي أن يتخلص من تأثير العاطفة والدين .

فلنقسم الرجال الذين قُوِّض اليهم أمر القضاء بين الناس كي نصل الى هذا الغرض ، حينئذ نرى على أسفل درجة في السلم أولى النفوس الذين يتكون رأيهم بتأثير المنطق العاطفي دون غيره ، ثم نرى على أعلى درجة في ذلك السلم رجالاً ذوي أمزجة نفسية لا تؤثر فيهم سوى براهين المنطق العقلي .

والى الصنف الأول ينسب المحلفون في محاكم الجنايات ، فالمحلفون لكثرة عددهم تتألف منهم جموع ويكتسبون ما للجموع من صفات أى لا تؤثر الأدلة العقلية فيهم الا قليلاً ، فيمكن تحويل قناعتهم بالتأثير في مشاعرهم ، وعلى ذلك فان المرأة التي تقترف جنابة كبيرة ويكون لها ذرية صغار يجدون في طلبها باكين لا تلبث أن تصير محطاً لتوجع المحلفين ورحمتهم ، وإذا كانت المجرمة امرأة حسناء قتلت عاشقها بتأثير الحسد والغيرة فان المحلفين في فرنسا يرحمونها أكثر مما يرحمون الأولى فيبرثونها وأما في انكاترا فيحكون عليها بالاعدام ، وبهذه الحالة يتجلى لنا تأثير العرق في تكوين الآراء .

وفوق الصنف المذكور الذي تستحوذ عليه المشاعر يجيء قضاء المحاكم الابتدائية فهؤلاء هم من الحدائث بحيث يمكن أن تؤثر أدلة المشاعر فيهم ، وإذا كان المحامي مشهوراً فإنه يجلبهم ، ومع هذا فقد يتأثرون من الأدلة العقلية ، اللهم اذا لم تعترضها منافعهم الشخصية ، وحيثا يكون لرغبتهم في الرقي وللعوامل السياسية تأثير عظيم في آرائهم ، ولذلك تكون أحكامهم متقلبة مشتبهاً فيها ، يحدث عندي هذا الاعتقاد كون محاكم الاستئناف تنقض ثلث أحكامهم على وجه التقريب .

ودرجة قضاء محاكم الاستئناف هي فوق درجة أولئك ، إذ لما كان هؤلاء القضاة اكبر سناً واعظم تجربة فانهم يخضعون لتأثير المنطق العقلي اكثر مما لتأثير المنطق العاطفي .

ثم نشاهد على ذروة السلم قضاء محكمة النقض والابرام ، فبما أن القضاة المذكورين طعنوا في السن فأصبحوا من الشيوخ وصارت علائم الهرم بادية عليهم ،



وبما أنهم اضحوا لا يبالون بالمنافع الشخصية ولا يملكون للرحمة والعاطفة معنى فانهم يتمسكون بدائرة القانون نفسها غير ناظرين الى الأحوال الخصوصية ، ولذلك لا يذكر المحامون أمامهم أدلة مصدرها العاطفة بل يحاولون أن يؤثروا فيهم ببراهين العقل ، فدقائق القانون هي التي تستولى عليهم من كل الوجوه ، ولا يخلو ذلك من خطر ، لأن قاعدة الحقوق التي تكون عند وضعها صائبة لا تلبث ان تصبح غير صائبة بفعل تطور الأمور الاجتماعي ، ووقتئذ يجب تأويلها على وجه موافق لمقتضى الحال كما يفعل بعض القضاة في أحكامهم التي هي فاتحة التشريع ، على هذه الطريقة صارت المبارزة جنحة بعد أن كانت جنائية ، وكذلك زناء الأزواج الذي كان جنائية يعاقب فاعلمها بالسجن سنين طويلة أصبح جنحة خفيفة .

ظهر مما تقدم أن آراء بعض الرجال المتعلمين المتصفين بمزية الانصاف والمتجردين عن الهوى تكون في الغالب مختلفة ، وهذا ما يؤيد بياننا القائل إن العقل وحده لم يكف لتوير بصائرهم وتثقيف أذهانهم .

وإذا لم ننظر الى تلك الصفوة بل الى الاجتماعات كالمجالس النيابية التي يكون أعضاؤها في الغالب سائرين وراء مصالحهم الشخصية وحرصهم السياسي نرى أنه لا شأن للعقل في مقرراتهم ، حتى إنهم لا يستمعون أحيانا الى ما يمليه العقل من براهين وهم لا يقترحون الا على ما توحى اليهم منافع احزابهم أو مآرب منتخبيهم .

أجل ، إنه يستشهد بالعقل في المجالس النيابية ، غير أن العقل هو أقل العوامل تأثيراً فيها ، ويعلم نوادر الزعماء الذين يستطيعون أحيانا أن يغيروا اقتراع احد الاجتماعات السياسية أنهم لا يؤثرن بالمعقول في السامعين بل بتحريكهم مشاعر هؤلاء ويستعينون على ذلك بوضع صيغ لها ما لآيات الدين من التأثير .

٤ — شأن العقل في تكوين الآراء اليومية

تبين لنا ما للعقل من الشأن الضئيل في مقررات صفوة الرجال وأحكامهم ، وشأن العقل يكون أقل من ذلك في تكوين الآراء اليومية ، إذ إننا بالحقيقة نرى

آراء مختلفة في مواضع لو تناولها العقل لم يصدر فيها سوى أحكام متجانسة ، ويتجلى هذا الاختلاف عند الوقوف على شأن العناصر الدينية والعناصر العاطفية في تكوين الآراء .

ولا ينشأ اختلاف الرأي - كما يزعمون أحياناً - عن تفاوت في تعلم الذين يدونه ، لأننا نشاهد صدور هذا الاختلاف عن أناس تقاربوا علماً وذكاءً ، وقد ثبت لدينا ذلك عند اطلاعنا على الأجوبة التي جمعت في أثناء استقراء بعض المسائل المعينة .

ومن بين الأمثلة الكثيرة اورد مثلاً بارزاً نشره الموسيو ( بينيه ) في إحدى المجالات واليكه : لما أراد الموسيو ( بينيه ) أن يطلع على نتائج حذف تاريخ الفلسفة من برامج المدارس الثانوية أرسل سؤالاً الى جميع الاساتذة الذين كانوا يدرسونه عن رأيهم في الحذف المذكور ، إلا أن الأجوبة التي أخذها عن ذلك كانت متناقضة ، إذ عدَّ بعض الاساتذة حسناً ما عده البعض الآخر مضرراً ، ثم سأل الموسيو ( بينيه ) مستتجاً : « كيف يستحسن أستاذ اصلاً يحقته زميله ؟ فياله من أمر مفيد أثبت للأساتذة أن آراء البشر تكون نسبية حتى آراء اصحاب الكفاءة من الرجال ! »

وقد حدث مثل التناقض المذكور في جميع المواضع وفي كل زمان ، ومع ذلك فإن الانسان مضطر الى اختيار أحد الآراء كي يسير في الحياة ، فكيف يقع هذا الاختيار ؟ اكتشف الناس حتى الآن طريقتين فقط : إما قبول رأى الأكثرية وإما قبول رأى رجل واحد نُصِبَ ملكاً ، ومن هاتين الطريقتين تشتق جميع النظم السياسية .

لاشك في أن الرأى اذا دعمته الأكثرية لا يكون لهذا السبب أرقى من الرأى المخالف ، كما أن رأى الفرد الذى أزم الناس به قد لا يكون اسماً من غيره ، وإنما ضرورة السير هى التى توجب اختيار احدى الطريقتين ، فلولا الاختيار لوقع تذبذب في الأمور وبطل السير والحركة .

ورأى الفرد الذى هو على جانب كبير من الفضل والعبقرية يكون على العموم

أرقى من رأى المجموع ، ولكن إذا كان الفرد قليل الفضل فإن آراءه قد تكون كثيرة الخطر ، ومن يتصفح تاريخ ألمانيا وفرنسا منذ خمسين سنة يشاهد أدلة عديدة على فوائد تبنك الطريقتين ومحاذيرهما أى استبداد الفرد واستبداد المجموع .

## الفصل الرابع تقويم الآراء بالتجربة

١ — التجربة في حياة الامم

رأينا في الفصل السابق كيف أن المنطق العقلى فى اكثر المواضيع — ما عدا المسائل العامة — لا يأتى الا بملاحظات مبهمه تلجىء الناس الى اختيار احد الطرفين : اما السير حسب رأى الاكثرية واما السير حسب رأى فرد نُصب ملكاً ، ولكن لما كان الاذعان لرأى لا يكفى لتحويل هذا الرأى الى حقيقة فكيف نكتشف قيمة الرأى الصحيحة ؟

لا يظهر لنا ذلك إلا بالتجربة ، تلك الطريقة البطيئة الغالية التى لا تطبق والحالة هذه على جميع المواضيع ، فهى إزاء المعتقدات الراسخة عاجزة عجز العقل ، وأما فى آراء الجموع كبعض الآراء السياسية مثلاً فأنها لا تلبث أن تؤثر إذا كانت بارزة مكررة إن حياة الأمم اكبر دليل على ضرورة التجارب المكررة البارزة ، فيجب أحياناً تخريب مدن كثيرة وإراقة دماء غزيرة كى تفقه أمة بضع حقائق تجريبية ، وفى الغالب لا تستمر استفادة الأمم من التجارب زمنًا طويلاً ، لأن ضعف ذاكرة المشاعر يؤدى الى عدم انتفاع جيل لاحق بتجارب جيل سابق ، فالقد شاهدت جميع الأمم منذ بدء العالم أن الحكم المطلق يعقب الفوضى ، ومع ذلك فأنها لم تستفد من هذا اللرس الأبدى ، وقد أثبتت الحوادث المكررة أن الاضطهاد هو أحسن وسيلة لانتشار معتقد دينى ، ومع ذلك نرى المظالم تقع بدون انقطاع ، وقد علمت التجربة أن الاذعان إزاء وعيد الغوغاء يبطل عمل الحكومات ، ومع ذلك فإن رجال السياسة لا يزالون

ينسون هذه الحقيقة ، وكذلك التجربة فانها دلت دلالة قاطعة على أن منتجات الحكومة تكلف - لأسباب نفسية صادقة - ثمناً أعلى من ثمن المنتجات الخصوصية ومع هذا يكدر الاحتكار يكون كل يوم في اكراه الحكومة على احتكار صنع مصنوعات جديدة .

ولا تؤثر التجارب الا اذا كانت بارزة كما بينت آنفاً، وهالك مثلاً جديداً مشهوراً على ذلك : لقد أنبا علماء النفس وجميع علماء الاقتصاد وجميع اكابر التجار بأن اشتراء خطوط الأويست ( الغرب ) الحديدية وإدارتها من قبل الدولة يكلف ثمناً غالياً ، ولو كان الأمر متعلقاً بالثمن لما شعر الجمهور بذلك كثيراً ، غير أن إدارة الدولة لهذه الخطوط أوجبت في بضعة أشهر وقوع نكبات هائلة وزهوق نفوس كثيرة مما جعل الناس يدركون عاقبة تلك التجربة الصارمة ولا يجروون على مطالبة الدولة باشتراء خطوط حديدية اخرى .

٢ - صوبة ادراك الدوامل التي هي سبب التجربة .

ولا يستدلن القارىء من كون التجارب البارزة كالتجربة التي أشرنا اليها في المطلب السابق تستطيع أن تحول الآراء أنه يسهل إدراك العوامل التي سببت هذه التجارب ، فوزير الاشغال العامة لم يكتشف العلل الخفية لتلك النكبات التي دلت على وجود فوضى بارزة في ادارة الخطوط الحديدية المذكورة ولما اعترف بأن مصدر النكبات هو ما يقع بين القطارات من الاصطدام وان سبب الاصطدام هو خلل النظام ظن أنه قادر على اصلاح الخلل بعزل المدير ولم يتوسل المدير الجديد الى تقليل النكبات بسوى نقص عدد القطارات وتحديد سرعتها .

وماذا يستطيع المدير أن يصنع إزاء معلولات نشأت عن علل لا تأثير له فيها ؟ انه يعجز عن منح إدارة الدولة مالا تملكه من قابلية صناعية وعن ايجاد نظام وهمة واحترام للأوامر في موظفين يسوقهم زعماء حراس محرضون .

جاء في جريدة الطان ما يأتي : « كيف نجد مستخدمين صادقين في ادارة خطوط حديدية لم يقترح نواب المديرات على ابتياعها الا ليعينوا فيها من هم تحت

رعايتهم؟ وكيف نأمل أن نرى في هؤلاء الموظفين خضوعاً تاماً والحكومة تنظر الى جميع مساوئهم بعين الاغضاء حاسبة حساب كثير من النواب المشاغبين؟ ثم قالت تلك الجريدة مستنتجة: ننتظر من الدولة التي تحب في ادارة خطوطها الحديدية خبط عشواء أن تسلك محجة الصواب فتترك الشركات حرة في ادارة خطوطها غير مُؤزِمة إياها اموراً ممقوتة شاهدت هي بنفسها ماذا تجر هذه الامور وراءها من النتائج المضرة.» ولكن هذا الأمل لاغ، فاللدولة—أى النواب المسيرون للدولة— ما فتئت تجور علي الشركات وتحملها ما لا تطيق وتحت على عدم النظام وعلى زيادة مطالب موظفيها غير أن مقادير الأمور التي هي فوق الخطب أنت بدرس تجريبي جديد لا ريب في أنه سيصبح مفهوماً: فقد ذكرت منذ بضع سنين في مقالة نشرتها في احدى المجلات أن من نتائج مداخلة الحكومة الجائر في أمور الشركات هو هبوط قيم اسهم هذه الشركات أى نزول أثمان عنصر ثابت من عناصر ثروة البلاد العامة، وما لبث هذا التنبؤ أن تحقق بسرعة، إذ إنه أصاب أكثر الأسهم سقوط عظيم حتى أنه بلغ ١٧ في المئة في شركة (ليون)، فبعد أن كان سعر سهم هذه الشركة في المصفق ١٣٨٥ فرنكا في شهر شباط سنة ١٩٠٩ صار ١١٥٠ فرنكا في شهر شباط سنة ١٩١١، ولكي يكون هذا الدرس التجريبي ذا تأثير مفيد يجب أن يستمر الهبوط أكثر من ذى قبل.

وتؤدى العلل الواحدة الى نتائج واحدة، ولذلك لا نعجب من مصادفتنا في اسطولنا الحربي فوضى كالتى في خطوط الدولة الحديدية، واليك تقرير مقرر ميزانية البحرية الذى نتخذه دليلاً كافياً على صحة قولنا:

« ولقد أنفقت المانيا منذ سنة ١٨٩١ حتى سنة ١٩٠٦ على بحريتها ٢٥٠٨ ملايين و أنفقت فرنسا ٣٨٠٩ ملايين، ومع أن الفرق ١٣٠٠ مليون فان المانيا استطاعت أن تبني لها أسطولاً أقوى من أسطول فرنسا. فهذه الارقام تكفى لانتقاد إدارتنا، ولا يزال الرأى العام غير مبال بذلك، فيجب لتحريكه واثارة مجلس النواب وقوع كوارث هائلة وحدوث نكبات عظيمة وسفك دماء كثيرة لا إلقاء خطب وتلاوة بيانات. ها إن المدرعتين (فارفاده) و (لوتان) تغرقان بعد غرق المدرعات (سوالى)

و ( شانزى ) و ( نيث ) و ( فينا ) ، وهامى المدافع تنفجر فى المدرعة ( الكورون ) والجنود تُبثّر ، ثم هامى المدرعة ( ينا ) تفور كالبركان ، فبعد هذه النازلة الاخيرة لا يجوز اتهام المصادفة والاتفاق ، وانما يتحتم علينا أن نبحث فى الامر بحثاً عميقاً .

« فقد علم الرأى العام وهو حائر مشدوه الى الغاية أن بحريتنا تحتاج - على رغم مئات الملايين الكثيرة التى أنفقت فى سبيلها - لا الى مراكز حربية قوية فقط بل الى مدافع وعدد وميرة ومعامل للاصلاح أيضاً ، ولم يكن النقد هو الذى يعوزنا ، فعندنا منه ما يكفى لجعلنا أقوى من ألمانيا ، ثم قال المقرر إن هذه الحقائق ثقيلة مفاجئة »

حقاً إنها ثقيلة مفاجئة ، ومن دواعى الأسف أنه ليس عندنا ما يجعلنا نأمل أن تزول أسباب تلك النتائج الكثيرة ، ونعد من هذه الأسباب : اختلال النظام الزائد بين عمال دور الصناعة الحادث بفعل كثير من المحرضات اليومية ، وانحلال مصالح الدولة بتأثير ما بين الموظفين - الذين يحسدون بعضهم بعضاً - من مناظرة ومزاحمة ، والاشتراكيون الذين يرغبون الحكومة أن تصنع بنفسها ما تصنعه ألمانيا فى مصانع الأفراد الخصوصية .

ظهرت نتائج التجارب فى المسائل المذكورة بسرعة ، ولكن قد لا تظهر هذه النتائج الا ببطء ، فالقضاء على الاسطول الروسى بغتة من قبل المدرعات اليابانية وعجز نسافات الروس عن أن تحول دون ذلك كانا ضروريين لندرك خطأنا العظيم فى عدولنا منذ بضع سنين عن إنشاء مدرعات كى نصنع مكانها بارجات صغيرة ونسافات ثبت الآن أنها غير مفيدة ، وهكذا أضعنا مئات من الملايين وظلت بلادنا عاطلة من وسائل الدفاع حتى أثبتت التجربة خطلنا فعزمتنا على بناء أسطول جديد

وإذا كانت التجربة فى الغالب ضرورية لتحقيق قيمة الآراء فذلك لأن أكثر الآراء تتكون من دون أن تبالى بغير ظواهر الأمور ، وفى المسئلة التى استشهدنا بها دل الرأى المستند الى بعض الظواهر على أن النسافات الرخيصة تدمر المدرعات الغالية بسهولة ولذلك رؤى أن من العقل والصواب ترك هذه وإنشاء تلك

ولا تبدو النتائج البعيدة للتدابير القائمة على ظواهر المعقولات الا لذوى البصائر الثاقبة الذين لا يكونون فى الغالب من القابضين على زمام الأمور ، فقد بينت فى كتابى

تسمى « روح السياسة » ضرر كثير من القوانين التي كان يظهر أن العقل هو الذي أملاها ، وسرعان ما أثبتت التجربة أن تأثير أكثر هذه القوانين الجائرة منافع حتى لمنفع الذين وضعت لحمايتهم .

ونورد الحادث الآتي الذي وقع حديثاً في مدينة ( ديجون ) مثلاً على تلك النتائج : لما أوجبت إحدى المصادفات الضالة انتخاب بلدية اشتراكية لتدير أمور هذه المدينة تصور أعضاء البلدية المذكورة أن يساعدوا العمال على أن يجعلوا مكان مكوس الدخولية ضرائب ترهق الاغنياء وفعلاً أجروا ذلك ، ولكن الأمر لم يلبث أن انقلب الى ضده ، لأن معيشة العمال بدلاً من أن تصبح رخيصة صارت أغلى منها في الماضي كثيراً ، وهكذا علمت التجربة الاشتراكيين أن سنن الاقتصاد التي يُستخف بها عند عدم إدراكها لا تسمح بفرض أية ضريبة على طبقة واحدة دون غيرها ، فإذا فرضت هذه الضريبة فانها توزع في الحال - ولكن على وجه غير مباشر - على الطبقات الباقية أيضاً لا على التي فرضت عليها وحدها .

دروس التجربة تكون في الغالب بارزة ، فلماذا يعجز كثير من رجال السياسة الذين هم على شيء من الذكاء عن فهمها ؟ أجيب عن ذلك قائلاً - كما بينت في الفصول السابقة - إن التجربة لا تؤثر في المعتقدات على وجه التقريب ، ولما كانت مبادئ زعماء الاحزاب المتطرفة من فصيلة المعتقدات لامن فصيلة الآراء فانها تستند الى دعائم عاطفية دينية لا يقدرّون على مقاومتها .

وليس للعقل الذي يستشهد به المشتغلون بالسياسة تأثير في هؤلاء كما أنه لا تأثير له في أنصار أي إيمان ؛ فالحقائق العاطفية أو الدينية هي التي تقودهم جميعاً ، فهم وإن كانوا ذوي سلطان على خطبهم فانهم لا سيطرة لهم على المحرضات الخفية التي تملي عليهم تلك الخطب .

وبعد ان اطلعنا على تكوين الآراء - التي ليس فيها من المعقول سوى الظواهر - تكويناً خفياً فاننا لا نحقق على عدم فطنة من أبدوها ، فالحقائق التي لا يدركها غير من لا دليل لهم الا المنطق العقلي تظل خافية على من لا دليل لهم غير المعتقد

# الباب السادس

## آراء الجموع ومعتقداتها

### الفصل الأول

تكوين الآراء بتأثير الجموع  
« العرق ، البيئة ، العادة ، الزمر الاجتماعية »

١ — تأثير العرق في المعتقدات

الجموع لها شأن كبير في تكوين كثير من الآراء وهي الناظمة لها ، وليس عند أكتيرة البشر الساحقة سوى آراء الجموع ، حتى أن أغلب الناس استقلالاً لهم ما لزمهم الاجتماعية من آراء ، وقد بينا ذلك سابقاً ، وسيظهر الآن على شكل أوضح عند ما نبحت عن المؤثرات الاجتماعية في تكوين آرائنا ومعتقداتنا ، وهذه المؤثرات هي : العرق والبيئة والعادة والزمرة .

فلنباشر في البحث عن تأثير العرق : دلت التجربة والاختبار على أن للأمم ذات الماضي الطويل آراء ومعتقدات واحدة في بعض المواضيع الأساسية ، وتظهر هذه الوحدة بعد تكوين روحها القومية ، ولاختلاف هذه الروح باختلاف الأمم فإن الحوادث الواحدة توجب في الأمم المختلفة انعكاسات متباينة .

ليس اليوم ما يسمونه العروق الخالصة موجوداً بالمعنى العلمى الصحيح ، وإنما لما خضعت أمم تنتسب الى جنس واحد او الى اجناس كثيرة متقاربة قرونًا طويلة لمعتقدات واحدة وانظمة واحدة وقوانين واحدة ولغة واحدة تكون منها عرق تاريخى كما فصلت ذلك فى كتاب آخر ، حينئذ صار لهذا العرق فى كثير من المواضيع



سياسية كانت أم أخلاقية أم دينية افكار ومشاعر مشتركة اصبحت راسخة في النفوس بحيث يسلم بها جميع ابنائه غير مجادلين .

إذا ليست روح الشعب عبارة عن تصور نظري بل هي حقيقة ذات حياة تكونت من تقاليد وأفكار وأساطير وخيالات . تكاثفة في النفس تكاثفا ارثياً ، وحسب متانة هذه الروح تكون قوة الشعب .

وإذا كان اتحاد الناس ناشئاً عن فتوحات قسرية فإنه يتكون منهم مجموع موقت سريع الانحلال ماداموا عاطلين من روح قومية ، واذ لم ينالوها يظلون برابرة ، لأن القضاء على مقومات الماضي النفسية يؤدي حتماً الى وقوع الشعب في طور الهمجية ويكون اختلاف الآراء عند الأمة ذات الروح القومية المتينة في المواضيع التي لا أهمية لها ، واما في الأمور الكبيرة فإنه يحدث عندها اجماع في الرأي ، وقد أتى الانكليز بمثال بارز على ذلك في حرب الترنسفال ، فإنه عندما توالى انكسار الجيوش البريطانية امام فلاحى البوير سنحت لجرائد الحزب المعارض فرصة مهاجمة الوزارة ، ولكن ذلك لم يخطر على قلب كاتب ، ولو خطر على باله لردعته روحه القومية عنه . ولا تتجلى الروح القومية الا في ما يتعلق بالمنافع العامة العظيمة ، وهذه الروح لا تمتنع الأفراد من ان يكونوا ذوى آراء شخصية ذات ثبات كما أن صفات النوع في التاريخ الطبيعي لا تمتنع ذلك النوع من اتصافه بصفات الجنس الذى يشتق منه .

قد لاحظنا آنفاً أن تكوين الروح المشتركة لا يتم الا في الأمم التي لا يختلف بعضها عن بعض الا قليلاً ، فاذا كانت على اختلاف كبير فإنها لا تلتحم ، لأن أفرادها لما كانوا مختلفين روحاً فإن تأثير الأشياء الخارجية فيهم يكون متبايناً ، وهذا ما يمنعهم من أن يكونوا ذوى آراء مشتركة في أى موضوع ، فحال التشك والمجر في النمسا والاييرلنديين في انكلترا يؤيد صحة هذا الناموس .

توالد الشعوب الكثيرة الاختلاف يغير المؤثرات الارثية ، ولكن الأفراد يفقدون بهذا التوالد كل ثبات نفسى ، ولذلك يتعذر حكم الأمة المولدة ، يثبت هذا ماهو واقع في جمهوريات اميركا اللاتينية من الفوضى .

ويرسخ ميراث الماضي كلما شاخت الأمة ، وما كان سر قوة الأمة يصبح بفعل الزمان سبب ضعفها ، وكما صعب الثماتها مع أى مبتكر حديث أصبحت أفكارها وآراؤها أكثر تقيداً منها فى السابق .

ويقع كل يوم تصادم بين الشعور الذى يهيمن عليه العقل وبين المحرضات الارثية التى لا تأثير للعقل فيها ، وما تأتى به الأمم من ثورات عنيفة لتتخلص بها من نير الماضي الثقيل فذو تأثير غير دائم ، لأن الثورات وإن أمكنها أن تهدم الأشياء وتخرّبها فإنها لا تبدل النفوس الا قليلاً ، وعلى هذا نرى أن آراء فرنسا القديمة ومعتقداتها ذات تأثير عظيم فى فرنسا الحديثة ، وما وقع فيها من تغيير فى الظواهر فقط .

## ٢ — تأثير البيئة فى الزمر الاجتماعية

تؤثر البيئة الاجتماعية فى آرائنا وسيرنا تأثيراً شديداً ، فهى تولد فىنا أدلة غير شعورية تقودنا من حيث لا ندرى ، ويتألف من كتب أحد الأدوار وجرائده ومناقشاته وحوادثه وسط هو مع خفائه يعين وجهة سيرنا ، وفى هذا الوسط بذور لمبادئ ، فنية أو أدبية أو علمية أو فلسفية يكسوها اولو العبقرية أحيانا شكلاً ساطعاً زاهراً .

وما فى البيئة من آراء متين ، حتى أن الرجل الذى يغير بيئته يضطر الى الازعان لآراء بيئته الجديدة ، ولهذا السبب يسهل على اشتراكي فوضوى أن يصبح محافظاً عند ما يقبض على ناصية الحكم ، فكلّ يعلم كيف استطاع نابليون أن يحول بسهولة غيلان العهد الذين لم يتسع لهم المجال ليمتادوا فى قصل الرقاب الى دوكلات وحجّاب وبارونات .

تأثير البيئة الاجتماعية عامٌ ، وأما الزمرة التى تنتسب اليها فهى التى تؤثر تأثيراً خاصاً ، وما فى المرء من معتقدات أو آراء شخصية مصدرها اختباراتهِ وتأملاتهِ فقليل الى الغاية ، فأكثر الناس لهم رأى زمرةً أى طائفتهم أو طبقتهم وأهل مذهبهم أو حزبهم أو أرباب مهنتهم .

إذاً فكل طبقة من طبقات الشعب - عملاً كانوا أم قضاة أم ساسة - آراء خاصة ، وهذه الآراء هي مقياس لما يأتي به أفراد تلك الطبقة من الأحكام ، فالأمور في نظر هؤلاء الأفراد تكون صواباً أو خطأً حسبما تكون ملائمة أو غير ملائمة لآراء الزمرة التي ينتمون إليها ، وإذا قبل أحدُ رأى زمرة فيالجدال ، وإن لم يقبله لا يستطيع أن يعيش فيها .

ويؤدى التطور الحديث نحو الاشتراكية والنقابية الى زيادة عدد الزمر ولا سيما التي تدير بها الدولة احتكاراتها ، وما بين هذه الزمر من تحاسد فذو جفوة ، ولتلك الجفوة لا يبدو من الزمر المذكورة سوى العداوة والإهانة ، ولما لم تكن ذات تضامن يربط بعضها ببعض فإن انحلال مصالح الحكومة يزيد يوماً فيوماً ، وهذا هو أحد الأسباب العميقة العويصة في تفهقر احتكارات الحكومة ، وقد ذكرت ذلك في كتاب سابق فأثبت أن في احتكار الدولة لأى مشروع بلية على مآليتها .

وتباين الآراء بين زمر الموظفين التي هي بالحقيقة سيدة البلاد لحفائهما يبدو للجمهور قليلاً ، وأما آراء زمر العمال فهي بالعكس ذات ضجيج يجعلها ظاهرة منظورة ، وقد أخذت احقادها على الطبقات الأخرى تصبح عاملاً قوياً في التطور السياسى الحديث .

وتتصور زمر العمال بتلقين زعمائها أنها وحدها هي التي أوجدت الثروة منكورة شأن رأس المال والذكاء ، وقد أصبحت أممية قانلة بمبدإ نزع السلاح ، فعند العمالُ لذلك زمر الحرف وطنهم الحقيقى غير ناظرين الى الأمم الموجودة فيها تلك الزمر .

٣ — تأثير العادة .

تشتق قوة المجتمعات والأفراد من العادة ، فالعادة تُغنى عن التأمل في أى حال يبدو لينظر فيه ، والبيئة والعدوى والتربية تُثبِت العادة في الانسان والقوانين تؤيدها ، ولا تكون القوانين قوة إلا إذا دعمت عادةً . وجوداً قبل سنها .

وإذ قد بحثت عن العادة آنفاً فأنى اكتفى الآن بالعبارة السابقة ، وسندرس في الفصل الآتى صفات آراء الجموع وقيمتها وتأثيرها .

## الفصل الثانی

### تأثیر آراء الجموع ونتائجها .

١ — صفات الآراء الشعبية .

شأن الجموع الزائد في الحياة السياسية يجعل البحث عن الآراء الشعبية ذات أهمية، ولما فسرتمها كتيبة من المحامين والاساتذة الذين حرفوها واخفوا تقلباتها وعدم اتساقها وسداجتها ظلت معروفة قليلاً، وقد بلغ تلقيم للشعب ذي السيادة مبلغ التذلل لأشد الملوك استبداداً في الماضي، ولا يزالون معجبين بحرصه الدنيء وشهواته ذات الجلبسة والضجيج ورغائبه الخرقاء، ولا قيمة للحوادث والحقائق عندهم، فهم يرون أنه يجب على الطبيعة أن تخضع لأهواء العدد .

وتتصف الروح الشعبية التي بحثت عنها في مؤلفات أخرى بكونها تخضع للمبادئ العاطفية والمبادئ الدينية خضوعاً تاماً، وما فيها من اندفاعات مصدرها المشاعر والدين فلا يزجره أى دليل عقلى، ولذلك فإنها تسير حسب هذه الاندفاعات غير مترددة .

جهة الدين في روح الجماعات أشد نمواً من جهة العاطفة، وهذا هو علة احتياجها الشديد الى عبادة معبود رباً كان أم صنماً أم وجيهاً أم مذهباً، والاحتياج المذكور يتدفق اليوم نحو الاشتراكية التي هي دين جديد قادر على تجديد البشر! وقد شوهد التدين الشعبي في جميع الأجيال، واذا لم يتجل في المعتقدات اللاهوتية فإنه يستولى على المبادئ السياسية، فكل صفحة من صفحات تاريخ الثورة الفرنسية تدعم قولنا .

أعود فأقول إن عجز العقل عن التأثير في الجموع هو أهم صفاتها، فالافكار التي تؤثر فيها هي المشاعر التي صُبت في قالب أفكار لا الافكار العقلية، ومع أنه يجب أن تكون هذه الحقائق معروفة عند الجميع فان ساسة العرق اللاتيني يثبتون بسيرهم أنهم لا يزالون غير مدركين لها، وسيظلون في الفوضى حتى يطلعوا عليها .

٢ - كيف يبقى شيء من الثبات في الشعب على رغم تقلب آرائه

نصادف في الآراء الشعبية صفتين متباينتين : الثبات والتقلب ، فالتقلب يظهر أنه هو القاعدة ، إلا أنه ينطوي تحت هذا الثبات عناصر هي غاية في الثبات ، كما أنه يوجد تحت أمواج البحر المحيط السطحية مياه البحر الساكنة ، ويتجلى لنا جميع ذلك عند النظر الى ما طرأ علينا من الثقل منذ عصر .

حقاً يوجد خلف ثقل الجموع الدائم وغيظها الشديد وحاستها وغيظها العظيم وأحقادها التي أوجبت انقلابات عديدة غرائز محافظة متينة ثابتة ، فقد ظلت أشد الجموع اللاتينية ثورة شديدة المحافظة كثيرة التمسك بالتقاليد ، ولذلك لم تلبث أن أعادت النظم التي حطمتها باسماء جديدة .

ولم يفقه زعماء الجماعات أنها وإن كانت تأتي بالثورة فعلاً إلا أنها محافظة بمشاعرها ، فقد يسهل تحريك روحها بأراء سياسية يومية ، وأما مزاجها النفسى الأساسى فالزمان وحده هو الذى يؤثر فيه .

والعمل الآتى الذى قامت به الحكومة الانكليزية حديثاً يثبت لنا جهل الساسة للروح الشعبية وما ينطوي تحت ثباتها من ثبات وهو : لما تم انتخاب مجلس نواب جديد فى انكلترا لم يمنح الحكومة اكثرية كافية لاصلاح مجلس اللوردات ظنت أنها بخوضها معركة انتخابية حامية الوطيس تقدر على جعل الجموع الانكليزية تنتخب نواباً موالين يكفون لتنفيذ برنامجها ، ولكن على رغم ما أتت به من ضعف عنيف لم ينتخب الشعب سوى أعضاء المجلس السابق ، إذ إن الاكثرية التى كانت تستند اليها الحكومة قبل الحل بعد أن كانت ١٢٤ نائباً أصبحت ١٢٦ نائباً ، أى إن ما أتت به الحكومة من مجهود كبير لم يؤد إلا إلى زيادة عضوين موالين . وما كان الوزراء بحاجة الى وقوف كبير على علم النفس كي يعاينوا تلك النتيجة قبل وقوعها ، وكيف ظنوا أنهم - بعد أن استعملوا فى المرة الأولى جميع ما بأيديهم من وسائل لبثوا فى روح الشعب - يستطيعون فى بضعة أشهر أن ينالوا غير النتيجة السابقة ؟ أتاهم ذلك الظن من اطلاعهم على سرعة الثقل فى الجموع ناسين أن الثبات هو رائدها فى عدد من المواضيع الجوهرية ، ومن هذه المواضيع المبدأ الذى اتخذ

أساساً المعركة الانتخابية الثانية والذي يلائم مناخ الانكياز التقليدية التي يتعذر تجويزها .

وتصعب إدارة الروح الشعبية من غير أن يُنمذ فيها ، وقد أثبت مرات عديدة كيف يجبل اولو الأمر كمنها ، فقد أتى قانون تقاعد العمال الجديد ليؤيد صحة أقوالنا دفعة أخرى ، وجهل هؤلاء الساسة لروح الأمم الأخرى أشد وأنكى ، يدل على ذلك سياسة الإيدغام والتمثيل التي يسرون عليها في حكم مستعمراتنا .

٣ — قوة الآراء الشعبية قبل الجيل الحديث .

لم ينحصر تأثير الآراء الشعبية في الوقت الحاضر وحده بل أجرى حكمه العظيم في أدوار التاريخ المختلفة ، والسبب في كوننا لم نطلع على ذلك هو أن تاريخ الأمم لم يبحث إلا عن الملوك ، فكأن ما حدث في أيام دولتهم من وقائع وأعمال قد تم بمشيئتهم ، ومع أن الكتب أغفلت أمر البحث في تأثير الآراء الشعبية فان شأن هذه الآراء كان عظيماً في جميع الأزمنة ، ومتى يأخذ التاريخ في درس هذه الشعوب بعد أن يفرغ من الاهتمام بأمر الملوك يظهر لنا أن الجموع هي التي أوجبت بالحقيقة وقوع الحوادث الخالدة كالحروب الصليبية والحروب الدينية وملحمة سان بارتلمى والغناء مرسوم نانت وإعادة الملكية وتوطيد حكم نابليون الخ . فلولا الآراء الشعبية لما استطاع ملك أن يأمر بوقوع مذبحه سان بارتلمى ولما قدر لويس الرابع عشر صاحب السلطان المطلق على الغاء مرسوم نانت

ومن غير أن أخوض غمار التفصيل في الموضوع اكتفى بأن اشير الى أن لويس الرابع عشر لم يفعل تلك الفعلة إلا بتأثير الرأي العام ، قال فاغيه : « لاشيء يدل على الشعبية مثل الغاء مرسوم نانت ، فهو تدبير أملته السيادة القومية ، وهو عمل جارت به الاكثرية على الأقلية ، وهو اسلوب ديموقراطي من كل وجه »

إن اكثر الحوادث التي سعى الجموع في وقوعها هي أشد حوادث التاريخ شوْماً ، ومن حسن الحظ أن البلايا الصادرة عنها قليلة والفضل في ذلك لصفوة الرجال الذين ضعف نفوذهم الآن ولكنه كان قبلاً قادراً في الغالب على تحديد تقلبات العدد وهيجانه

٤ — زيادة تأخير الجموع الحاضرة في تكوين الآراء ونتائج ذلك .

لما كان تأثير سلطان الجموع الزائد أحد العوامل التي لا مناص منها في الحياة الحديثة فإنه يقتضى أن نعرف كيف نعمانيه ، وقد سلم ( باسكال ) بذلك حيث قال : « لماذا تتبع الاكثرية ؟ ألا لأنها اكثر عقلاً ؟ لا ، بل لأنها أعظم قوة » .  
وبناء على ما في العدد من قوة أوعلى ما أعطى قادة العدد من سطوة تعتقد الجماعة التي هي العدد قادرة على فعل كل شيء ، وبذلك زاد عدد مصانعيها حتى أصبح الوزراء والمشرعون عبيداً لها ، وما أضعف رجال السياسة امام صخب الجموع وهزيزها ، فأكثروا اعتدالاً يذعنون لها وفرائصهم ترتعد فرقاً ، ولا يتأخرون — كما لوحظ في بريست — عن التوقيع على بيان لترويج مرشح للبرلمان مجرد عن الوطنية اذا أمرتهم بذلك لجان الانتخاب الساقطة .

على أن تلك العبودية هي الناموس السائد لجميع الأجيال ، فحتى طمع شعب في الحرية أو تهقر الى الاستعباد فإنه يجد أساتذة ومحامين يبررون اندفاعاته تبريراً عقلياً مهما تكن هذه الاندفاعات خطرة ذات أهوال ، واليوم آراء الجموع هي التي تملى على المشرعين أمر سن القوانين ، وبما أن الاهواء الموقته لا الضرورة هي مصدر القوانين المذكورة فان عاقبتها القضاء على الحياة الصناعية والاجتماعية والاقتصادية في البلاد ، وأما اولو الأمر الإداريون فانهم يقتصرون على اتباع تقلبات الرأي لشعورهم بالمعجز عن تكييفه فيزيدون ضعفاً على إباله .

يشاهد وقوع ذلك كل يوم ، ومن الأمثلة المحزنة في هذا الباب هو اعتصاب الملاحين الأخير الذي كاد يقضى على تجارة بلاد الجزائر ، فنذ إعلان الاعتصاب المذكور أصبحت الجزائر في حالة حصار بحرى ، وهكذا قُطعت المواصلات بين الجزائر والافطار الأخرى ثلاثة أشهر سنة ١٩٠٤ وشهراً واحداً سنة ١٩٠٧ وشهرين سنة ١٩٠٩ وقد كان يكفي لمعالجة ذلك الحصار أن تعدل الدولة مؤقتاً عن نظام احتكار الملاحة الفرنسية لبلاد الجزائر وأن تسمح للمراكب الأجنبية بأن تكون صلة اتجار بين الجزائر وفرنسا لأجل معين ، غير أن ميل النواب الى مداراة النواتى ذوى الحق في الانتخابات النيابية أوجب عدم اكترائهم لخسارة الجزائر التي تقدر بملايين كثيرة .

فازاء تلك الطاعة العمياء لأوامر الجموع أصبحت هذه الجموع أكثر تجبراً من ذى قبل ، وبما أن الروادع التي كانت تزجرها قد تحطمت على هذا الشكل فانها ترغم النواب على سن قوانين لا تلائم قاعدة العدل والانصاف ، ويقتضى الاتيان بشيء من التفصيل لاثبات الكيفية التي تتدرج بها الزواجر الاجتماعية الى الانقسام بعدما كانت في الماضي تسكن أهواء الجماعات واندفاعاتها .

تشتق روح التمرد في الجموع من المبدأ القائل إن الوعيد والتخريب يكفيان لجعل أصحاب الأمر والنهي يخضعون لها ، والحوادث التي تدل على انتحاء تلك الروح كثيرة الى الغاية ، فهذه الحوادث تثبت ما طرأ على المزاج النفسى من تبدل أدى إلى زعرته مبادئ الحقوق التي كانت تعتبر حصينة منيعة الجانب ، وإني اکتفى على سبيل المثال بذكر قانون كان يظهر عند سنه - أيام اعتصاب موظفي الخطوط الحديدية - أنه متين ذو مقصد انساني إلا أنه اوجب في نهاية الأمر شللاً مؤقتاً في حياة الأمة .

كانت الشركات تؤدي الى مستخدميها رواتب تقاعد أعظم مما يناله موظفو الدولة ، فاذا اعتبرنا الأرقام التي ذكرت في مجلس النواب نرى أن راتب تقاعد مديري المحطات كان ٣٥٠٠ فرنك مع أن الحد الأعظم لرواتب تقاعد المعدنين ٣٦٠ فرنكاً ولرواتب معلمى المدارس الابتدائية ١١٠٠ فرنك ولرواتب اساتذة المدارس الثانوية ١٣٨٥ فرنكاً ، ثم قال الخطيب الذى أورد هذه الأرقام ان راتب تقاعد مستخدمي الخطوط الحديدية ليس مما يجب زيادته .

ولكن لما كان مستخدمو الخطوط الحديدية ذوى شأن في الانتخابات وتذرعوا بأنواع التهديد على صفحات الجرائد ظن ممثلو الشعب في البرلمان أنه يسهل تنفيذ مطالبهم ، فاقترعوا على زيادة رواتب تقاعدهم من دخل مساهمي الشركة ، وقلما يجرؤ مستبد على اتخاذ هذه الطريقة قائلاً للمساهمين : يحسن بي أن اخفض دخلكم القليل لأزيد رواتب طبقة من المستخدمين أنا في احتياج اليهم ، فأطيعوني وأدوا ما أفرضه عليكم .

ان الخطوط الحديدية هي عبارة عن مشاريع خاصة قامت على عقود لا يقدر



على تقضها غير العاقدين ، ومع أنه كان يقتضى أن يتأمل فى هذه الحقيقة مشترعون ، لم تعميم النظرية القائلة ان الدولة التى تمثل الجموع قادرة على فعل كل شئ ، لم يظهر فى مجلس الشيوخ سوى الموسيو ( ريمون بوانكاره ) لبيان ما ينتج عن مداخلة البرلمان التى ترمى الى سلب طبقة من طبقات الأمة فى سبيل طبقة أخرى من نتائج سيئة ، وما كان هذا السياسى الفاضل واثقاً كثيراً بصحة كلامه ، فبعد أن بين محاذير لأئحة الحكومة الخطرة كان من أول المقترعين لها ، وبذلك أعان على اختراق حرمة مبادئ الحقوق الجوهرية .

وقد رأى موظفو الخطوط الحديدية فى نجاح وعيدهم ما شجعهم على المطالبة بزيادة رواتبهم زيادة عظيمة ، فأزمت الشركات على المقاومة فنشأ عن ذلك أن أتى أولئك الموظفون باعتصاب أخل بجميع خطوطنا الحديدية .

ولم يكن ذلك كله سوى فائحة أمور أخرى ، اذ إن العمال ذوى الرواتب المؤلفنة من مئتى أو ثلاثمئة فرنك لم يرضوا طبعاً بهذه الرواتب بعد أن رأوا زملاءهم الموظفين فى الخطوط الحديدية سينالون بالعنف رواتب تقاعد مقدارها ألفاً أو ثلاثة آلاف فرنك ، وعلى ذلك أخذ معبدو الطرق وعمال دور الصناعة والمعدنون ولفافو التبغ يكثرون من رغباتهم التى طلبوا فيها زيادة رواتب تقاعدهم زيادة نسبية ، ولكن ما العمل وقد أعمت المذافع الانتخابية أبصار النواب عن إدراك ما ستلده الأيام من أمور مخيفة .

وبالعصيان الجديد الذى وقع فى مدن احدى المديریات وحدث به نهب وحرائق تجلّت زيادة عنف الجموع عندهم لا تطاع فى الحال ، والذى يجعل الجموع تتماهى فى سيرها هو ندالة المشترعين الذين يؤيدونها فى جميع ما تأمرهم به ، وقد غفل المشترعون عن حدود الممكنات والحقائق فظنوا أنهم يسرون بنا الى الرقى والحرية ، ولو فكروا فى الأمر قليلاً لرأوا أنهم يقودوننا الى الاستعباد والانحطاط وما ينشأ عنهما من الاستبداد .

٥ - تأثير الجموع في ثبات بعض العناصر الاجتماعية

ان ما تؤدى اليه الجموع من التخريب لم يكن سوى صفحة من صفحات تأثيرها لأنه يوجد خلف تقلبها الظاهر روح تقليدية ثابتة يصعب تقويضها ، وبفضل هذه الروح تعود الجموع الى حلها الماضية ، وما في الروح الشعبية من المحافظة يشاهد على الخصوص في الزمر الاجتماعية الآتية وهي : الطبقات والمؤتمرات وطوائف العمال والنقابات والمجامع العلمية الخ .

وفي الغالب يكون عمل هذه الزمر المتجانسة خلاف عمل الجموع المتباينة التي بحثنا عنها آنفا ، إذ لما كانت الزمر المذكورة غير مبدعة ولا مخربة فانها تعمل في توطيد آراء جديدة تأتي بها صفوة الناس أى في اثبات بعض عناصر الحضارة المهمة وهي اللغات والفنون والأزياء والمعتقدات حتى النظريات العلمية

إن عمل الفرد على جانب عظيم من الأهمية ، ومع ذلك لا تزهر مبتكرات العبقرية التي هي أمر فردي الا بعد أن تصبح جامعة ، فاذا كانت مباحث الفرد هي أساس الحضارة والرقى فان أمرها لا يتم الا بعد أن تستمرتها روح الجموع .

### الفصل الثالث

#### فناء روح الفرد في روح الزمرة

١ - انحلال الجموع الكبيرة وتحولها الى زمر صغيرة في الوقت الحاضر

بعد أن تخلصت روح الفرد بالتدرج من سلطان الجمع أخذت في الزمن الحاضر تميل الى الرجوع الى ما كانت عليه حسب شكل غير منتظر لا على الشكل الذي يتخيله بعض رجال السياسة النظريين القائل بمساواة الناس في المعاش والأموال تحت ظل الحكومة ، إذ ينمو بجانب نظريات الاشتراكيين زمر صغيرة يختلف بعضها عن بعض رأياً ومنفعة ، ويسمى انحلال المجتمع وتحوله الى تلك الزمر التي لا رابطة بينها « الحركة النقاية »

فالتباينة بدلاً من أن تكون كالاتراكية من أعمال النظر بين البعيدين من حقائق الأمور فإنها بنت مقتضيات الاقتصاد المهيمنة ، يدل على ذلك شيوعها بأشكال مختلفة بين كثير من الأمم المتباينة بمزاجها النفسى ، والفرق بين تلك الاشكال هو أن التباينة تكون فى بعض البلدان ثورية وفى البعض الآخر سلمية

وينشأ عن تطور الصناعة الذى أوجب تلك الحركة انقسام أوطان الوقت الحاضر الكبيرة الى أوطان صغيرة لا تحترم سوى قوانينها الخاصة مستخفة بقوانين المجتمع العام الذى يضمها ، وما بين هذه الزمر الصغيرة المختلفة من اتحاد موقت فإنه ينجح فى الغالب قوة كافية لتنفيذ رغباتها

وتسهل مشاهدة نتائج تلك القوة ، ولكن ليس من الهين تحقيق كون اتحاد الزمر المذكورة لا يبقى زمنًا طويلاً ، فتمت ينحل المجتمع القديم انحلالاً تاماً ويتحول الى زمر صغيرة فان ما بين منافع هذه الزمر من تباين يقودها حتماً الى تنازع مستمر ، ذلك لأن كل زمرة متجانسة ذات منافع وآراء واحدة ترى حينئذ أنها مضطرة الى الاصطدام مع زمر أخرى تباينها منفعة ورأيًا .

ويمكننا أن نستدل منذ الآن على ما بين المنافع المتباينة من التصادم المزمع ان يقع من تاريخ الجمهوريات الايطالية القديمة ولاسيا جمهورية (سيان) وجمهورية (فلورنسا) . كانت نقابات العمال تدير هذه الجمهوريات فنشأ عن اختلافها فى المصالح وقوعات صرحت المدن بالدماء عصوراً كثيرة ، ولا تقل إن هذا أمر يخص الماضى البعيد ، فنواميس الاجتماع العامة ليست عديدة وهى تجرى حكمها على الدوام .

وإذا كان العراك بين الزمر فى الوقت الحاضر لا يزال فى دور البداية فذلك لأن السلطة المركزية التى هى على شئ من القوة تردع مزاحمتها ، غير أن هذه السلطة أخذت تفقد نفوذها شيئاً فشيئاً ، ومتى يتم ضياعها لذلك النفوذ يقع العراك بينها وبين الزمر المذكورة كما حدث فى (ناربون) ، ثم يقع بين تلك الزمر نفسها كما فى (شبنانيا) حيث تقالت نقابات مديريتين ذات منافع متباينة قتالاً عنيفاً

وفى المستقبل سيعيد التاريخ نفسه فتقع غارات وحرائق وملاحم وغيرها من الحوادث التى هى من مظاهر سخط الجموع عندما لا تجاب الى طلباتها ولا يكون أمامها رادع يزرعها .

لم نبتعد من مسألة تكوين الآراء والمعتقدات كما قد يتوهم البعض من مطالعة التفصيل السابق ، وإلا فكيف ندرك ما في الزمرة من وحدة الآراء من غير أن نبحث عن المؤثرات التي أوجبت وجود تلك الزمرة ؟ لقد لقينا صعوبة في تعيين العوامل ذات التأثير الكبير وقتما درسناها في الفصول التي خصصناها للآراء الشخصية ، فلا أسهل من تعيينها فيما يتعلق بالزمر المحدودة الكثيرة التجانس كالتى ذكرنا تكوينها آنفاً ، فهذه الزمر تتألف بالتحقيقة من أفراد ليس لهم سوى آراء ييتمهم الصغيرة أى زمرة المضطرة - كى تحافظ على قوتها - الى عدم الاغضاء عن أية مخالفة فى الرأى تبدو من احد أفرادها .

وستصبح مسألة تكوين الآراء والمعتقدات اقل سهولة عند ما لا تسمح الجماعة التى ينتسب اليها المرء بأن يكون عنده رأى غير رأياها ، وعندئذ تضيق حرية الفكر حتى تصير أمراً مستحيلاً ، فلتقع مجتمعات المستقبل تحت حكم الاشتراكية أو النقاية أو فى ربة المستبدين الذين يؤدى هذان المذهبان الى ظهورهم حتماً ل ترى كيف يستولى عليها استعباد نفسى عظيم .

٢ - كيف نخلص روح الفرد من روح الزمرة وكيف تعود اليها

يؤدى التطور الحديث - كما بينا - الى تحويل المجتمعات الى زمر صغيرة مختلفة لكل منها مشاعر وأفكار وآراء مشتركة أى روح واحدة ، ولا فائدة من البحث عن قيمة هذا التطور ، لأن العقل لا يبدل سير الامور ، ولكن اذا لم ندرس قيمة الحوادث فانه لا بأس فى شرحها .

يسهل علينا أن نثبت أن اندغام روح الأفراد فى روح الجمع هو كناية عن عودة الى صفحات التاريخ الاولى التى لا نزال نشاهد مثلها عند الشعوب الفطرية المتأخرة ، فهذه الشعوب تتألف من جماعات صغيرة تدعى قبائل تتقاتل فى الغالب ، وشأن الفرد فى القبائل المذكورة ضعيف جداً لأن روح الفرد لم تتحرر فيها من روح المجموع ، وهذا هو السبب فى كون أفراد القبيلة جميعهم مسؤولين عن عمل أحدهم .  
إن معرفة هذا الأمر ضرورية لادراك حقوق من هم على الفطرة أو الشعوب

التأخرة كالثعب الأنامي مثلاً ، فقد لاحظ الموسيو ( يول جيران ) حاكم الهند الصينية أن القضاة الاوريين لا يفقهون حقوق تلك البلاد على ما يظهر لاعتبارهم فاعل الجرم وحده هو المسؤول وهم يعدون المبدأ القاتل بعقاب رجل على فعل لم يقترفه أمراً همجياً مخالفاً للادب والذوق

والواقع أن المبدأ المذكور لم يكن مضاداً للطبيعة عند الاناميين الذين كثيراً ما يعدمون رجالاً ينتسبون الى قبيلة القاتل وان لم يشترك هؤلاء الرجال في جريمة القتل ، ولماذا يقع ذلك ؟ يحدث ذلك للسبب النفسى المذكور آنفاً والقاتل إنه لما كان أفراد أحد الزمر الاجتماعية غير مختلفين فانه ليس عندهم سوى روح زمرةهم الجامعة ، وهذا مبدأ عام لتطبيقه على الشعوب كلها في أوائل أدوارها .

الحقوق الأولى لا تفرق بين شخصية الفرد وبين زمرة ، ولذلك تعاقب الزمرة جميعها أو أى قسم منها ، وكيف تقرر القوانين خلاف ذلك وهى بنت العادة ؟ إن المحكوم عليه لا يحتج على مثل تلك الحقوق التى وإن كانت ظالمة جائرة فى نظر المتمدن إلا أنها عادلة منصفة عند رجل يشعر بارتباطه باحدى الزمر ارتباطاً وثيقاً لا يعتقد به إمكان فصله عنها ، والأوروبيون أنفسهم يرجعون أيام الحرب الى تلك الحقوق الفطرية حينما يرمون الرجال المرهونين بالرصاص مستندين الى مبدأ المسؤولية المشتركة . ويلوح لنا أنهم لا بد من أن يعودوا الى المبدأ المذكور على وجه أعم اذا استمرت المجتمعات الحاضرة على الانقسام الى زمر كما بينا سابقاً .

وما فى أفراد القبيلة الواحدة من عدم اختلاف فى الروح يشاهد مثله فى الجسم وقد أثبت بمباحثى الكثيرة فى ألوف من الجماجم أن تجانس الأمة من الوجهة التشريحية يكون عظيماً بنسبة تهقرنا الى أصلها وأن الأمة كلما تقدمت اختلفت جماجم أبنائها أكثر منها فى الماضى . وهذا ما يقارب اخبار السياح الذين يبينون أن أفراد القبيلة المتوحشة يتشابهون تشابهاً موجياً للحيرة حتى إنه يصعب التفريق بين الجنسين فيهم . وعند الأمم المتمدنة ما عند الفطريين من روح جامعة ، غير أن الأرواح الفردية تجعل تأثيرها محدوداً ، فالروح الاولى هى التى سميناها روح العرق ، وتظهر هذه

الروح على الخصوص فى الأحوال العظيمة ذات العلاقة بمصير الشعب كله ، وأما الروح الثانية فتتجلى بالعكس فى أدق أحوال الحياة اليومية المعتادة ، والترافف المذكور للروح الفردية على الروح الجامعة هو كما بينت سابقاً عبارة عن حادثة نشاهد مثلها فى جميع ذوات الحياة التى يشتمل كل نوع منها على صفات خاصة غير الصفات العامة للجنس الذى تنتمى إليه .

ولا نبحث هنا عن المساعى العظيمة التى بُذلت على مر الأجيال لتحرير روح الفرد بالتدرج من روح المجموع التى لا ناص للمصلحة الاجتماعية من أن نحافظ عليها بفعل المعتقدات الدينية والبيئة والعادات والتقاليد والقوانين ، فإيضاح سلسلة تلك الجهود هو تدوين صحائف التاريخ جميعها ، ويعلمنا مثل ذلك البحث أن عدد الرجال الذين استطاعوا بتعاقب الأزمنة أن يتخلصوا من نير روح المجموع قليل إلى الناية ، وأن البشر مدين لهؤلاء الرجال بما فى المجتمع من مبتكرات هى سر ارتقائه ، وأن المجتمعات التى كانوا سر حياتها قامت ضدهم على الدوام ، وأنه إذا نظر اليهم أحياناً بعين التسامح فذلك لوقت معلوم ، ويمكننا أن نمد مناخى الاشتراكية والنقاوية فى الزمن الحاضر عناوين جديدة لجهودات المجتمعات فى سبيل توحيد الرجال وجعلهم ذوى آراء ومعتقدات وحركات واحدة .

وأهم الحادثات التى أشرنا إليها فى هذا الفصل هى شروع المجتمعات الحاضرة فى التحول إلى زمر صغيرة مستقلة متشاكسة متشاكسة تسمى كل منها فى الانفراد حتى تخسر الأم وحدتها ، وأن روح الفرد التى عملت قروناً كثيرة لتتقات قليلاً من روح المجموع تعود إليها فى أيامنا .

إذاً نشاهد الآن ميل الشعوب المتمدنة إلى التقهقر نحو مزاج نفسى منحط كالذى كان سائداً للأجيال الأولى ، وسوف تكون منازعات المستقبل الكبيرة بين زمر الأمة الواحدة أكثر منها بين أمم مختلفة ، نعم إن فناء روح الفرد فى روح الزمرة يمنح هذه الزمرة قوة لا ريب فيها ، ولكن ذلك لا يؤدى إلى رقى فى المجتمع أو الأفراد ، فالرجل لا يكون قديراً إذا نفوذ إلا إذا تحرر من ربة روح المجموع

# الباب السابع

## انتشار الآراء والمعتقدات

### الفصل الأول

#### التوكيد والتكرار والمثال والنفوذ

١ — التوكيد والتكرار

بجئت عن شأن العوامل التي درجتها في هذا الفصل في كثير من مؤلفاتي ، ولذا اكتفي الآن بتلخيص تأثيرها :

ان التوكيد والتكرار عاملان قويان في تكوين الآراء وانتشارها ، واليهما تستند التربية في كثير من المسائل ، وبهما يستعين رجال السياسة والزعماء كل يوم في خطبهم ولا يحتاج التوكيد الى دليل عقلي يدعمه ، وإنما يقتضى أن يكون وجيزاً حماسياً ذا وقع في النفس ، ويمكننا أن نعد البيان الآتي الذي نشر في الصحف نموذجاً لهذه الصفات الثلاث .

« من ينتج القمح ، أى الخبز الذي نحتاج اليه ؟ هو الفلاح ! ومن يزرع الجلبان والشعير والحبوب كلها ؟ هو الفلاح ! ومن يربي المواشى والأنعام ذات اللحوم الطرية ؟ هو الفلاح ! ومن يربي الضأن للحصول على اصوافها ؟ هو الفلاح ! ومن ينتج الخمر والتبذ ؟ هو الفلاح ! ومن يطعم الطرائد ؟ هو الفلاح !

« ولكن من يأكل أطيب الخبز وأطرى اللحوم ؟ ومن يلبس أخر الثياب ؟ ومن يشرب خمر (وردو) و (الشمبانيا) ؟ ومن ينتفع بالطريدة ؟ هو ابن الطبقة العليا المثرية !

« ومن يتسلى ويستريح كما يريد؟ ومن يتمتع بأطياب النعم؟ ومن يسيح للفرحة؟  
ومن يتغيا في الصيف ويتدفأ في الشتاء؟ هو ابن الطبقة العليا المترية؟  
« ومن يأكل طعاماً غير شهي؟ ومن يندر شربه للخمر؟ ومن يشتغل بدون  
انقطاع؟ ومن يكابد حمارة الصيف وصبارة الشتاء؟ ومن هو شديد البؤس كثير  
الشقاء؟ هو الفلاح؟ »

والتوكيد لا يلبث بعد أن يُكرَّر تكراراً كافياً أن يحدث رأياً ثم معتقداً ،  
والتكرار هو تمة التوكيد الضرورية ، ومن يكرر لفظاً أو فكراً أو صيغة تكريراً متتابعاً  
يحوله الى معتقد ، وإذا نظرنا الى سلسلة الرجال التي تبتدىء بمؤسس الديانة لتنتهى  
بتاجر السلع رأينا أنها تستعين بمبدأ التكرار على إقناع الناس .

والتكرار من القوة بحيث يجعل الرجل يؤمن بالكلمات التي يكررها ويسلم بالأفكار  
التي يعرب عنها عادة ، فلما رجا مجلس الشيوخ أن يهبيء ( بومبي ) الكبير الاسباب  
اللازمة للدفاع عن الجمهورية قال هذا الاخير مكرراً إن يوليوس قيصر لا يهاجم روما ،  
والاعتقاد الذي أوجبه هذا التكرار في نفسه منعه من الالتجاء الى التدابير التي يمكنه  
أن يحصى بها روما وينقذ رأسه من القطع ولو لأجل معلوم .

والتاريخ السياسى حافل بالعقائد التي نشأت عن التكرار على الوجه المذكور ، فقد  
كان قادتنا وأولو الأمر منا قبل سنة ١٨٧٠ يقولون مكررين إن الجيوش الالمانية هي  
دون جيوشنا قوة ، وبفعل هذا التكرار اعتقدوا صحة ذلك اعتقاداً جازماً ، وكلُّ يعلم  
ما ذا كانت عاقبة الاعتقاد المذكور ، ولا يلبث الرجل السياسى بعد إقباله على آراء  
مفيدة له أن يعتنقها بتأثير نضاله عنها حتى يصبح غير قادر على تبديلها عند ما تقتضى  
منفعة ذلك التبديل .

٢ — المثال

المثال هو أحد وجوه التلقين الفعالة ولكن يجب أن يكون ذا وقع في النفوس  
ليكون مؤثراً ، ففي عالم التربية نرى أن مثلاً بارزاً خير من مئات من الأمثلة  
الضعيفة التي لا تنفذ القلوب ، وقد أتيج لى أن أحقق هذا المبدأ عند ما روّضت خيلاً



شوامس ، إذ رأيت ان نكزها بالمهاز مرة واحدة أشد فعلاً من ضربها مرات عديدة ضرباً خفيفاً .

وقد تجلى تأثير الأمثلة البارزة التي تفرع الخيلة في تمرينات الجيش الكبيرة التي تمت سنة ١٩١٠ ، فقد كررت الطيارات حركاتها العادية دون أن تضيف اليها شيئاً آخر سوى حمل البرقيات ، بيد أن هذه الفائدة المفترضة أيام الحرب جعلت الحكومة تعزم على تكوين فرقة للطيران وأوجبت أن يعلن وزير الحرية أن الطيران هو سلاح جديد تقتضى إضافته الى المشاة والمدفعية والخيالة .

وفي عالم السياسة نرى أن تأثير المثال في تكوين الآراء وانتشارها أمر قاطع ، فقد أدى نجاح بعض مرشحي الاشتراكية لعضوية البرلمان الى اعتناق كثير من الاساتذة الشبان لأشد مبادئ ذلك المذهب ضرراً وقد بين الموسيو ( بوردو ) ذلك في العبارة الآتية .

« بينما نرى في المانيا شبيبة الجامعة وشبيبة الطبقة الوسطى الراقية تبتعد من الاشتراكية بعد أن دنت منها وتعود الى حظيرة المشاعر القومية المتطرفة نشاهد الاشتراكية في فرنسا تثابر بالعكس على جمع جنودها من اساتذة الفلسفة وخرجي دار المعلمين فنازلاً . »

٣ — النفوذ .

تبحث رسائل المنطق بحثاً دقيقاً عن العناصر التي يتكون منها الحكم ، ومع ذلك سهت عن العدوى والنفوذ . والعدوى والنفوذ هما الناظران لأكثر آرائنا . سأبحث عن العدوى النفسية في فصل آتٍ ، وهنا ادرس النفوذ درساً موجزاً ، لأنني قتله تمحيصاً في كتب أخرى .

في المدارس يتعلم الطلاب أن التجربة والاختبار حلاً مكان النفوذ ، ولكنه يسهل إثبات خطل هذا الزعم : فلو نظرنا الى الآراء العلمية — دون أن نلتفت الى الآراء الدينية والسياسية والحلقية حيث لا شأن للدليل فيها — لرأينا أنها في الغالب لا تملك سوى نفوذ قائلها وأنها تنتشر بالعدوى ، ولا يكون الامر خلاف ذلك ، إذ

لما كان أكثر التجارب والاختبارات العلمية من التعقيد بحيث يصعب تكرارها فإنه يُسأَم بكلام العالم الذي يشرحها ، ولذلك يحق لنا أن نقول إن نفوذ الاستاذ في الوقت الحاضر هو كما في زمن ( اريستوطاليس ) ، ويزداد هذا النفوذ كلما أصبح الاختصاص الاممى أعظم منه في الماضي .

ولكون النفوذ أساس أكثر الآراء التي تلقىها التربية في الذهن فأننا نتدرب على اعتقاد رأى يديه عالم ذو نفوذ بسهولة ، أجل إننا قد نأتى بأحكام هي على جانب من الاصابة في مواضيع مهنتنا ، وأما المسائل الاخرى التي يأتى بها رجل نافذ فاننا نفضل أن نسلّم بها تسليماً أعمى على إعمال الفكر فيها مباشرة .

ويتوقف مصير أقطاب السياسة وأرباب الأعمال والمتفنين والكتاب والعلماء على ما فيهم من نفوذ خاص وقدرة على تلقين الناس تلقيناً غير شعورى ، وقد ينجح الأبله أحياناً في نشر رأيه ، لأنه لما كان غير شاعر ببله لا يتردد في توكيد رأيه ويصبح بذلك ذا نفوذ .

وسنثبت بأمثلة بارزة - عندما نعود الى هذا الموضوع في الباب الذى خصصناه للبحث عن المعتقدات بحثاً تجريبياً - ان النفوذ هو فى الغالب أحد العوامل التى تجعل العالم النحرير معتقداً ، وللنفوذ الذى هو موجد الآراء وسيد العزائم قوة أدبية تعلو القوى المادية ، فلما عاد نابليون وحده من جزيرة ( إلب ) افتتح بنفوذه جميع فرنسا فى بضعة أيام ، وقد خرست أمام إكليل مجده مدافع الملك وتشتت شمل جيوشه ، وقد كانت نفوذ نابليون عظيماً حتى انه أثر فى أعدائه ، فبدلاً من أن تمقت ( مارى كارولين ) - زوجة أمير من عائلة البوربون المالكة - ذلك العدو الرهيب عدته الهماً ، وإليك ما جاء فى إحدى رسائلها .

« إن بوناپارت هو أعظم رجل أظهرته العصور ، فأعجب به من رجل قوى ذى نبجة ومروءة ونشاط وعبرية لا تبارى ، ويا سعادة الأمة التى يوجد على رأسها ملك مثله ! ، ولذلك ترانى على ما فى من كره للنظام الجمهورى وحب لتقويض دعائمه أرجو بقاء بوناپارت . »

وقد كان شأن النفوذ في شوكة الملوك عظيماً الى الغاية ، حتى إن ( باسكال ) قال : « يجب على المرء أن يكون ذا عقل نقي خالص لكي ينظر الى ملكه - وهو في قصره الذي يحرسه أربعون ألف جندي - كما ينظر الى بقية الناس . » ، وفي الجيل الحاضر الذي هو جيل المساواة نرى نفوذ الملوك لا يزال محافظاً على شأنه ، فيجمل بالملوك أن يحافظوا عليه بحكمة ، كتب الموسيو ( نوزيار ) مراسل احدى الصحف المهمة : « أن جميع من حضروا جنازة ملك انكلترا قد عجبوا من تأثير امبراطور المانيا في الجمع حينما كان يمشي في وسط الملوك ، حقاً إن غليوم يكتسب باعتماده أنه ظل الله في الأرض عظمة غريبة تدهش الناس . »

والجماعات نظراً الى احتياجها الى العبادة لا تلبث أن تعبد أشخاصاً يؤثرون فيها بنفوذهم ، والزعيم لا يحافظ على نفوذه بالتملق لها ، فهي وإن كانت تبحث عن مدهنين لها إلا أنها سرعان ما تحتمر من يتملقها .

ومع أن النظام العسكري يقوم على نفوذ الضباط فإن جهل روح الجماعات أدى الى ترك هذا المبدأ ، إذ قد أمر الضباط بأن يعاملوا الجنود كاخوة وأن يبذروا فيهم حب الطاعة بقوة الحجج والبرهان ، يرضى ابن الطبقة الدنيا مختاراً بمثل هذا المبدأ ، ولكنه يحتمر ضباطه الذين يطبقونه كثيراً ، وماذا يكون مصير الجيش بعد أن يخسر هؤلاء نفوذهم ؟

وينشأ بعض الفوضى الحاضرة عن كون رخاوة الطبقات القائدة قد جردتها من نفوذها ، وما مصير الملوك والشعوب والأفراد والنظم وكل عنصر من عناصر الحياة الاجتماعية سوى الاضمحلال عندما لا يبقى لهم نفوذ يؤثرون به .

يمكننا أن نلخص تأثير الاسباب في انتشار الآراء والمعتقدات التي ذكرناها في هذا الفصل بالكلمات الآتية وهي . لا رأى اولا معتمد يظهر بلا نفوذ ، ولا رأى اولا معتمد يسيطر بلا توكيد ، ولا رأى أو لا معتمد يبقى بلا مثال ولا تكرار .

## الفصل الثانى

### العدوى النفسية .

١ — اشكال العدوى النفسية .

العدوى النفسية هى أمر روحى ينشأ عنه التسليم ببعض الآراء والمعتقدات تسليماً غير إرادى ، ومصدرها دائرة اللاشعور ، ولذلك لا يؤثر فيها أى دليل او تأمل ، وتشاهد فى البشر والحيوانات ولا سيما عندما يكونون فى حالة جماعة ، وهى من التأثير بحيث تسيطر على التاريخ .

حقاً إن العدوى النفسية هى العنصر الاساسى فى انتشار الآراء والمعتقدات ، وقد تبلغ بقوتها مبلغاً يجعل الانسان يضحي باكثر منافعه الشخصية وضوحاً ، يؤيد ذلك أخبار الشهداء والمنتحرين والجدع الخ الذين لم يأتوا بما أتوا به الا بفعل العدوى النفسية . وقد تكون مظاهر الحياة النفسية جميعها سارية ولكن الانفعالات هى التى تنتشر بالعدوى على الخصوص ، وتستطيع الإرادة فى الأحوال العادية أن تحدد تأثيرها ، غير أن ظهور احدى العلل - كتحويل البيئة أيام الثورة تحولاً عنيفاً وتمريض الشعب الخ - المبطللة لعمل الارادة تجعل حكم العدوى يجرى بسهولة محولاً ذوى الميول السلمية الى رجال أشداء محاربين وأبناء الطبقة الوسطى الودعاء الى أشياع متعصبين ، وبتأثير العدوى أيضاً يغير هؤلاء أحزابهم فيأتون لاختاد الثورة بنشاط كالذى أوقدوا به نيرانها .

ولا تسرى العدوى بتماس الافراد تماساً مباشراً ، بل قد تنتشر بالكتب والجرائد والحوادث البرقية حتى بالشائعات البسيطة ، وكلما زادت وسائل النشر والإذاعة تداخلت العزائم وأثر بعضها فى بعض ، على هذا الوجه ترتبط كل يوم بمن يحيطون بنا اكثر من ذى قبل وتكتسب النفسية الفردية شكلاً جامعاً .

وإني أعد الزمرة الاجتماعية التى تنتسب اليها أقوى أشكال العدوى النفسية

تأثيراً ، إذ لا تقدر أية إرادة على التخلص منها ، فهي تملئ في الغالب آراءنا وأحكامنا من حيث لا ندرى .

٢ — امة مختلفة على العدوى النفسية .

المشاعر خيراً كانت أم شراً تنتشر بالعدوى ، فلذا نرى الوسط ذا تأثيراً عظيم في التربية ، ولقد أصاب من قال :

« عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى »

وبتأثير العدوى النفسية تأسست جماعة مجرمة كبيرة من الشبان الذين طردوا من المصانع ، فلما أعيت هؤلاء الحيل في بدء الأمر ولم يكن لهم عمل سوى الجولان في الاسواق اختلطوا بزملاء يسرقون من معارض السلع ما يسهل نشله فقلادوهم ، وقد كثرت أهمية هذه الأسلاب بالتدرج فتشكلت جمعيات تشبه العصابات في غايتها ، وهكذا لا يلبث الجوال أن يتخذ اللصوصية مهنة فيعرض نفسه للسجن ، وقد يبلغ رضاه بمصيره الذي هو ابن العدوى مبلغاً لا تنفع معه اشد الزواجر .

وتنشأ العدوى الجارمة أيضاً عما تنشره الصحف من حوادث القتل المحركة للمشاعر ، فقد كان لجلك الباقر البطون كثير من المقلدين في مدن انكلترا .

والحوادث التي تدل على العدوى النفسية غير محتاجة الى ايضاح ، غير أن القرار المشهور الذي قرره مجلس الوزراء والقائل بادخال الرعاع في سلك الجنديّة يدلنا على مقدار جهل الحكومات لأمر تلك العدوى .

والخوف هو أشد المشاعر سرياناً بالعدوى ، وليس شأنه الكبير في حياة الأفراد والشعوب بالأمر المجهول ، فهو وإن لم يكف لايجاد الآلهة كما قال ( لوكريس ) فإن تأثيره بادٍ في تكوينها ، وهو لمحافظة على نفوذه الذي كان له في بدء التاريخ يوجب الهزيمة في الحروب وكثيراً ما يدفع المرء الى الانتحار ، فالعرب الذي أحدثه النجم المذنب الأخير الذي قيل إنه سيصدم الأرض جعل بعض الناس ينتحرون ، والخوف لا يُسير الأفراد والجماعات فقط بل يسير رجال السياسة أيضاً ، وقد اثبت في كتابي المسمى « روح السياسة » أن الخوف هو علة كثير من القوانين التي سنت منذ

عشرين سنة والتي لا تزال تأتي بنتائج مشؤومة ، ويمكننا أن نقول إن شبح الخوف في أيام النتن هو الذي يتسلط على المجالس السياسية فيملئ عليها آراءها وانتحاءها ، وعنه صدرت اشد تدابير دور العهد قسوة وبتأثيره كان ( كاريه ) يقتل ضحاياه شر قتيل وكان ( فوكيه تفيل ) يرسل المتهمين الى المقصلة زرافات ووحداً .

واكثر الانفعالات تنتشر كالخوف بالعدوى ، ويعرف أعظم الخطباء ذلك ، فليس سبب اقتراع مجلس النواب لإسقاط وزارة ( كليمانسو ) سوى انفعال نفسى أحدثه أحد خطباء المعارضين في النواب بفعل العدوى ، وكذلك حركات الرجل وبيانه وأوضاع وجهه ذات تأثير في المخاطب بالعدوى ، فمن الحكمة أن يكون الرجل ذا وجه طليق عند الإستعطاف بدلاً من أن يقطب ، إذ إنه بعدوى ذلك يستميل في الغالب مخاطبه ويكسب عطفه .

٣ — سلطان العدوى النفسية .

العدوى النفسية أمر عام يشاهد في الحيوان كما في الانسان ، ولذلك لا تلبث الرعشة التي تستحوذ على حصان الاصطبل أن تسرى الى الأحصنة الأخرى ، ولا تلبث الكلاب أن تنبح بعد أن ينبح احدها وعندما يهرب الضأن تتبعه بقية الضأن . وقد تشد قوة العدوى النفسية فتغلب على غريزة المحافظة وتدفع الانسان الى التضحية بنفسه ، ومن هذا القبيل قصة الخمسة عشر كسيفاً الذين شنقوا أنفسهم بكلاًب واحد وقصة الجنود الذين انتحروا في كوخ واحد ، وحوادث مثل هذه كثيرة جداً ، فهالك ما قاله الدكتور ( ناص ) : « وقماً تنشر الصحف خبر انتحار عاطفي مفصلة طريقة حدوثه ينتحر بعض محتلي الشعور حسب تلك الطريقة ومن هذا النوع ما وقع في اليوم الثاني من حادثة ( سيقتون ) حيث خنق كثير من المحتلين أنفسهم بالغاز ، ونعد روسيا اكثر البلاد التي انتحر الناس فيها ، فقد كان الزسل في روسيا أيام الاضطهادات الدينية يأمرون أشياعهم بحرق أنفسهم ، وقد حدث أن ألقى ستمئة شخص أنفسهم في النار دفعة واحدة ، وعند أحد مؤرخي الأديان الروسية: أن عدد الذين حرقوا أنفسهم في روسيا منذ سنة ١٦٧٥ حتى سنة

١٦٩١ عشرون الف شخص ، ومما ذكره الموسيو ( ستوكين ) أن ٢٥٠٠ شخص روسي طرحوا أنفسهم في موقد واحد طامعين في الآخرة »

وقد ينشأ عن العدوى النفسية وهم خيالي لا يلبث أن يتحول الى حقيقة ، فقد جاء في تقرير حديث للدكتور ( بيكيه ) أحد علماء الجراحة أنه على أثر موت ضابط بالرائدة الدودية لزم الفراش ١٥ ضابطاً من بين ضباط احدى الكتائب البالغ عددهم خمسة وعشرين لظهور علائم المرض المذكور فيهم ، وما عوفي هؤلاء المصابون الا بالتلقين فقط .

٤ — شأن العدوى في انتشار المعتقدات الدينية والسياسية

نستدل على شأن العدوى النفسية في انتشار الآراء والمعتقدات من الملاحظات السابقة ، فالمعتقدات سياسية كانت ام دينية تسرى بين الجماعات بالعدوى على الخصوص ، وعلى نسبة افراد الجماعة يكون تأثير العدوى شديداً ، ولا يلبث المعتقد الضعيف أن يصبح قوياً بعد أن يكتسب الأفراد الذين يمتقونه صفة الجماعة

والمعتقد بعد أن ينتشر بالعدوى لا يلتفت الى قيمته العقلية ، إذ لما كانت العدوى تؤثر في دائرة اللاشعور فانه لا شأن للعقل فيها ، وفي الغالب تكون العدوى ذات تأثير في من هم أرفع من الجماعة ، ولذلك يجب أن لا نعجب من وجود علماء يدافعون عن اكثر المعتقدات شؤماً ومخالفة للصواب ، وما اكثر الرجال الذين هم كمدبر العرائض الذي ناضل في مجلس شورى الدولة عن اعتصابات الموظفين أيام كان اعتصاب موظفي البريد يهدد كيان فرنسا .

وبالعدوى النفسية يعانى أرباب المال والقلم والعلم آراء الجموع ، ومن أجل ذلك نرى العدوى قادرة على استعباد الذكاء ، وكما في انتقال الأمراض الجثمانية لا يستطيع أن يقاوم العدوى النفسية سوى اولى القوة والبسطة وقليلاً ما هم .

وقد نشأت حوادث الدين التاريخية عن العدوى النفسية ، ومع ذلك لم يكن تأثيرها في احد الازمنة الماضية كما هو في الوقت الحاضر ، وسببها أولاً : ان السلطة أخذت تنتقل بالتدريج الى الجماعات بفعل المبادئ الديمقراطية ، وثانياً :

ان تعميم وسائل النشر يؤدي الى سرعة ذبوع الحركات الشعبية ، وما من أحد يجهل كيفية انتشار اعتصابات موظفي البريد والثورات التي اشتعلت في روسيا وتركيا والبرتغال .

والحكومات الضعيفة تكون عاجزة أمام سلطان العدو ، ولم يقتصر الأمر على اذعان الحكومات لكل ما تأمرها به الجماعات بل سرعان ما تدعم هذه الأوامر من قبل كتائب من المتعلمين جعلتهم العدو يعتبرون عدلاً ما فيها من ظلم واحجاف . على هذا الوجه أصبحت أهواء الجموع الطائشة في نظر تلك الكتائب مبادئ جديرة بالاحترام كما كانت رغائب الملوك في الماضي مقدسة عند بطانئهم .

والآراء التي انتشرت بتأثير العدو لا تزول الا بآراء مخالفة تنتشر بالعدوى أيضاً ، الى هذه القاعدة النفسية يلتجئ رجال السياسة فيقلون العدو بالعدوى ، ولكن بما أن البحث في هذه النقطة يبعدنا من الموضوع فاننا لا نطنب فيه الآن .

---

### الفصل الثالث

#### الطراز

---

١ — تأثير الطراز في عناصر الحياة الاجتماعية

ينشأ عن تقلب الإحساس والشعور بتقلب البيئة والحاجات والتقاليد روح عامة تتبدل بتبدل الأجيال ، وكثيراً ما تتغير الروح المذكورة في غضون الجيل الواحد ، وهذه الروح التي تنتشر على عجل بفعل العدو النفسية تسمى « طرازاً » .

فالطراز هو أحد العوامل القوية في شيوخ أكثر عناصر الحياة الاجتماعية ومنها آراؤنا ومعتقداتنا ، ولم يمتد سلطانه الى اللباس وحده بل تناول فن التمثيل والآداب والسياسة والفنون الجميلة حتى الافكار العمالية ، وهذا هو العلة في أن تشابه بعض الآثار أصدق لسان يعبر عن حال أحد الأدوار .



ولما كان الطراز يؤثر تأثيراً غير شعورى فاننا نعانيه من حيث لا ندرى ، ولا تقدر أكثر النفوس استقلالاً على التخلص من حكمه ، فالتفنون والكتّاب الذين يأتون بأثر ليس عليه مسحة من أفكار الوقت هم أندر من الكبريت الأحمر .

وأحياناً يجعلنا الطراز بما له من النفوذ - نعجب من أشياء لا نلبث أن نستبشعها بعد بضع سنوات ، وقلما يكون الأثر الفنى ذاته ذا وقع فى النفس ، وانما تستحق قيمته مما يحوم حوله من أفكار فيتحول بتحولها ، وفى الغالب يفرض الطراز أموراً يعبد تصديقياً كإيجاد لغة أو إصلاح كتابة ، خذ لغة ( الفولابوك ) التى ظهرت سنة ١٨٨٠ مثلاً تر أن الطراز قد يسر لها نجاحاً باهراً لأنه تأسس فى عشر سنوات ٢٨٠ نادياً و ٢٥ جريدة لنشرها ، ثم تبدل الطراز فصرنا اليوم لا نكاد نجد رجلاً يعرف ( الفولابوك ) ، وقد قامت لغة ( الاسبرانتو ) مقام ( الفولابوك ) فلقيت مثلما لقيته هذه من النجاح ، إلا انها أخذت فى هذه الأيام تفسح المجال للغة أخرى تسمى ( الايدو ) ، ولا ريب فى أننا سنستمر على إيجاد لغات مصنوعة حتى نعلم أن تكوين اللغات هو أمر اجماعى لا يتم إلا ببطء أى لا يقع ابتداهاً بصنع أحد الناس .

ولكون تقلبات الطراز تتناول جميع المواضيع ولكون ما فىنا من شعور وإحساس يتغير بفعل كثير من المؤثرات يمكننا القول إن الشكل الذى نفكر حسبته ونعرب به عن مشاعرنا يتحول تحولاً سريعاً .

والعاطفة التى هى مصدر الطراز لم تتخلص من عناصر العقل ، وهذا يتضح عند البحث فى زى النساء الذى هو أكثر مظاهر الطراز تقلباً فى الظاهر ، إذ نرى حينئذ أن دائرة التقلب المذكور محدودة الى الغاية .

٢ - قواعد الطراز ، الطراز مزيج من عناصر عاطفية وعناصر عقلية .

إذا كان الطراز عنوان العاطفة فإن العقل هو الذى يعين وجهته ، ومن هذين المصدرين يشتق طراز الآداب والفنون والعمارة والأثاث واللباس وغيره من الأشياء ، ويتضح هذا الاشتقاق عند البحث فى الأزياء النسائية ذات التقلب الكبير :

إن ما في زى النساء من عناصر عقلية ناشئة عن مقتضيات الاقتصاد والمخترعات والحاجات الحديثة وحكم الوقت الخ ، وتلاحظ هذه المؤثرات في تبدل الأزياء الذى أوجبه استعمال السيارات ، فقد اضطرت المرأة فى دورنا القائم على مبدأ السرعة الى مجازاة الرجل فى غدوه ورواحه فى الشوارع الكبيرة ، فعم لذلك الزى المشذب - الذى كان يخص بعض الألعاب الرياضية - مع قليل من التعديل ، وأما الاثواب الأخرى فقد ضُمَّت فيها أحكام الدرِّع لتناسب فى الجِرِّز بسهولة ، غير أن ذلك جعل نصف المرأة الفوقانى الذى حُرِّج على هذا الوجه غير مستظرف ، ومن اجله نُقِّصَ اتساع البنلة التحتانى وألغِيَ الجِيان كى تبدو مُكْتَفَةً ، ثم إن المرأة طمعاً فى إيقاظ شهوة الناظرين لم تأل جهداً فى جعل بذلتها تلاصق جسمها ملاصقة تامة مبدية من وجودها ما يمكن الرجل أن يستدلَّ به على ما بقى

ولا اعتراض على النساء اللواتى يقطنن المدن اذا لبسن البسةً حريريةً خفيفةً أيام الشتاء بعد أن عمَّ تدفئة البيوت بالبخار ذى الحرارة المرتفعة ، والمرأة المنسربة بالحريز تنال فى ذلك الفصل ما تحتاج اليه من الحرارة من عباءة الفرو حيناً لا تكون فى بيتها .

تلك هى العناصر العقلية التى تؤثر فى تكوين الزى ، فلتكلم الآن عن العناصر العاطفية ذات الشأن فى ذلك التكوين : نقول قبل كل شىء إن الزى هو كاللغات والاديان من عمل المجموع لا من عمل الفرد ، ولذلك يتعذر على أى رجل أن يوجبهُ على الآخرين ، والناس يظنون خطأً أن الخياطين والممثلين وعارضى الألبسة هم الذين يوجدون الزى بوجه عام ، نعم إنهم مخطئون فى ظنهم لأن الواقع يدل على أن هؤلاء لا يفعلون بالحقيقة سوى التعبير عن مناحى الناس وميولهم التى هى نتيجة بعض الحاجات والافكار والأحوال .

والأزياء وان كانت تختلف من فصل الى آخر لا يتحقق الأمل فى تبديها إلا ضمن دائرة محدودة ، أجل ، إن الزى لا يروق النفس إلا إذا استوقف النظر ولكن لا يتم نجاحه إلا إذا لم يبتعد من الزى الذى تقدمه ، وهذا ما يوضح لنا السبب فى كون الزى المبتكر من كل وجه لا يدوم طويلاً ، ولا يستقيم

أمر الزي إلا بالتدرج ، فالجلابيب الواسعة التي كان النساء يستعملنها منذ ثلاثين سنة لم تتحول الى حلل ضيقة ملاصقة للجسم إلا شيئاً فشيئاً .

والزي ذو سلطان كبير ، فهو الذي يجعل المرأة تصطبر على أشد الكُلف كأن تمسك ثوبها بيدها خوفاً من أن تجر ذيله وأن تحمل بيدها الثانية كيساً يشتمل على محتويات جيبها في الماضي ، وكأن تكابد ما ينشأ عن لبس الأثواب المسماة « الحلل المشكولة » من ألم في المشى ، والتمددات من هذه الجهة يشبهن نساء الهمج اللواتي يحتمان أوجاع الحرصان التي يزينون بها أنوفهن إذعاناً لحكم الزي .

والخضوع للزي كما وصفنا ثبت لنا ما للعدوى النفسية من التأثير والقوة ، فأكثر النساء استقلالاً وهمةً وسعيًا في نيل جميع الحقوق لا تجرؤ على لبس بذلة قصيرة في وقت يلزم الزيُّ الناسَ لبسَ بذلات طويلة ولا تجسر على صنع جيب في البذلة في زمن يحرم الزي استعمال الجيوب ولا تقدم على زر درعها من أمام في آن تزر بقية النساء دروعها من خلف ، فليس من يقدر منهن على مخالفة الزي ، ولم يطعن في الماضي أوامر الآلهة إطاعتهم لأحكام الزي في جميع العصور والاجيال .

## الفصل الرابع

### الجرائد والكتب

#### ١ تأثير الجرائد والكتب

للجرائد والكتب تأثير كبير في تكوين الآراء وان كان دون تأثير الخطب ، ومع ان تأثير الكتب التي لا تقرأها الجماعات اقل من تأثير الجرائد فانه ظهر منها ما أدى الى قتل ألوف من الناس ككتب (روصو) التي كانت توراة زعماء دور العهد وكتاب « غرفة العم طوم » الذي أثر كثيراً في نشوب حرب الانفصال الاميركية الدامية ، ويوجد كتب أخرى كرواية ( روبنصن كروسو ) وروايات ( جول فيرن ) أثرت

في آراء الشباب فكانت سبباً في تعيين كثير من منهم ، وقد كانت نفوذ الكتب واسعةً عند ما كان لا يقرأها سوى الاقليات ، فكل يعلم كيف أدت مطالعة التوراة في عهد ( كرومويل ) الى ظهور كثير من المتعصبين في انكلترا ، وكل يعلم أن روايات الفروسية أيام تأليف رواية ( دون كيشوت ) بلغت في إفسادها النفوس مبلغاً جعل ملوك اسبانيا يمنعون بيعها .

وتأثير الجرائد في الوقت الحاضر أعظم من تأثير الكتب ، فالذين ليس عندهم من الآراء غير ما في الجرائد لا يحصى عددهم ، وقد تجلّى تلقين الصحف اليومية في جميع الأمور حتى في كثير من حوادث الزمن الحالى الجسيمة ، فمن المسائل المعروفة هو أن الصحافيين هم الذين أوقدوا نار الحرب بين الولايات المتحدة وأسبانيا .

ولا تجهل الحكومات ما للصحافة من السلطان المطلق ، فكل رجل سياسى يعال نفسه بأن يكون صاحباً لجريدة منتشرة . وبالجرائد استطاع رؤساء الوزارة الألمانية أن يجعلوا أكثر مشاريعهم مقبولة عند الجمهور .

والسرعة التي يصدق بها القراء ما يطالعونه في جرائدهم تقضى بالعجب العجاب فكل إعلان في الصحف كثير الوعد قليل الوفاء يجد له جمهوراً يؤمن به ، والحيل نفسها قد تتكرر بنجاح ما دام لأغلب الناس إيمان بما لا يُرجى ، ومن ذلك حكاية السارق المحتال الذي أعلن منذ وقت غير بعيد أنه يقرض كل انسان دراهم بلا ضمان ، فقد استطاع هذا المحتال في بضعة أشهر أن يربح — قبل أن يقرض سنتياً واحداً — خمسين ألف فرنك من رسوم الكشف والاستخبار التي فرض على الطالبين دفعها قبل إقراضهم ، وأمر مثل هذا لم يشمل النظر لو لم يكتشف قاضى التحقيق بين الذين صدقوا السارق المذكور أناساً متعلمين أكثرهم من ماترمى الدولة وكبار الضباط ورؤساء الشرطة والمحامين وكتاب العدل وقضاة الصلح وأعضاء مجالس الادارة وقضاة التحقيق ، وهذا المثال أوضح دليل على تأثير الصحف في الناس .

٢ — الاقتناع بطريقة الاعلان

ان البحث عن استعمال الاعلانات يفيدنا في بيان تأثير الصحف في تكوين

الآراء ، فالاعلان هو احدى الوسائل التي يتم بها إقناع اجموع في الوقت الحاضر ، وله في البيوع التجارية شأن يوضح لنا الطريقة التي يؤثر بها في المشتري وقد استنبط الأميركيون بضع قواعد نفسية ضرورية للاعلان فأصبحوا أساتذة العالم في هذا المضمار ، ويقدر المارفون المبالغ التي تُدفع للصحف أجوراً للاعلانات في الولايات المتحدة بخمسمئة مليون فرنك في السنة الواحدة . ومما ذكره الموسيو ( اران ) في كتاب خصصه للبحث عن هذا الموضوع أن أحد تجار الأقلام الكاتبة ( ستيلوغراف ) يبذل نصف مليون فرنك سنوياً اجرة اعلانات وأن رب أحد مصانع الصابون أنفق على الاعلانات ستين مليون فرنك في أربعين سنة .

والغاية من بذل تلك النفقات هي انشاء قناة في نفس المرء يصير بتأثيرها مشترياً في أحد الأيام ، والعامل الأساسي في تكوين القناة المذكورة هو التوكيد والتكرار معاً لا التوكيد وحده ، ولذا لا تكون العلامة التجارية مقبولة عند الناس الا بعد أن يمضى عليها وقت كافٍ تُعلن فيه إعلاناً مؤكداً مكرراً

ومن الضروري أن يُغير شكلُ الاعلان من وقت الى آخر ، والا فان تأثيره يضعف بفعل العادة ولا يكون الاعلان مفيداً الا اذا دل على منتج معلوم في السابق ، وأما اذا ظهر المنتج حديثاً فيجب ذكر جميع صفاته ومزاياه في الاعلان ، واذا كان استعمال الشيء المخترع يتطلب تغيير المشتري لعاداته فان المقصود لا يتم بتكرير الاعلان وحده بل يحسن بالبائع أن يوزع نماذج من المنتج مجاناً

ومما يتعلل به المعلنون هو أن يجعلوا المشتري يحفظون أسماءهم وعناوينهم ، ولكي يتوصلوا الى ذلك تراهم يطبعونها على الاشياء التي يكثر استعمالها كالورق النشاف وعلب الكبريت والجراند والمجلات ودفات الكتب الخ ، ويرى الأميركيون أن خير أسلوب لبلوغ تلك النتيجة هو أن يرسلوا الى المشتريين قوائم مصورة تصويراً فنياً ومشملة أحياناً على قصة موقع عليها من قبل كاتب معروف ، وقد أخذت هذه الطريقة الشافية الغالية تشيع في فرنسا منذ وقت قريب .

ومن قواعد النشر الثابتة هو أن الاقبال على المنتجات المعروفة لا يلبث أن يخف

عندما ينقطع إعلانها ، ولا ريب في أن ضعف ذاكرة المشاعر التي بحثنا عنها آفأً هو علة ذلك .

وشأن التصاوير كبير في الاعلان ، وقد بينا ذلك وقمنا بحثنا عن تأثير الاعلانات المصورة في الانتخابات النيابية الأخيرة التي وقعت في انكلترا وفي اكتاب المتطوعين في سلك الفرسان عندنا ، ويكون ذلك الشأن أعظم إذا كانت الصور ترمى الى المقايسة بين شيئين أو أكثر ، فاذا أريد ترويج مائع يشفى الصلع مثلاً فان مما يؤثر في المشتري أن يحتوى إعلان ذلك المائع على صورتين لرجل واحد ، احدها تدل على حاله وهو أصلع والثانية عليه بعد أن عوفى من الصلع واكتسى رأسه بالشعر بتأثير المائع المذكور

ويستعين المليون على ترويج أشغالهم بمثل الوسائل التي يتذرع بها أرباب الصناعات ولكن على مقياس واسع ، فأحياناً يشتركون أكثر الصحف لتمتدح أعمالهم ، وأما التي لا يقدر على جمعها موالية لهم فانهم على الأقل يشتركون سكوتها .

## الفصل الخامس

### جريان الآراء وثوراتها

١ — جريان الآراء

يوجد عدا الآراء التي تخص كل زمرة على حدتها مناح عامة تستولى على أكثر الزمر حيناً من الزمن ، وهذه المناحي الناشئة عن تأثير الكتب والجرائد والخطب والتعليم الخ تسمى « جريان الآراء »

فالجريان المذكور الذي قلما تدعمه عناصر العقل يحدث بفعل العاطفة وخلق التدين وينتشر بالتلقين والعدوى النفسية ، وكلما تداعت أركان الماضي أى دعائم الثبات النفسى الموروث يعظم شأن جريان الآراء ، فقد عانينا منذ قرن سلطان هذا الجريان كثيراً فنشيعنا لعائلة بونا بارت ثم لبولانجيه ثم لدريفوس ثم للمذهب القومى الخ

وفى الغالب يجب أن تقع حوادث هائلة ليصدر عنها جريان الآراء، فقد كانت معركة (ينا) عند الألمان وحرب سنة ١٨٧٠ عند الأفرنسيس ضروريتين لاجداث جريان آراء قادر على الزام الناس الخدمة العسكرية العامة، ولولا النصر البحري العظيم الذى ناله اليابانيون فى حربهم مع الروس لما حدث فى بلاد اليابان جريان آراء تستطيع بفضلها حكومة تلك البلاد أن تنفق كل سنة أكثر من مليار فرنك على اسطولها.

والقادة اولو العزم والفضل يقدرون على توليد جريان آراء ضرورية أو تعيين وجهة هذا الجريان على الأقل، وأما القادة المتوسطون فانهم يكتبون باقتنائهم وما استطاع اقصى الجبارة أن يباطشوا جريان الآراء زمنًا طويلاً، فقد ذكر (جوفينال) أن الامبراطور (دوميسيان) تمكن من قتل كثير من مشاهير الرجال ولكنه «هالك عندما أخذ السكافون يخافونه»، وكان نابليون نفسه يهاب جريان الآراء، فقد قال وهو فى جزيرة القديسة هيلانه: «ان للرأى العام قوة لا تُقهر ولا يقدر أحد على مقاومتها، وليس ما هو أكثر منه تقلبًا وغموضًا وسلطانًا، وهو على رغم سيره مع الأهواء ذو سداد أكثر مما يُظن».

ويبذل أقطاب السياسة كثيرًا من العناية فى ايجاد جريان للآراء او تحويل هذا الجريان، فقد سعى بسمارك سنين طويلة لتكوين حركة فكرية فى الشعب يستطيع بها أن يجعل البلاد مستعدة لاستقبال حرب تؤدى الى مالا تقدر على فعله اللغة وحدها من اتحاد بين دول المانيا، وبفضل ما نشره ساسة المانيا فى الصحف من رسائل ومقالات وخطب مؤثرة فى الرأى العام جعلوا الأمة الألمانية ترضى بانفاق أموال وافرة على تقوية اسطولها الحربى، وما تم أمر الاصلاحات التى وقعت فى انكلترا منذ قرن الا بتحريك جريان الرأى العام فيها.

ومن العوامل المولدة لجريان الآراء نذكر الجرائد اليومية والنشرات والخطب والمحاضرات والمؤتمرات، فبمثل هذه الوسائل انتشرت الاشتراكية فى فرنسا والمانيا، وتؤثر تلك الوسائل على الخصوص اذا استندت الى احتياجات ومشاعر وآمال جديدة وليس جريان الآراء السياسية - الذى هو أهم جريان نظرًا لتأثيره

في وقوع كثير من الحوادث - هو الذي يجب أن يلتفت اليه وحده ، بل يقتضى أن يلتفت الى حركات الرأى الأخرى . لأنها تدل أيضاً على الحالة الفكرية فى أحد الأدوار ، فهذه الحركات تطبع طابعها على الفنون والآداب حتى على العلوم ، وتشق الحركات المذكورة مما لبعض النظريات او لبعض الرجال من نفوذ ويعم أمرها بفعل العدوى النفسية التى هى العنصر الأساسى فى انتشار المعتقدات .

وكل من الكتّاب والمفكرين والفلاسفة والساسة يعمل ضمن دائرته فى إيجاد مجار الآراء تسير بها حضارة أحد الأزمنة ، وعلى أقطاب السياسة وحدهم يعود أمر تكوين رأى عام فى المسائل التى تمس حياة البلاد الخارجية ، وعمل مثل هذا هو غاية فى الصعوبة ، إذ يجب على اولئك الاقطاب أن يكونوا ذوى نفسية نامية يتقدرون بها على السير حسب المنطق العقلى وعلى التأثير فى مشاعر الرجال المستقلة عن كل عقل .

والمؤثرات غير العقلية التى هى سبب حركات الآراء تتبدل بحسب الأحوال تبدلاً متصلاً ، فعلى من يود أن يقبض على زمام هذه المؤثرات أن يعرف كيف يتفرس فيها وأن لا ينسى أن الرأى بعد أن تؤمن به الجماعة يصبح فى نظرها حقيقة ناصعة .

٢ - ثوران الآراء

ثوران الآراء كناية عن اتجاه انفعالات الناس الفجائية نحو غرض واحد ، وقما ينشأ عن حوادث وقعت فى غضون أحد الأدوار الطويلة مثل هذا الثوران ، وهو يظهر بتأثير حوادث عاطفية تقع بغتة أو بفعل بضعة الفاظ ينطق بها رجال نافذون قادرون على تحريك المشاعر .

ولم يكن أعظم الأبطال فى التاريخ كبطرس الراهب وجان دارك ومحمد (صلم) ولوتر ونابليون هم الذين سببوا وحدهم ثوراناً فى الآراء ، بل نشاهد كل يوم حدوث ثوران فيها وان كان على مقياس ضيق ، مثال ذلك ما نشأ عن اعدام الفوضى ( فيرير ) من ثوران أقام باريس وأقعدها وما أوجبه اجتياز طيار ببحر المانش أول مرة من الوقع العظيم فى أرجاء أوروبا .



وتكون المجالس السياسية عرضة لثوران الآراء بوجه عام ، قال ( اميل اوليقيه )  
« لا يدرك من لم يكن له كرسي في المجالس أمر تلك الحركات الفجائية التي ترحزح  
الأكثرية في أيام الأزمة عن طريقها فتجعلها تنبذ الرأي الذي استحسنته قبلاً لتقترح  
لرأي آخر يناقض الأول مناقضة تامة »

لقد بينت آنفاً كيف استطاع بسمارك بحذفه بضع كلمات من برقية ( إمس )  
أن يحدث في فرنسا انفجاراً فكرياً أدى الى نشوب حرب السبعين كما أنني ذكرت  
أن فوراناً فجائياً في الرأي أوجب سقوط وزارة ( كليمانسو ) ، والآن أقول ان ثوران  
الآراء قد لا يتعدى حدّ احدى الزمر الاجتماعية ، ولكنه لا يكون حينئذ مؤثراً الا  
إذا كانت هذه الزمرة على شيء من القوة والسلطان ، فكل يعلم أن الفتنة الحديثة التي  
أوقدها أحد أحزاب مقاطعة الشنبايا اوجبت حرق كثير من معاصر الحجر الكبيرة  
التي آخذ السكرامون اصحابها على اشتراهم المنتجات من مناطق أخرى ، وما كان  
أمر تلك الفتنة ليتم لو لم يشعر العصاة بقوة عددهم وبضعف الحكومة إزاءها .

وأكثر الثورات الحديثة اشتعلت على أثر انفجار في الرأي ، واذا لم نبحث  
عن ثورة ٤ ايلول التي حدثت عندما علم الناس خبر انكسارنا فانا نرى أن حادثات  
كسقوط الملكية في البرتغال وفتن برلين وعصيان برشلونه والانتقال التركي الخ لم  
تقع الا بغتة بفعل مؤثرات خفيفة ، وفي وقوع الثورات الشعبية فجأة ما يوجب العجب  
ويستوقف النظر ، اذ يرى أن اكثر الجموع تشترك فيها بتأثير العدوى النفسية من غير  
أن تعلم السبب الذي من أجله نشبت ، ولما بين تاريخ أغلب الثورات من شبه فانا  
نعد هذا التاريخ يتجلى في عبارات الموسيو ( جورج كين ) الموجزة التي لخص فيها  
ثورة سنة ١٨٣٠ واليكها :

« لقد وقع الانفجار الذي هيج باريس فجأة ، فلم تمض بضع ساعات حتى  
سُدت الأزقة بالمباريس وتنظمت كتائب مسلحة وضربت الطبول اشارة للجمع  
الحرس الوطني وتجهز العمال والطلبة في الأسواق وتسام طلاب مدرسة ( البوليتكنيك )  
قيادة العصاة وأصبح كل باريسى شاكياً سلاحاً ، ونادى الجميع : فليسقط شارل

العاشر! فليستط بوليناك! فلتستط مراسيم الملك! فليحي الدستور! مع أن العصاة كلهم كانوا يجهلون معنى الدستور وما في المراسيم من أحكام، فتأمل!

وماً يلاحظ أن الحركات الثورية تنتشر سريعاً بتأثير العدوى النفسية بين الناس حتى بين الذين لا يهمهم أمر حدودها، فجنود البارجات الروسية الذين تمردوا أيام الثورة لم يرفعوا راية العصيان إلا بفعل العدوى، وإلا فماذا يهمهم كون روسيا نالت مجلساً نيابياً أم لم تنل وكون الفلاحين أصبحوا ذوي حق في اشتراء أراضٍ أم لم يصبحوا؟

فإن أوصاف الثورة البارزة أنها تضيع بين أناس لا يفهم أمر نشوبها، بل قد يخسرون كل شيء عند وقوعها، فسوف يلحق أبناء الطبقة الوسطى هلاك كبير حينما يتم النصر لما يؤيدونه من المبادئ الاشتراكية الثورية.

ومن حسن الحظ كون ثوران الآراء الشعبية الخطر — لعدم تأثير العقل فيه — لا يدوم طويلاً، ولا تفعل مقاومته مباشرة غير تحريكه، فقد كان إصرار أركان الحرب أيام قضية (دريفوس) على نقض بضع وثائق سبباً في تهيج الرأي العام وفورانه. وبجانب الحوادث المشهورة التي أشرت إليها آنفاً نشاهد ضروباً صغيرة لثوران الرأي، فيكفي لايقاظها استعمال بضعة الفاظ تؤثر في المشاعر، وقد جربت ذلك في أمر بارز بسيط اليك بيانه:

كانت إدارة الاملاك الأميرية قررت لأسباب اقتصادية بيع قطعة من حديقة (سان كلو) مقيدة في سجلات الإدارة المذكورة باسم غابة (فيلنوف ليتان)، وبما أن امضاء هذا البيع نكبة على سكان تلك الضاحية الذين تعودوا التنزه في الحديقة المذكورة فكيف يحال دون انعقاده؟

لقد علقت إعلانات البيع الرسمية على الجدران، وحيث إن الجمهور لا يعرف مدلول ذلك الاسم الإداري لم يحرك ساكناً، غير أنني وجهت نظر مقرري لجنة الميزانية إلى هذا الأمر ذي العلاقة بالمنفعة العامة فوعدوني خيراً، ثم مرت الأيام تلو الأيام ولم يبق ليوم عقد البيع البات القاطع سوى اسبوع واحد، وفي تلك

الأثناء عنت أن البيع سوف ينعقد مع أحد يهود ألمانيا فنشرت في إحدى الصحف الكبيرة مقالة موجزة عنوانها « بيع حديقة ( سان كلو ) الى الالمان » ، وما كاد الخبر يعم حتى حدث ثوران في الرأي العام فتهاقت فوج من مراسلي الصحف على بلدية ( سان كلو ) لاستقصاء حقيقة الأمر وملاّت الجرائد أعمدتها بمقالات طنانة عن هذا الموضوع ، ثم استُجوب الوزير في مجلس النواب فصرح بالعدول عن البيع في الحال والمستقبل .

وهكذا كفى لنيل النتيجة المذكورة نشر ثلاث كلمات ، فكلمات مثل هذه هي من الصيغ المؤثرة القادرة على تحويل المشاعر الفردية الى عزم جامع شامل .

---

# الباب الخامس

## حياة المعتقدات

### الفصل الأول

#### صفات المعتقد الاساسية

١ — المعتقد احتياج نفسى مهيم

لقد عرفنا المعتقد في الفصل الأول من هذا الكتاب بأنه الايمان وذكرنا الفرق بينه وبين المعرفة وتكلمنا بإيجاز عن شأنه ، وأما الآن فسنبحث عن حياة المعتقدات . إن العناصر التي يتألف منها كياننا تتصل بثلاثة انواع من الحياة أعني : الحياة العضوية والحياة العاطفية والحياة العقلية ، والاحتياج الى الاعتقاد هو من مظاهر الحياة العاطفية ، وهو في تجربته وسيطرته كالجوع والحب ، وبما أن المعتقد هو احتياج مهيم على طبيعتنا العاطفية فانه لا يكون إرادياً عقلياً ، ولا يقدر العقل على تكوينه وتسييره . ومهما يكن عرق الناس ووقت ظهورهم ودرجة جهلهم وعلمهم فإنهم سواء في عطشهم الى المعتقد ، فكأن المعتقد غذاء نفسى ضرورى لحياة الروح كضرورة الغذاء المادى لحفظ الجسم ، وما مبدأ الشك العام الذى قاله ( ديكارت ) غير خيال وهمي ، فاذا دخل المرء في طور اللادرية فذلك لأجل قصير ، والحكيم وان كان لا يعتقد الأمور كالجاهل الا أن الاشياء التي يؤمن بها قلما تكون قائمة على الدليل والبرهان . وقد أوضحنا الفرق بين المعتقد والمعرفة في أوائل هذا السفر ايضاً كافيًا فرأينا أن المعتقد إيمان أنيع في عالم اللاشعور ولا يحتاج لإثبات أمره الى أية حجة تدعمه

مع أن المعرفة هي بنت الحياة الشاعرة وتقوم على التجربة والاختبار ، فالمعرفة نعلم وبالمعتقد نسير ، ولو أُلزم الإنسان اكتساب المعرفة قبل أن يسير لاعتبرته البطالة والجمود زمنًا طويلًا ، وقد ظلت المعتقدات وحدها أدلاء البشر قرونًا عديدة ، فهي التي أنارت لهم السبل في جميع المسائل ، ولم تكن الأديان منشأ احتياج الناس الى الايمان ، بل إن هذا الاحتياج هو بالعكس علة الأديان ، فحتى ترك المرء دينه لم يلبث أن يعتق بفريزته معتقدًا آخر صنمًا كان أم سحرًا أم خرافة سياسية الخ .

٢ — عدم التسامح في أمر المعتقدات .

عدم التسامح هو احدى صفات المعتقدات العامة الثابتة ، وكلما كان المعتقد قويًا قل تساهله ، فالناس بعد أن يدخل إيمانٌ في قلوبهم لا يصطبرون على من ليس عليه ، هذه هي سنة أجرت حكمها في جميع الأجيال ولا تزال تجريه ، وكلُّ يعلم درجة ما يصل اليه المعتقدون من صولة دينية كفارًا كانوا أم قانتين ، فالحروب الدينية ومحكمة التفتيش وملحمة السان بارتلمى والغاء مرسوم نانت والهول الأكبر واضطهاد الاكايروس في الوقت الحاضر الخ أمثلة على تلك الصولة .

وإذا كان لتلك السنة شواذ نادرة سهل ايضاحها ، فالرومان لم يعترفوا بالهة مختلف الشعوب التي دخلت في ذمتهم إلا لأن هذه الآهة في نظرهم عبارة عن سلسلة من الموجودات العلوية يجب اجتذابها بالعبادة ، وكذلك البوذية فانها لم تؤد الى اضطهاد ، إذ هي متساهلة بما تأمر الناس به من التجرد عن الرغائب والشهوات وباعتبارها الآهة والموجودات أوهاماً لا أهمية لها ، وليس من سبب يجمعها عدية التسامح .

إذاً مثل هذه الشواذ توضح نفسها بنفسها ، وليس فيها ما يناقض التاموس العام القائل إن المعتقد عديم التساهل بحكم الضرورة .

والمعتقدات السياسية هي كالمعتقدات الدينية في عدم تسامحها ، فليس من يجول الشدة التي أباد بها رجال العهد الذين اعتقدوا أنهم على الحق المطلق خصوم ايمانهم السياسي ، وأنصار الإهة العقل في الوقت الحاضر هم كهؤلاء ، شدة وتعصبًا وتعطشًا الى القرابين البشرية ، وستظل كلمة القديس ( طوماس ) الآنية مبدأ لكل مؤمن حقيقى

وهي : « إن الإلحاد إثم يستحق صاحبه القتل » ، ولذلك أصاب الموسيو ( جورج  
صورييل ) حيث أنبأ بأن أول عمل تأتي به الاشتراكية المنتصرة هو قتل أعدائها  
بلا رحمة ، وإلا فكيف يستقيم أمرها حيناً من الزمن إذا لم تفعل ذلك ؟

وعدم التسامح في أمر المعتقد وما ينشأ عنه من الاضطهاد ليسا عند العوام أقل  
منهما عند المتعلمين ، بل قد يكونان عند هؤلاء أنقى وأكثر استمراراً ، قال ( ميشليه ) :  
« أعجب أحياناً من قسوة المتعلمين الشديدة التي قد لا يأتى بمثلبا من هم أقل علماً  
وأدنى معرفة . »

٣ — استقلال الرأي ، شأن عدم التسامح الاجتماعى .

إذا دُرس عدم التسامح في أمر المعتقد من الوجهة العقلية وحدها بدا شيئاً  
ثقيلاً لا يُطاق ، وأما إذا نُظر اليه من الوجهة العملية فإنه لا يكون كذلك ، لأنَّ  
الرغبة في الاستقلال الذى يتخاص به المرء من سلطان المعتقد العام أمر شاذٌ ، وكلُّ  
يتحمل استعباد البيئة الاجتماعية المحددة للاستقلال الشخصى من غير أن يتظلم ، وفى  
الغالب لا يشعر الإنسان بذلك الاستعباد ، ولا بد له فى البداية من التحرر من ربة  
البيئة - كأن يعيش منزوياً - لكي يصبح حراً حقيقياً .

وكل ما يمكن المرء أن يناله من الاستقلال هو أن يقدر أحياناً على مقاومة ما يشيع  
بين الناس من تلقين شامل ، وبذلك يمتاز من أفراد زمرة الذين يتبعون ما يطرأ على  
هذه الزمرة من معتقدات وآراء وأوهام كالهشيم الذى تدرره الرياح .

وصفوة الناس القليلة هي وحدها ذات آراء شخصية فى بعض الأحيان ، والى هذه  
الصفوة المالية يعود فضل الإتيان بمبتكرات الحضارة ، ولا تبنى زيادة عددها كثيراً ،  
لأنه لما كان المجتمع لا يقدر على ملاءمة مبتكرات متتابعة صادرة عن صفوة  
كثيرة العدد فإنه يقع فى الفوضى بعد ظهور صفوة كبيرة ، فالثبات الضرورى لبقاء  
المجتمع قد تم أمره بفعل جماهير الناس ذوى النفوس البطيئة القليلة الذكاء التى  
تقودها البيئة والتقاليد .

فمن المفيد أن تكون اكثرية المجتمع مؤلفة من متوسطى العقل الذين

لا رائد لهم سوى ما فى البيئة من آراء ومعتقدات عامة ، ومن المفيد أيضاً أن تكون الآراء العامة قليلة التسامح ، إذ الخوف من انتقاد الآخرين هو أحد الأسس الأخلاقية المتينة ، ويكون التوسط فى العقل أكثر فائدة للأمة إذا اجتمع مع بعض المزايا الخلقية ، وقد اطلعت انكلترا على ذلك بغريزتها فبقيت على رغم كونها من أكثر بلاد العالم حرية تمتت كل فكر متطرف .

٤ — اشتداد المعتد ، الشهداء .

بين رأى الموقت وبين المعتد التام الذى يستولى على العقل وقوة التميز مراحل قلما قطعت ، وحينما تجاز فى بعض الأدوار النادرة تشتد اندفاعات المرء الدينية وما توجه من المشاعر حتى لا تقدر على ردعها جميع الزواجر الاجتماعية وعقوبات القوانين ، ووقتئذ يظهر أمثال (بوليوكت) الذى حطم الأصنام والشهيد الذى لم يبال بسيف الجلاد والعدى الذى رمى قبلة بين جم غفير ليقتل أميراً .

ومتى بلغ معتد المرء هذه الشدة لم يقم فى وجهه حاجز فيستولى على أوضح منافعه وأعز مشاعره ويجعله يرى الخطأ صواباً والصواب خطأ ويدفعه الى التضحية بنفسه فى سبيل نشر ايمانه والذود عنه .

والشهداء جميعهم ذوو نفسية واحدة ، أى لا فرق بين نفسية من ذهب منهم ضحية السياسة ونفسية من ذهب ضحية الدين او المبادئ الاجتماعية ، ولما سحرتهم حلاوة المبدأ ضحوا بأنفسهم بوجوه مبتسمة انتصاراً له غير طامعين بثواب فى الدنيا ولا فى الآخرة أحياناً ، يؤيد ذلك تاريخ العدميين والارهابيين فى روسيا الذين يلقون بأنفسهم الى التهلكة غير راجين دخول ملكوت السموات .

ومن حسن الحظ أن عدد هؤلاء المهوسين قليل فى كل دور ، ولو زادوا لقلبوا العالم ، والبحث عن الشهداء هو من خصائص علم الامراض النفسية ، ولما بين المهوسين من شبه كبير على رغم التباين بين معتقداتهم فان اثنين أو ثلاثة منهم يؤدى الى الوقوف على حقيقة الباقين .

ولا ينشأ عن الايمان تحول فى الآراء فقط بل تتبدد أمام سلطانه مشاعر قوية

الى الغاية كالخوف والحشمة وحب الأبرين ، ويشهد بصحة هذا القول تاريخ الشهداء الذين نعد القديسة ( بيريتوا ) التي ظهرت في عهد الامبراطور ( سبتيم سيفير ) الروماني مثلاً لهم ، فهذه القديسة الجميلة المثيرة التي هي بنت رئيس مجلس شيوخ ( قرطاجنة ) والتي اعتنقت الديانة المسيحية سرّاً فضلت عرضها عارية أمام الجمهور لتلتئمها الحيوانات المفترسة على أن تحرق اللبان في الهيكل الامبراطورى .

ومما يعتقد المؤمنون هو أن هذه الأحوال دليل على قدرة آلهتهم ، فلا ريب في أن هذا الاعتماد وهم باطل . ذلك لأن جميع الأديان والمذاهب السياسية لها شهداء كالذين أشرنا اليهم .

ومن بين ألوف الأمثلة نورد الديانة البابية التي انتشرت منذ ستين سنة في بلاد فارس مثلاً على ما ذكرنا :

لقد ظن الشاه آنتد أنه يقدر على إطفاء هذا الايمان الجديد بسوم أنصاره سوء العذاب ، ولكن انظر ماذا حدث حسب تقرير ( غوينو ) : « تقدم الأطفال والنساء نحو السيافة وهم ينشدون بصوت عال « الله خلقنا واليه مردنا » ، وكان الشهيد وقتما يقره السياف ينهض قائماً وهو يقول بحماسة « الله خلقنا واليه مردنا » ، ومما شوهد على الخصوص أن جلاداً قال لوالد إنه سيضرب على كتفيه عنق ولديه إذ الم يرجع عن مذهبه ، فأجاب الوالد ملقياً نفسه على الأرض أنه لا يبالي بذلك ، ثم تقدم ولده الكبير - وكان في الرابعة عشرة - طالباً بصفته اكبر الأبنين أن يذبح قبل أخيه ، وكان أحد أشياع الباب وهو معاق على سور تبريز لا ينطق الا بهذه الكلمة وهي : إلهي ، هل أنت راض عنى ؟ » .

ومثل ذلك الاضطهاد الذي عاناه في هذه الأيام أنصار مذهب ( السكوبسى ) في روسيا وأتباع مذهب ( المورمون ) في الولايات المتحدة ، وقد فضل جميع هؤلاء العذاب على الرجوع عن ايمانهم .

ثبتت هذه الحوادث وما شاكلها ما في الروح الدينية من قوة قادرة على تبديد الألم على قبر المشاعر التي يقوم عليها كيان الانسان ، فإذا استطيع العقل أن يفعل أمامها؟



الآنحرك الجوع بالبراهين العقلية ، وأما بالاعتقد فيمكن التغلب عليها على الدوام ،  
والعقل، على ما فيه من سلطان يقدر أن يقاتل به الطبيعة، يعجز عن تكوين المعتقدات .  
وبفضل المعتقدات التي تخرب أحياناً وتبدع غالباً وتلتصر دائماً تتأسس دول  
التاريخ الرهيبة ودعائم الحضارات الصادقة ، ولولا المعتقدات لما عاشت الأمم .

### الفصل الثماني

ما ينشأ عن المعتقدات من اليقين وما يقنع به المؤمنون من الأدلة

١ — ما ينشأ عن المعتقدات من اليقين .

ينشأ عن المعتقد القوي يقين لا يزعه شيء ، ومن مثل هذا اليقين تشتق أكثر  
حوادث التاريخ أهمية ، فقد أيقن محمد ( صلعم ) أن الله أمره بالدعوة الى دين جديد  
أوحى به لتجديد العالم فاستطاع بفضل يقينه أن يقلب الدنيا ، وأيقن بطرس الراهب  
أن الرب يريد استرداد قبر المسيح من يد الكفار فاستطاع بقوة إيمانه أن يسوق  
ملايين من الرجال الى الهلاك ، وأيقن لوثر أن البابا عدو المسيح وأن لا أساس  
للمطهر في النصرانية فاستطاع بذلك اليقين أن يشعل في اوربا حروباً امتدت قروناً  
طويلة ، وأيقن قساوسة محكمة التفتيش أن الرب يريد حرق الخوارج فاستطاعوا  
بفعل هذا اليقين أن يستأصلوا أهل اسبانيا ، وأيقن شارل التاسع ولويس الرابع  
عشر أن خالق السماوات والارض لا يسمح ببقاء البروتستان فأوجب الاول حدوث  
ملحمة السان برتلمى وطاردهم الثاني شر مطاردة ، وأيقن رجال العهد بوجوب  
ضرب كثير من الرقاب في سبيل سعادة البشر فأدى ذلك الى وقوع حروب كثيرة  
ثم الى اعلان الحكم المطلق ، وهلاك من أجل هذا ثلاثة ملايين من الرجال في اوربا ،  
ويوقن اليوم مئات من أبناء الطبقات الوسطى بأن الاشتراكية ستصلح الكون فهم  
بهذا اليقين يقوضون غاضبين دعائم المجتمع الذي يعيشون فيه .

ومن نتائج اليقين الناشئ عن المعتقد ظهور بضعة مبادئ، خلقية قوية هي السبب في حدوث شعور جديد يكون دليلاً على السير، ومما يدل على ذلك أن الثورة الفرنسية لم تكف حتى اقترب الذين كانوا في العهد السابق مسلمين أعمالاً دامية خاضعين لحكم اندفاعات أورثهم إياها إيمانهم الجديد، ومن هؤلاء المدفعين سفاكو شهر ايلول الذين طلبوا أجراً قومياً على ما اجترحوه ومنهم زعماء العصابات الذين خربوا مقاطعة (فاندة) (١)

ويتضمن اليقين الديني واليقين العاطفي في الانسان احتياجاً يدفعه الى حمل الناس عليهما، فالمرء عند ما يؤانس من نفسه قوة لا يتحمل أن يرى يقيناً غير يقينه عند الباقين، ولا يتأخر ثانية عن اعتراف اشد المظالم والأتيان بافطع المذابح في هذا السبيل، حقاً لقد خرب أولو اليقين العالم في كل زمان، ومما يخشى على الأمة أن يقودها هؤلاء، وإن كانوا كما قال (ريبو) يقبضون على زمام تلك الأمة في بعض ادوارها.

فليوقن رجل ذو قوة كامبراطور المانيا أنه يقبس قوته من الله ثم ليتوهم أن الله امره بشهر الحرب على الملاحدة لئرى كيف يقرب أوربا كما قلبت في الماضي بفعل مثل ذلك اليقين.

٢ — الأدلة التي يقنع بها المؤمنون

المعتقد هو ايمان لا يتطلب لثبات امره أدلة وكثيراً ما لا يتحقق بالأدلة، ولو قام الأيمان على الدليل العقلي وحده لكان عدد المعتقدات التي ظهرت على مر الاجيال قليلة، وبراھين المؤمنین في الغالب صبيانية بالنسبة الى العقل، ومع ذلك فليس من خصائص العقل أن يقضى فيها لاشتقاقها من عناصر دينية أو عاطفية لا صلة بينه وبينها.

---

(١) تنجلى نفسية هؤلاء بمطالعة الكتاب الذي أرسله وقتئذ الجندي (جوليكار) ونشرته حديثاً جريدة الطان في عددهما الصادر في ٢٦ تشرين الأول سنة ١٩١٠، واليك بعض ما جاء فيه: « سنزرو ونخرب مقاطعتي (دوسيفر) و (فانده)، وسنعمل فيهما الحديد والنار وسنحمل البنادق في يد والمشاهل في الاخرى وسوف نقتل النساء والرجال بالسيف، هذا وقد حرقنا حتى الآن سبعة فراسخ فاغتنى بذلك كثير من الجنود »

ولما كان العقل غير مشترك في تكوين المعتقدات فإنه لا أحد لسرعة التصديق في المؤمن . ولا يتخيل المؤمن أنه يعتقد الأشياء من غير برهان بدليل أنه يستشهد بالبراهين على الدوام ، غير أن هذه البراهين التي يقنع بها تدل على ما فيه من سذاجة متناهية وسرعة تصديق متأصلة .

ويتجلى لنا هذا الأمر من مطالعة الكتب التي بحثت عن الوسائل التي استعان بها القضاة المنعوتون في الماضي بالجهاذة لكشف السحرة . فإنها تدل مع رسائل علم اللاهوت على الهوة العميقة بين الدليل الذي يتطلبه العلماء والدليل الذي يقنع به المؤمنون المقذوف بهم في دائرة المعتقد ، ولا فائدة من إيراد كثير من الأمثلة على ذلك ، فإنها كلها تشابه ما حدث في الدعوى التي أقيمت على الكاتب ( البانو ) الايطالي ، فقد استشهد على أنه تعلم « سبع المهن الحرة » من سبعة عفاريت من الجن باكتشاف زجاجة علاج مركب من سبعة أدوية مختلفة في بيته ، ومع كونه في الرابعة عشرة من عمره فقد أوشك القضاء أن يحكم عليه بالحرق حياً لو لم يمت فجأة بفضل حماته من العفاريت ! ، حينئذ اكتفى القضاة بنبش قبره وحرقة ميتاً في أحد الميادين العامة .

وقد ندر حرق السحرة في عهد لويس الرابع عشر ، ولكن ما من أحد كان ينكر قدرتهم ، وقد كشفت قضية الساحرة ( فوارين ) أن أكبر ذلك الوقت - ومنهم المارشال ( دولكسنبرغ ) وأسقف ( لانغر ) الذي كان واعظ الملكة الأولى - كانوا يعوذون بقدرة السحر ، وإلى هذه القدرة طلب المطران ( سيميان دوجورج ) أن تعطيه جبل روح القدس الأزرق !

وما يقصه العرافون والرمالون في الزمن الحاضر من انصاهم بعالم الشياطين يثبت لنا أنه لم يذهب شيء من بساطة الإنسان وسرعة تصديقه ، ومن اغرب ما عايناه أن أحد الوزراء المعروفين بعداوتهم للأكليروس لا يخرج من بيته الا حاملاً حبل مشنوق وأن احد سفرائنا لا يأكل على خوان عليه ثلاثة عشر مدعواً ، فهل وثنية أمثال هذين القطيين أرقى من المعتقدات الدينية التي يحاربونها بما أوتوا من قوة ؟ لا شك لا . ويشعر المؤمنون في كل وقت بضرورة إيجاد براهين يدعمون بها إيمانهم كي يهدوا

الكفرة على الأقل ، وما بذلوه ويبدلونه من المساعي العظيمة في وضع مؤلفات لعلم اللاهوت يثبت لنا درجة سيطرة هذه الضرورة .

إنهم - عدا ما يذكرونه في كتبهم من المعجزات البيئات - يعدون الاجماع العام برهاناً ساطعاً على صحة دينهم ، ولم يتردد بعض الأفاذا كبوسويه في انتهاج تلك الطريق ، فلما اعتبر هذا الخبر الشهير الآراء الفردية خطرةً جديةً بالازدراء قال إن الشعور العام هو على الحق وإن المذهب يكون صحيحاً بعد أن يتفق الجمهور على صحته وإن الفرد لا يكون مصيباً وبقية الناس مخطئون ، وما كان خطل هذه البرهنة ليبدو لو لم تثبت مبتكرات العلوم أنها لم تظهر إلا لأن المرء وهو مفرد على حق أكثر من الجموع الحافلة والجاهير الحاشدة .

٣ - التصادم بين العلم والمعتقد .

لقد بينا أن دوائر أنواع المنطق هي من الاختلاف بحيث لا تجاوز إحداها حدود الأخرى فلا تتصادمان ، ومع ذلك فإن هنالك نقطة يظهر أن العلم والمعتقد يتقاتلان من أجلها نظراً لكونها تتعلق بمبدأ أساسي .

لعل أهم ثورة ظهرت في عالم الفكر هي الثورة التي أدى إليها العلم بإثباته أن الحوادث تصدر عن نواميس مهيمنة لا عن أهواء الآلهة ، إذ بهذه الثورة تبدلت الكيفية التي ننظر بها إلى الكون دفعة واحدة ، وهذا الاكتشاف العظيم الشأن الذي أخرج البشر أول مرة من دائرة المعتقد إلى دائرة المعرفة لم يعم بعد ، إذ إن كثيراً من الناس يعتقدون أن قوى ما بعد الطبيعة تسير الحوادث وتقدر على تغيير مجراها عند ما يُستغاث بها .

فما أن هذا التصور هو وليد الآمال التي لا تموت أبداً فإن التباين بين العلم والمعتقد سيقى على هذه النقطة ، ويظهر أن التباين المذكور أبدي ، لأن العلم مع أنه لم يترك أثراً للآلهة في البقاع التي ارتادها لا يستطيع أن يثبت للمؤمنين أنه لا شيء في البقاع التي لم يرد لها بعد ، فمن خلال هذه البقاع غير المطروقة تتراءى اشباح يتخيلها ذوو الايمان .

والإنسان بتركه مبدأ الوجوب في تسلسل الحوادث يعود الى المبدأ الذي قضى عليه بعد عناء كبير والقائل إن مصدر الحوادث هو الآلهة ذات الاهواء ، فلو أن الحادثات التي يخبر بها اولو الكرامات في الوقت الحاضر ممكنة لتقهقر العلم طائماً الى قرون الاساطير حيث كان مصير الحروب بيد الآلهة وكانت كتائب الأرواح والجن والغيلان والعمقاريت تتدخل في أمور البشر اليومية ولرأينا قراءة العزائم والصلوات والقرابين والتعاويد تصبح اليوم كما كانت في الماضي وسائل فريدة لاستعطاف هذه القوى الهوائية .

وليس ما ينافي هذه القهقرة ، لأن نفسية الانسان الدينية تهيمن عليه في كل وقت فترغمه على الالتجاء الى ما بعد الطبيعة وإن كان البحث الدقيق في خوارق ما بعد الطبيعة يدلنا على أن هذه الخوارق عبارة عن أوهام تكونت في نفوسنا ، وسوف نبين ذلك عند ما نوضح في باب آخر كيفية تكوين بعض المعتقدات ايضاحاً قائماً على التجربة .

### الفصل الثالث

#### الشان المنسوب الى العقل والارادة في تكوين المعتقد

١ — استقلال العقل واستقلال المعتقد

تعلم المباحث التي درست أمر تكوين المعتقدات أن هذه المعتقدات إرادية عقلية ، ومصدر هذا الخطأ هو الشأن الكبير الذي نسب الى العقل في كتب علم النفس ، وأما نحن فقد فرقنا في هذا الكتاب بين الذات العاطفة والذات العاقلة وأثبتنا أنه يسيطر على هاتين الذاتين أنواع منطق مختلفة وأن العقل الذي هو عنوان الذكاء مستقل عن المعتقد الذي هو عنوان الشاعر وخلق التدين ، وقد زدنا هذا الاستقلال وضوحاً عند ما قررنا أن المعتقد والمعرفة يستندان في تكوينيهما الى طرق وأساليب متباينة كل التباين .

ولو نظرنا الى أكثر منازعاتنا السياسية والدينية لرأيناها ناشئة عن زعمنا الوهمي الذي نريد أن نجعل به الأمور المتباينة يؤثر بعضها في بعض كالمعتقد والمعرفة مثلاً ، ولا تقدر على استكناه قوة المعتقدات الا إذا اعترفنا بأنها بعيدة من أى مؤثر عقلي وقد يلوح للقارىء أنه ليس من المفيد أن نعود الى هذا الموضوع مرة أخرى ، ولكن ليعلم أن الأدلة مهما تكن عديدة فانها لا تكفي لمقاتلة أوهام مستعصية كهذه .

ولو كان العقل قادراً على التأثير في المعتقدات لأصبح كل ما هو مخالف للصواب منها في خبر كان ، فبرى والحالة هذه أن تلك المستحيالات العقلية لا تزال ثابتة في النفوس ، ولذا ترانا مكرهين على التسليم بأنه لا مستحيل عند المؤمن وبأن المرء ليس حراً في الاعتقاد وعدمه .

إن المؤثرات العاطفية والدينية التي هي أساس المعتقد هي كما قلت غير مرة تختلف عن سلسلة المقولات التي تستند اليها المعرفة ، فلا فحص ولا تحقيق في أمر المعتقد وأما في أمر المعرفة فالتدقيق هو القاعدة وعلى حكمه ينزل كل معترض .

ومما تتصف به المعتقدات هو كونها تولد أوهاماً في النفوس وترغم هذه النفوس على الخضوع لسلطانها ، ثم ان الانسان قد يتخلص من ربة الظلمة المستبدين ولكنه يعجز عن التحرر من سيطرة المعتقدات على الدوام ، ويعبد الذين هم مستعدون للتضحية بأنفسهم في سبيل المعتقدات بالألوف مع أنه لا يعرض واحد من هؤلاء نفسه للخطر انتصاراً لاحدى الحقائق العقلية .

ولم يقدر دور العقل الذي دخل البشر فيه حديثاً بفضل مبتكرات العلوم على زعزعة قوة المعتقدات ، بل ربما لم تظهر معتقدات سياسية او دينية او اجتماعية عديدة في زمن مثل ظهورها فيه ولا سيما في اميركا وروسيا حيث يتكون كل يوم معتقد جديد .

تطور الأشياء الطبيعي ، وأما المعتقد في دور انتصاره فإنه لا يحاول أن يقاتل العقل نظراً لأن هذا الأخير لا يعارضه في ذلك الحين .

حقاً ليس ما هو أندر من ظهور أناس في دور الايمان هم من الاستقلال بحيث يجادلون في أمر المعتقد بمجادلة عقلية ، فيثبت لنا مثال ( باسكال ) ماذا تكون نتائج التنازع بين المنطق العاطفي والديني من جهة والمنطق العقلي من جهة أخرى : كان هذا المفكر الشهير يكتب في زمن يخضع الناس فيه للحقائق الدينية غير مناقشين ، أى في زمن لا يجرؤ فيه غير اولى العبقريّة مثله على فحص هذه الحقائق فحسباً عقلياً ، ولكن ما أصابه من الفشل في مسعاه يؤيد مرة أخرى لنا عجز العقل عن التأثير في المعتقد ساق ذكاء ( باسكال ) الواسع الى اطلاعه على بطلان القصة القائلة إن الله انقم لنفسه من ابنه على الخطيئة التي ارتكبها احد خلقه في بدء العالم ، ولكن سرعان ما خرّ منطقه العقلي ساجداً أمام اندفاعات منطقه الديني ، إذ لما استحوذ عليه ما ألقاه المنطق الديني في قلبه من خوف الجحيم وكان مع ذلك يود أن يدافع عن معتقده ببراهين مقبولة اعتبر حياة الآخرة كناية عن مراهنه مخيفة ، لأن العذاب الأبدي واقع ان كان وجود جهنم متحققاً ، قال هذا الفيلسوف مؤكداً : « إزاء هذا الارتباب تجب المراهنه على وجود حياة في الآخرة ويجب على الانسان أن يسير كأن هذه الحياة موجودة »

وبعد أن اقتنع ( باسكال ) بذلك على هونٍ حاول - ولكن عبثاً - أن يدعم عقيدته بمنطقه العقلي ، فالمعجزات والاخبار بالغيب من جملة البراهين التي تدرع بها هذا المفكر العظيم ليثبت صحة ايمانه إثباتاً عقلياً ، ولكن بما أن هذه الأدلة قد التجأت اليها جميع الأديان فإنه لم يسعه سوى انكار ما حكمت عنه هذه الأديان ، إذ قال : « يستطيع كل انسان أن يأتي بمثل ما عمله محمد الذي لم يجيء بمعجزة ولم ينبيء بنبيء نغيب ، وأما ما أتى به يسوع المسيح فلن يقدر احد على فعل ما يدانيه » ، غير أن منطق ( باسكال ) الديني لم يسمح له بالبحث عن السبب في كون الاسلام والبوذية لهما ما للنصرانية من الانتصار والتابعين .

ومع ما في برهنة هذا الحكيم من الدقة كان يشعر بضرورة دعم ايمانه بأدلة

قد لا يرضى بثلمها العقل السديد ، ثم كان يقول ان الايمان واجب للنجاة من نار جهنم على فرض وجودها ، ولكن كيف يدخل الايمان في قلب الانسان ؟ اسمع ما يقول « ان كنتم تريدون ان تكونوا مؤمنين فباشروا الأمر كأنكم مؤمنين اى اشربوا ماء المعمودية وأقيموا القداس الخ وبذلك تصبحون من المؤمنين »

يثبت لنا مبحث ( باسكال ) عجز العقل عن مقاتلة المعتقد ، وبهذا العجز نفسر بضع حوادث تاريخية غامضة في ظاهرها كحادثة دير ( بور رويال ) التي كدرت صفاء جانب من عهد لويس الرابع عشر ، كان في ذلك الدير بضعة رهبان أتقيا لهم رأى خاص في نظرية المشيئة الأزلية ، ولو نظر الى مباحثهم في الغفران وتناول القربان وقضايا ( جانسينيوس ) الخمس من الوجهة العقلية لتبين أنها لا تستحق الاهتمام ، ومع ذلك اوجبت في القلوب غضباً شديداً أدى الى نسف الدير المذكور وتشيتت شمل رهبانه مع كونهم عنوان الفضيلة والصلاح ، فلو كان العقل ذا تأثير في وقوع مثل ذلك الحادث لتمذر ايضاح أمره .

وتلك المعتقدات تنضج في عالم اللاشعور فلا سلطان للعقل ولا للارادة عليها ، وهي نتيجة تلقين كالتلقين الذي يأتي به جميع المنومين في الوقت الحاضر نعم قد يلقي العقل في النفس شوقاً الى الاعتقاد ولكنه يعجز عن حمل الانسان عليه ولن يكون المرء ذا اعتقاد باتباع نصيحة ( باسكال ) القائلة إن الرجل يصير معتقداً بعد أن يرغم نفسه على الظهور بمظهر المؤمن ، فالإرادة مهما تكن قوية لا تقدر على إدخال الايمان الى القلب .

ولأن المعتقد مستقل عن العقل فاننا لا نعجب كما لاحظ ريبو « من مشاهدة ذوى العقول السامية الذين انقطعوا الى مناهج العلم وأصوله يؤمنون في أمور الدين والسياسة والأخلاق بآراء صبيانية يترفعون عن المجادلة فيها ثانية واحدة لو كان المؤمنون بها غيرهم . »

وفي الغالب نعاني المعتقدات غير مناقشين فيها ، وحسناً ما فعل ، فسوف يشيخ العالم كثيراً قبل أن يوازن العقلُ خلقَ التدين .



## الفصل الرابع

### كيف تثبت المعتقدات وكيف تتطور

١ - كيف تثبت المعتقدات .

الحقيقة تكون عقلية إذا كانت غير شخصية ، وما استندت اليه من دعائم يبقى مؤبداً ، وأما المعتقدات فلأنها شخصية ولاستنادها الى مبادئ عاطفية أو دينية تخضع لجميع العوامل التي تؤثر في الاحساس ، وعليه وجب أن تكون متقلبة تقلباً متتابعاً .

ومع أن الأمر يقتضى أن يكون كذلك فإن أجزاء المعتقد الجوهرية تثبت إذا دافع عنها دفاعاً مستمراً ، وإلاّ فإنها لا تلبث أن تنحل عراها ، والتاريخ أكبر شاهد على صحة قولنا ، إذ هو مفعم بأقراض معتقدات لم تثبت بسبب ذلك إلا قليلاً .

ولا يكفي لثبات المعتقد إثباته كتابةً ، لأن الكتابة لا تفعل غير تبطئة زواله بفعل الزمن ، فالمعتقد الدينى أو السياسى أو الأخلاقى يثبت على الخصوص بتأثير العدوى النفسية والتلقين المكرر ، ومن مقومات هذين الركنين نعد الصور والتماثيل والحج والطقوس والترنيل والموسيقى والوعظ والإرشاد الخ .

ولو نُفِيَ المؤمن المتعصب الى بادية ليس فيها ما يذكّره بدينه لضعف إيمانه بسرعة ، فالذى يجعل الزهاد والمبشرين حافظين لايمانهم هو كونهم يتلون كتب الدين كل يوم ويقضون أوقاتهم بالصلاة والتسبيح ، والذين أوجبوا القساوسة أن يتلوا كل نهار كتاب الفرض الكنسى هم من الواقفين على أحوال النفس وتأثير التلقين والتكرار فيها .

وما من معتقد يثبت إذا حُرِم مقومات ثابتة يستند اليها ، فلولا معابد الآله وصوره وتماثيله لفقد عباده ، ولذلك سار هادمو الهياكل بغريزة صادقة عند ما حطموا التماثيل ودكوا المعابد التي هي رمز الى الآلهة التي ارادوا ان يحقوها ، وقد كان رجال الثورة الفرنسية أيضاً على حق - بحسب ذهنيهم - عند ما حاولوا أن

يقضوا على تأثير الماضي بتخريب الكنائس والنمايل والقصور، غير أن هذا التخريب لم يطل عهده حتى يقدر على التأثير في المشاعر التي ثبتت بفعل الوراثة والتي هي أمّ من من رموزها الحجرية .

٢ - كيف تتطور المعتقدات .

لا يعني ثبات المعتقدات على الوجه الذي ذكرناه أنها لا تتحول أبداً ، فهي بالعكس تتطور وإن كان أتباعها يزعمون خلاف ذلك ، وسبب هذا الزعم تصريح الكتب المقدسة باستحالة تحريف الديانة التي تدعو الناس إليها .

حقاً إن الواقع يثبت أن المعتقد سياسياً كان أم دينياً أم فنياً أم اجتماعياً لا يثبت منه سوى اسمه ، وقد بينت في كتابي المسمى « سر تطور الأمم » كيف تتحول الاناظيم واللغات والمعتقدات والفنون ثم أثبت أن هذه العناصر لا تنتقل من أمة الى أخرى من غير أن يعتمورها تبدل عظيم .

وعلى هذا فإن المعتقدات - مع ثباتها الظاهر الناشء عن نصوصها القاطعة - تضطر الى التحول لتلتئم بالتقلب الذي يطرأ على نفسية أتباعها والبيئات التي تنسرب فيها ، والتحول المذكور يقع ببطء ، ولكن متى تراكم هذا التحول بتعاقب الأزمنة بدا للعين أنه لا صلة بين نصوص الكتب أيام وضعها وبين تطبيقها على العمل عند تمام ذلك التراكم ، خذ ديانة البراهمة مثلاً ترأها ابتعدت من كتب الهندوس المسماة «فيدا» وكذلك أمر الديانة البوذية .

ومع أنه يصعب تعيين النواميس التي يسير عليها تطور المعتقدات فاننا نذكر ما يأتي :

أولاً : قد يُجمع بين المعتقدات المتماثلة عند المصاحبة ، وذلك كما يقع في آلهة الوثنيين ومعتقداتهم - ثانياً : إذا كانت المعتقدات متباينة فالقوى منها يقضى على البقية ، لهذا السبب استطاع الإسلام أن يهدى غدا قبائل أفريقيا المتوحشة أمم الهند العريقة في التمدن - ثالثاً : بعد أن يتم النصر للمعتقد ينقسم الى فرق ومذاهب لا يحافظ كل منها على غير مبادئ المعتقد الأساسية .

ويجدد بنا أن نطنب في بيان الناموس الثالث ، فهو يكفي لايضاح الكيفية التي تطور بها المعتقدات .

لقد لوحظ افتراق المعتقدات الى فرق عقب انتصارها في جميع الديانات الكبيرة كالنصرانية والاسلام مثلاً ، والنصرانية نظراً لكونها اكثر الأديان تعقيداً ولدت كثيراً من الفرق والمذاهب ( كالمناوية والاريسوية والنسطورية الخ ) التي تطاحت قرونًا عديدة ، وقد زادت ثورة الاصلاح الديني هذا التطاحن شدة ، وما لبثت فرقة البروتستان أن انقسمت الى مذاهب نذكر منها مذهب الانجليكان ومذهب لوثر ومذهب كالقين الخ .

وبما أن المذهب الذي هو وليد الدين يطمع بحكم الطبيعة في التغلب على بقية المذاهب فإنه لا يلبث أن يصبح عديم التسامح كالدين الذي صدر عنه ، ولذلك نعد من الخطأ والجهل بطبيعة المعتقد اعتبار ثورة الاصلاح الديني رمزاً لاتنصار حرية الفكر ، فقد كان البروتستان في أول الامر أشد من الكاثوليك تعصباً ، وما أتى ( لوثر ) وخلفاؤه إلا بمبادئ جامدة مجردة عن الحكمة مشبعة من روح التعصب الدميم ، ثم إن ( كالقين ) قسم الناس الى أخيار وضالين فقال يجب على اولئك أن يضطهدوا هؤلاء ، وعند ما أصبح سيد مدينة ( جنيف ) سامها سوء المذاهب فأسس فيها محكمة ضارعت محكمة التفتيش في ميلها الى سفك الدماء ، وقد اعدم مخالفه ( ميشل سيرفيت ) حرقاً بالنار .

وفي ملحمة ( السان بارتلمي ) التي تجلى فيها الخصام الديني في فرنسا قُتل البروتستان ، وأما في الأمكنة التي لهم الاكثرية فيها فأصبحوا من أشد السفاكين ، وما كان أحد الطرفين أقل تسامحاً من الآخر في الدور المذكور .

وسبب الانقسام في المعتقدات هو أن كل امرئ يميل فيها الى مبادئ تؤثر فيه اكثر من البعض الآخر ، وبفعل هذا التأثير يحاول المؤمنون الذين لهم مزاج الرسول أن يقيموا كنيسة صغيرة ، فاذا نجحوا في مساهم يكونون قد أسسوا فرقة جديدة لا تلبث أن تنتشر بالعدوى النفسية ، ومما يعين على انقسام الأديان الى فرق هو ما في الكتب المقدسة من غموض والتباس ، فلهذا الغموض والالتباس يقدر كل عالم

لاهوتى على تفسيرها وتأويلها حسبما يرى ، ويفيدنا للوقوف على ذلك أن نتصفح الكتب التى بُحِثَ فيها عن مذهب اليسوعيين وأتباع ( توما ) وأنصار (جانسينيوس) الخ فى العفو والغفران ، حينئذ نرى كيف تنبئ النفوس التى ران الايمان على قلوبها . ويظهر أن أولى العبقريّة أيضاً يضلون عندما يدخلون فى ميدان المعتقد ، مثال ذلك كتاب ( ملبرانش ) الشهير الذى سماه « التأمّلات » ونال رواجاً سنة ١٦٨٤ حتى إنه بيع منه أربعة آلاف نسخة فى أسبوع واحد . فقد جاء فيه « ان الله هو الذى يشعر ويفكر ويسير فينا وهو الذى يحرك ذراعنا حتى فى الاشياء التى نفعلها على رغم أوامره ، وليس المرء هو الذى يرفع ساعد نفسه وانما الله هو الذى يرفعه وقمّا يريد المرء ذلك ، فالانسان لا يقدر على الانفصال من الله الذى منحه إرادة جزئية ، ومتى نفعل الخير فالله هو الذى يفعله بنا ، ثم ان المرء مسؤول عن عمل الشر لا عن عمل الخير ، فالشر يقع فى العالم عندما يغفل الله عن صنعه ، وهذا أمر لا ريب فيه لأن الشر من عمل المجرمين . »

فهذه النصوص المتناقضة نعوها اليوم صبيانية ، ولكن لا يغبين عن بالنّا أن العالم قد تزعزع بمثلها مرات عديدة ، وأضاليل كلامية مثل هذه لا تخص الماضى وحده ، ففى الحال ما يعادها ولربما ظهر نظيرها فى المستقبل إذ إن معتقدات الوقت الحاضر السياسية التى تقضّنا هى كتلك من حيث البطلان وسوف تصفّأ الاجيال القادمة بجانب تلك .

وقد زعم المعتقدون فى كل جيل أن إيمانهم قام على العقل غير عالمين أن ما فيه من القوة ناشئ عن كون العقل غير مؤثر فيه ، وكل ما للعقل من التأثير فى المعتقد الدينى هو كونه يجعل المؤمن يعتبر أفاصيص الكتب المقدسة التى تناقض العلم الحديث رموزاً . ولا يقع انقسام المعتقد الى مذاهب متشاكسة فى الأديان ذات الارباب المتعددة ، فهذه الأديان وان كانت تتطور الا أن تطورها يقع بانضمام آلهة جديدة اليها اعتبرت قادرة جديدة بالتحية والتعظيم ، وذلك هو السبب فى كون الحروب الدينية التى خربت أوروبا وضرحتها بالدماء لم تقع فى القرون القديمة الوثنية .

إذاً فانه كان أولى بالشعوب أن تبتدى حياتها بالإشراك ، وإنى خلافاً للرأى

السائد أقول انها تنال خيراً عمياً لو بقيت مشرّكة ، فالتوحيد بدلاً من أن يكون سبباً للمرقى قد أوجب وقوع حروب كثيرة خضبت الأرض بالدماء وعاقبت الفنون والفلسفة والآداب التي أينعت في العصر اليوناني الوثني عن التقدم

ولا يُعترض علينا بالقول إن التوحيد مع ما يوجبه من حروب وإحراق بالنار والخراج من الديار ومنفى من الأرض يؤدي الى وحدة المشاعر اكثر من غيره ، فعبادة الوطن قد كفت لمنح الرومان المشركين أيام عظمتهم وحدة في المشاعر لا يملو عليها شيء .

ولو جارينا كثيراً من المؤرخين والفلاسفة مثل ( رينان ) فاعتبرنا التوحيد أفضل من أية عبادة اخرى لكان الاسلام وهو دين التوحيد الوحيد على وجه التقريب افضل الأديان ، أقول على وجه التقريب لأن الأديان التي تدعو الى التوحيد لم تكن في غير الكتب ، فلو نظرنا الى النصرانية مثلاً لرأينا أنها لم تلبث أن أضيف اليها طوائف من الملائكة والقديسين والجن هي بالحقيقة مثل الآلهة الثانوية القديمة في تقديسها وخشيتها ، ثم ان تلك الأرباب المتعددة التي تسربت في أديان التوحيد وانقسام هذه الأديان الى فرق ومذاهب تثبت لنا أن التوحيد مبدأ نظري لا يناسب احتياجاتنا الماطفية والدينية .

ولتطور المعتقدات الذي أشرنا اليه في هذا الفصل شأن كبير في التاريخ ، وأما في الفلسفة فلا فائدة من التحديث به ، فالمتقدم غذاء لما يتطلبه احتياجنا الى الايمان ، وقد تبدل هذا الغذاء وسيتبدل وأما الاحتياج فسيفيق بقاء طبيعة البشر .

## الفصل الخامس

### كيف تموت المعتقدات

١ - دور المعتقدات الخطر وانحلالها .

عنوان هذا الفصل صحيح من الوجهة التاريخية أكثر منه من الوجهة الفلسفية ، لأن المعتقدات - وهي تشبه الحركة التي بحثت عنها كتب الحكمة الطبيعية - تتحول أحياناً ولكن من غير أن تموت ، أى ان المعتقدات تغير اسمها ، وهذا التغيير هو الذى نسميه موتاً .

فبعد ان تشيخ المعتقدات ترد مورد السنة العامة أى سنة الخمود والانطفاء ، وقبيل هذا الانطفاء وبمعبر أصح قبيل هذا التحول يظهر دورها الخطر أى دور الانقلابات .

يثبت علماء الطبيعة أن الجرم عندما يدنو من دوره الخطر تؤثر فيه تقلبات الجو الحقيقية فتحوله من غاز الى مائع ومن مائع الى غاز ، ويشاهد مثل هذا الدور الخطر فى كثير من الحوادث الاجتماعية مثال ذلك كون القطر الذى يستورد ذهباً وبضعة أنواع من السلع لا يلبث أن يصبح بفعل بعض المؤثرات الطفيفة ذا صادرات ، وما يقع فى عالم الطبيعة والاقتصاد السياسى يحدث مثله فى عالم المعتقدات ، أعنى أنها متى تتقلقل ويعمل فيها البلى والدروس تدخل فى الغالب فى طور الخطر فتصبح مستعدة للتحول فجأة .

ويحدث هذا الطور الذى يتجاوز فيه الشك واليقين عندما تتزعزع المعتقدات بفعل الزمان أو غيره وذلك قبل أن يتم تكوين المعتقدات التى ستحل مكانها ، وفى تلك الاثناء يرتبط أنصار المعتقدات بها ارتباط اليأس والقنوط خائفين كما قال بوسويه « من النعم الذى يصيب الناس وقما يضيعون حب الله »

والواقع أن هذا الحب لا يزول من قلوبهم ، إذ ما من الهيموت إلا ويقوم مقامه الجديد ، غير أن الانتقال من عبادة اله الى عبادة اله آخر لا يقع بسهولة ، يؤيد ذلك

ما حدث في الأزمنة التي انقضت فيها الوثنية من الحوادث ذات الشأن العظيم .  
واليوم نمر من جيل تتجاذب الشعوب فيه آلهتها القديمة والآلهة التي لم يتم  
تكوينها بعد ، ولذا كان زماننا من أدوار المعتقدات الخطرة ، والروح الشعبية لينا  
تعتق ديناً كبيراً ثابتاً تتراوح الآن بين معتقدات هي على شيء من القوة مع كونها  
موقفة ، اذ تدافع عنها جموع ولجان وأحزاب كثيرة ، والدليل على تلك القوة ما لأندية  
الثورة الفرنسية والجمعيات الماسونية من التأثير في أبناء الطبقات الوسطى وما للثقافات  
من الشأن في صفوف العمال وما للجان الانتخابات من النفوذ في المدن

٢ — تحول المعتقدات الدينية الى معتقدات سياسية .

يظهر أن الجيل الحاضر قد غير مقاييس القيمة ، والحقيقة هي أنه بدل اسماءها  
على الخصوص ، ويشكو أنصار العبادات الشائخة ضعف ايمان الأجيال الحديثة ،  
مع أن الجموع لم تظهر احتياجها الى الاعتقاد كما تظهره اليوم ، فالإيمان الديني  
بتحوله الى ايمان سياسى لم يتبدل منه سوى شيء قليل ، وما القدرة التي نعرزوها الآن  
الى الحكومة الا من نوع القدرة التي كنا نعرزوها الى الآلهة .

إن المعتقد هو من عمل الايمان ، وتطبيق هذا العمل على موجود عال أو الوهية  
يعبر عن احتياج الانسان الى الخضوع والعبادة ، فالمؤمن يميل بطبيعته الى تأليه الشيء  
بالعبادة ، ومن ذلك أن (مارا) الذى كان يجب أن تقذف جيفته فى بالوعة المرحاض  
لم يلبث أن أله بعد قتله ووضعت أوراد لتقديسه ، وقد كان ( نابليون ) الهماً  
قاهراً لا يغلبه أحد فى نظر جنوده .

ولا يكون المعتقد شعبياً إلا إذا دلّ على موجودات أو أشياء تجب عبادتها ،  
تجلى هذا الأمر أيام الثورة الفرنسية حين فكر رجالها عند ما نشبت فى إيجاد آلهة  
تحل مكان الآلهة السابقة فأقاموا فى كنيسة ( نوتردام ) عبادة لالاهة العقل تماثل  
العبادة التى سار عليها الناس منذ قرون عديدة .

ولا ندرك حقيقة تلك الثورة الا إذا اطلعنا على ما لتدين الشعب وزعمائه من  
الشأن الكبير فى سيرها ، فقد كان ( روبسبير ) الذى هو عنوان نفسية زمانه الدينية

الضيق يعتقد أنه رسول أوحى إليه أن يثبت دعائم الفضيلة وأن يذبح أعداءها غير راحم ، وكان يذكر في خطبه اسم رب السماوات ، وقد ماثلت محاكم الثورة المذكورة محكمة التفتيش بحقدتها على من ليسوا على دين أعضائها وبإبادتها لهم شر إبادة .

أطنبت في بعض كتبي السابقة في بيان تطور الاشتراكية على شكل ديني ، ولذلك لا أطيل البحث عن هذا التطور هنا ، فالاشتراكية لو كان لها إله معين يعبده الناس لم لها النصر بسرعة ، وقد إطلع رسالها على تلك الضرورة بغيريتهم ، ولكن لما لم يجروا على مطالبة الشعب بعبادة (كارل ماركس) اليهودي الذي هو حبرها النظري ولوا وجوههم نحو إلهة العقل ، وقد نقلت في كتابي المسمى روح السياسة فقرة من جريدة (الامانته) الاشتراكية دلتنا على أن الاستاذ الشاب في (الصوربون) قرأ في حفلة افتتاح إحدى المدراس الاشتراكية موعظة دينية مخاطباً فيها إلهة العقل . لم تستهوا الآلهة المجردة قلب الجموع قط ، ولذلك تفتقر الاشتراكية ذات المبادئ والتعاليم إلى رب تدعو الناس إلى عبادته ، وليس عابها أن تنتظر كثيراً لتمثل لها هذا الرب ، إذ الآلهة هي بنت الحاجة .

وما في الاشتراكية من قوة يشتق على الخصوص من كونها وارثة لتعاليم المسيحية ، فقد استعارت مبادئ الاشتراكية من الساف النصراني التعطش إلى المساواة وحب الغير والحقد على الأغنياء ، ولذا أصبحت الكاثوليكية في بلجيكا حليفة الاشتراكية ، فهي تستحسن فيها اعتصابات العمال علناً وتشجع على تنازع الطبقات . وفي رسل الاشتراكية ما في أنصار النصرانية السابقين من توقد الروح ، لا أشير بذلك إلى الرسائل والمقالات التي ينشرها عوام الاشتراكيين فقط بل أشير أيضاً إلى من نالوا من العلم قسطاً وافراً ، وقد أتيج لي أن أنقل في كتابي الأخير نبذاً من هذا النوع ديجها يراع استاذ في مدرسة فرنسا (كوليج دوفرانس) اعتنق الاشتراكية راغباً في القضاء على الآلهة الباطلة . وبمطالعة تلك النبذ نستدل على أن العالم لا يدخل في دائرة المعتقد من غير أن يفقد اعتداله وصوابه ، ولا فائدة من لومه على ذلك ، فلمعتقد على المرء ، أيا كان ، سلطان قاهر تتمذر مقاومته ، والمعتقدات دائمة كانت أم موقته هي أكثر العوامل تأثيراً في حياة الشعوب ، والشعب لا يتم حكمه بمبادئ



حقيية بل بعمققات يؤمن بأنها حقيية . ولو ظهر (ببلاطس) فى هذه الأيام لما طرح السؤال الذى لم يجب عنه فىلسوف ولقال إن الحقيية هى ما بعمقده المرء . فكل اعققاد حقيية . أجل ، إن الحقيية المذكورة موقفة ولكن العالم قد سار حتى الآن بمقائف من نوعبها .



## الباب التاسع

مباحث تجر يديه في تكوين المعتقدات وما ينشأ  
عنه من حوادث غير شعورية

### الفصل الأول

تدخل المعتقدات في أمر المعرفة ، تكوين الاوهام العلمية

١ — لماذا تظل المعرفة مشوبة بالمعتقدات

لا يقدر عالم على الافتخار بأنه خرج من دائرة المعتقد خروجاً أبدياً ، فهو  
مكره في الحوادث التي لم تعرف تماماً على ايجاد نظريات وفرضيات أى معتقدات  
لا يسلم الناس بها الا لئلا له نفوذ وتأثير .

وقد نضطر أيضاً الى التسليم بالحوادث التي درست كثيراً كما نسلم بالمعتقدات  
عندما لا نستطيع أن نحققها جميعها ، ولو نظرنا الى تربيتنا المدرسية لرأينا أنها عبارة عن  
الايان مبادىء لم تدخل في نفوسنا الا بنفوذ الاستاذ ، وإذادعها الأستاذ أحياناً  
بالتجربة فذلك ليبين للطالب إمكان تحقيقها بالتجربة وليعلمه أن الاختبار والتجربة  
هما أساس الحقائق .

إن تحقيق معارفنا جميعها بالتجربة متعذر تعذراً يجعل نصيحة ديكارت في  
كتابه « قواعد الاصول » خيالية وهمية . فقد قال : « لا تسلم بصحة شيء ما لم تعرف  
أنه كذلك وارفض كل شيء ترقاب فيه » ، ولو طبق ( ديكارت ) قواعده على  
العمل لما صرح بأقوال نسخر منها الآن ، فالمعتقد هو الذى ران على قلبه كما ران

على قلوب كثير من معاصريه وخلفائه ، حقاً إن اللاأدرية المتطرفة هي في الواقع لا تشك الا قليلاً ، قال لوك « من يشك في أمور حياته العادية التي لم تؤيدها الأدلة والبراهين لا بد من هلاكه في وقت قصير ، لأنه بذلك لا يجروء على الاغتذاء بطعام ولا بشراب . »

وأضيف الى هذا قائلاً ان المجتمع لا يعيش بتحليل آرائه ومعتقداته تحليلاً انتقادياً ، وليس شأن المعتقد سوى كفاية المجتمع مؤونة مثل ذلك التحليل .

وبما أن العلماء يضطرون الى التسليم بكثير من القضايا العلمية كما يسمون بالمعتقدات فاننا لا نعجب مما يبدو عليهم أحياناً من السذاجة كما يبدو على الجهلة الأميين ، فالعالم قلما يكون أسنى من الجاهل في الأمور التي ليست من دائرة اختصاصه ، وبهذه الملاحظات ندرك السبب في كون أفاضل العلماء يؤمنون بأشد الأوهام خطلاً .

## ٢ - تكوين الاوهام العلمية .

يتعذر تكرير جميع التجارب ، ولذلك يبقى مبدأ نفوذ العالم وتأثيره مرشدنا الاساسي كما ذكرت آنفاً . فالتناس يؤمنون بالعالم الذي اكتسب من مقامه العلمي نفوذاً كبيراً فيظنون أنه لا يأتي بمزاعم مختلفة يتعرض فيها للتكذيب .

حقاً إن العالم لا يخبر بشي يراه غير صحيح ، غير أن الوهم قد يتطرق اليه بتأثير التلقين - حتى في الأمور المضبوطة - فيظن الاضاليل التي أملت عليه مخيلته حقائق ، واكبر دليل على ذلك حكاية أشعة ( X ) التي كان اشهر علماء الطبيعة يقيسون انحرافها مع أنه ثبت بعد ذلك أنه لا أساس لتلك الأشعة .

وقد اسهبت في بيان هذه الموضوع لأنني باظهارى الخطأ في مباحث علم الطبيعة - التي يتوخى العلماء الضبط والدقة في درسها - أوضح السهولة التي تستحوذ بها الأوهام على النفوس إزاء حوادث لانها لا يد التحقيق الا قليلاً ، وإني أختار أمثلة تشاهد في العلماء وخدمهم لأثبت أنه بتأثير النفوذ والتلقين والعدوى يحدث في جميع الناس ومنهم اولو المدارك السامية معتقدات وآراء مختلفة .

ومن تلك الأمثلة المؤثرة الضلال الذي وقع فيه أعضاء المجمع العلمي منذ أربعين

سنة وحمل ( الفونس دوده ) على هجو ذلك المجمع في رواية سماها « الخالد » ، فقد نشر هذا المجمع مئات من الرسائل التي نسبها احد المزورين القصيرى الباع في الادب الى باسكال وغليله وكاسيني وغيرهم ، وحازت التبول مع ما فيها من الأغلاط الكثيرة والسقطات الكبيرة نظراً لنفوذ المؤلفين المنسوبة اليهم ونفوذ المهندس العالم الذى عرضت بواسطته ، ولم يشك أعضاء المجمع حتى سكرتيره فى صحتها وظلوا على ذلك حتى اعترف لهم المزور بأنه هو الذى لفقها ، وحينئذ زال النفوذ وأعلنوا أن اسلوب الرسائل ركيك جداً بعد أن عدوه من افصح الأساليب وقالوا إنه خليق بأولئك المؤلفين .

قد يقال إنه يصعب على أولئك الاعضاء أن يحققوا أمراً ليسوا متخصصين به فحكوا حسباً لزميلهم من التأثير والنفوذ ، نجيح عن ذلك بأن نبين أن أعضاء المجمع العلمى المتخصصين قد انخدعوا فيه أيضاً ، ثم إن الاعتراض المذكور يزول عند البحث فى حوادث جديدة أخرى ضل فيها رجال متخصصون دون غيرهم .

ومن اوهام النفوذ والعدوى ما فصله منذ خمس عشرة سنة الموسيو (بيكريل) - احد مشاهير علماء الطبيعة واستاذ الحكمة الطبيعية فى مدرسة (البوليتكنيك) - فى مجمع العلوم قال : - « لقد ثبت من تكرار التجارب الدقيقة أنه يصدر عن معدن الأورانيوم اشعة تستطيع أن تزيغ وتنحرف وتنعكس كأشعة الاجسام الفوسفورية » وعلى رغم ما أبداه احد علماء الطبيعة فى فرنسا - المعروف عند قراء هذا الكتاب - من الادلة المخالفة اصر ذلك العالم المشهور على رأيه مدة ثلاث سنوات وشاطره خطأه فى أثناء ذلك جميع علماء أوروبا ، وما اعترف العلماء بخطأهم الا بعد ان أثبت احد علماء اميركا - الذين لم يؤثر فيهم باطل العالم المذكور لبعده الشقة بين البلدين - أن تلك الأشعة لا تنحرف ولا تنعكس وأنها شئ غير الضياء ، فلو بحثنا عن أسباب ذلك الخطأ الذى ران على العلماء ثلاث سنين لرأينا أنها نفسية بجمته .

وتاريخ اشعة ( N ) التى المعنا اليها آتفا بارز ، يتجلى فيه شأن النفوذ والتأقن والعدوى النفسية ، وليست حكاية هذه الاشعة كحكاية الأمثلة السابقة التى سلم بها

الناس من دون تحقيق بل صرح كثير من علماء الطبيعة بأنهم حققوا أمرها بالتجربة .  
ظن أحد أساتذة الحكمة الطبيعية المشهورين الموسيو ( بلوندلو ) أنه شاهد كثيراً  
من الاجسام تنشر أشعة خاصة نعتها بأشعة ( N ) يمكن قياس تموجها بضبط ودقة ، وبما  
أن العالم المذكور ذو نفوذ كبير سلم أكثر علماء فرنسا بصحة زعمه غير مجادلين ، وقد  
كرروا التجربة ذاتها بأنفسهم فأروا صحة ما تلقنوه ، ثم إن مجمع العلوم رأى أن  
يكافئ صاحب ذلك الاكتشاف الخطير فأوفد كثيراً من أعضائه — ومنهم العالم  
الطبيعي ماسكار — الى المكتشف كي يحققوا عنده صحة مباحثه ، فعادوا مشدوهين  
بما شاهدوه منه ومنحه المجمع جائزة قدرها خمسون الف فرنك .

وفي أثناء ذلك أتى علماء الأجانب الذين لا تأثير لعلماء فرنسا فيهم بتجارب مكررة  
في الموضوع فلم يظفروا بشيء ، وعندئذ عزم عدد غير يسير منهم على شد الرحال الى  
المكتشف ليختبروا الأمر أمامه ، وسرعان ما علموا أن هذا الأخير ذهب ضحية أوهام  
تطرقت اليه من قياس انحراف أشعة ( N ) بنشور من زجاج ، وعلى أثر ذلك قامت  
« المجلة العلمية » ببحث ضاف في المسئلة فظهر أن أشعة ( N ) هي نتيجة للتلقين  
والعدوى وأنه لا وجود لها .

تدلنا هذه القصة العجيبة على ما للنفوذ والتلقين والعدوى من السلطان الكبير ،  
وبها تتضح لنا كيفية تكوين المعتقدات وكثير من الحوادث التاريخية وجميع حادثات  
السحر فالناس يسحرون بالتلقين ، وإذا كان تأثير التلقين في المسائل العلمية هو كما  
وصفنا فما أحرى به أن يكون عظيماً في إحداث أمور خارقة للمادة .

لم أبحث هنا الا عن أوهام علمية شهيرة ، ولو ذكرت ما تسرب في مختلف المسائل  
العلمية من الاوهام التي مصدرها النفوذ لاستوعب ذلك سفراً كبيراً ، ولذا فأنى  
اقتصر على ايراد المثال الآتي :

إعتقد أحد طلاب الموسيو ( ليجان ) أنه اكتشف أن الجسم المكهرب وهو في  
دور الحركة لا يجتذب الابرة المغناطيسية ، وقد كان أمر هذا الطالب مجهولاً ، ولكنه  
لما أتى بتجاربه في حضرة الموسيو ( ليجان ) واستعان بنفوذه العالمي العظيم اتبعه  
جميع علماء الطبيعة الى أن اثبت أحد علماء الاجانب أن الطالب واستاذة كانا على ضلال .

وأكثر ما تكون الاوهام في العلوم التي هي في طور التكوين — كعلم الطب مثلاً — حيث يصعب تحقيقها ، فتمدادها عبارة عن تدوين لتاريخ الطب وإثبات لكون النظريات والأدوية تتغير في كل خمس وعشرين سنة ، وإني اختار المثال الآتي كدليل على ذلك :

كان الاطباء منذ خمسين سنة يعتبرون معالجة ذات الرئة بالفصد من أهم ما اكتشفه فن الطب ، وقد استندوا في ذلك الى الاحصاءات التي دلت على أن عدد الوفيات من المصابين بالداء المذكور — بعد معالجتهم بالفصد — هو ثلاثون في المئة ، وقد استمر استعمال طريقة الفصد الى أن زار طبيب ماهر احد مستشفيات لندن فحقق فيه أن عدد الوفيات من المصابين بذات الرئة هو خمسة في المئة بدلاً من أن يكون ثلاثين في المئة وأن علة هذا النقص في الوفيات هي أن الاطباء يعالجون المرضى هناك بعدم التعرض لهم بدواء .

وإني لأرجو أن يكون القارئ قد اقتنع من الأمثلة السابقة بأنه يجب نعت أكثر آرائنا العلمية بالمعتقدات لا بالمعارف ، فالآراء المذكورة التي هي من فصيلة المعتقدات تتكون بفعل بعض المؤثرات كالنفوذ والتوكيد والتلقين والعدوى وغيرها من العوامل البعيدة من العقل والتي هي ذات سلطان أكبر من سلطانه .

## الفصل الثاني

### تكوين المعتقد في الوقت الحاضر . السحر

١ — فائدة البحث التجريبي في تكوين المعتقد

بيننا منذ بدأنا بهذا الكتاب صعوبة ايضاح الكيفية التي تتكون وتنتشر بها المعتقدات الكبيرة التي سيرت البشر قرونًا طويلة ولا تزال تسيره ، وقد حاولنا أن نحل هذه المسئلة نظرياً مستعينين بطرق مختلفة وسوف لآنألوا جهداً في تطبيق المبادئ .

التي شرحناها على معتقدات ظهرت أخيراً متخذين المذهب الروحاني الحديث - ذا المعجزات التي ضاعى بها الأديان السابقة - مثلاً لها ، وبعدها نرى أموراً باطلة غير محتملة سلم بصحتها عند حدوثها كثير من أفاضل العلماء يتضح لنا تجريبياً أنه لا شأن للعقل والذكاء في تكوين المعتقدات وأن عناصر العاطفة والتدين التي شرحناها عندما بحثنا عن أنواع المنطق المختلفة هي التي تؤثر في ذلك التكوين

وسيكون استدلالى مستقلاً عن قيمة معتقدات الروحانيين صارفاً همى على الخصوص الى المسائل التي قال بصحتها علماء كثيرون مع اعتراف أنصارها مؤخراً بأنها وهمية باطلة ، ومنه يتضح أن الحثبريؤمن - بعد أن يدخل في دائرة المعتقد - بالمستحيلات ويكون أحياناً مثل الهمج في سذاجته وسرعة تصديقه

ونسنتنبط من هذه البرهنة ومن المبادئ التي فصلناها في هذا الكتاب أدلة حقيقية تتضح بها كيفية ظهور المعتقدات وانتشارها اتضاحاً تجريبياً ، ولكي نصل الى ذلك نبدأ في البحث عن المعتقدات السابقة التي اشتق منها المذهب الروحاني الحديث

## ٢ - السحر في القرون القديمة وفي القرون الوسطى

تعطش الانسان في كل وقت الى كشف مصيره وإلى نيل معونة من قوى علوية يعتقد أنها محيطة به ، ومن هذا التعطش بدت أنواع السحر المختلفة ، ولقد تعاطت الشعوب جميعها فن السحر في جميع أجيال التاريخ ، فزاول الناس في القرون القديمة استدعاء الموتى والتنجيم والكهانة التي هي من فروع السحر مزاولة مستمرة .

والكهانة أى العرافة - التي استندت الى وسائل متعددة ولا سيما الى أجوبة من الآلهة يفسرها أناس هم كالوسطاء في الوقت الحاضر - هي أكثر أنواع السحر القديم شيوعاً ، والسحر في روما كان ديناً للدولة ذا كهنة عهد اليهم في تفسير الحوادث ، وقد تمتع هؤلاء الكهنة بنفوذ عظيم حتى إن قادة الجيوش كانوا لا يباشرون القتال قبل أن يستشيروهم وكثيراً ما نقضت قوانين ونظم بعد أن أبدوا رأيهم فيها ، وما ألغيت جمعية العرافين في روما الا في القرن الرابع بأمر من الامبراطور ( تيودوز ) أى أيام استفحل شأن الديانة المسيحية .

كان ايمان القدماء بالنبوءات المعزية الى الآلهة عامًا ، وقد كان لإله مدينة ( دلف ) شأن كبير من هذه الجهة فكان الناس يفتدون الى تلك المدينة من جميع أقطار العالم ليستشيروا الإله المذكور ، ثم صمت هتاف تلك الآلهة وغاب سحر العالم الوثني عن الوجود وقتما تم النصر للدين النصراني ، ثم عاد السحر في القرون الوسطى ، وما شأن السحر في تلك القرون بالأمر المجهول ، فعلى رغم حرق السحرة بالألوف لم يستأصل الحرق شأقتهم . والزمان لا العقاب هو الذى قطع دابرهم إن أعمال السحر التي أعمت القرون الوسطى هي أدعى الحوادث للعجب وهي أقل الامور إيضاحًا من قبل علم النفس في الماضي ، ومع ذلك نرى أن للتقنين والعدوى النفسية شأنًا كبيرًا في حدوثها ، وذلك لأن الشهادات في مختلف القضايا التي أُقيمت في كثير من البلدان متطابقة وأوجه الوصف للشيطان متماثلة وكيفية اجتماع السحرة به متشابهة .

ويظهر ان المنفعة الشخصية لم تؤثر في أولئك المتهمسين ، إذ الشيطان لم يمن عليهم بغير ما هو زهيد تلقاء ما يعرضون له أنفسهم من أنواع العذاب ، وكلما كان القضاء يلجأ الى استنطاقهم بالدهق والعدراء<sup>(١)</sup> كي يعترفوا له بجناياتهم ، فالتهمون كانوا يصفون بوجه باش كيفية اجتماعهم بالشيطان ، ومن هذا الوصف أن الشيطان كان يظهر لهم على شكل ضفدع أو هر أو كلب اسود أو تيس الخ وكان يطعم أنصاره طعامًا من الجيف ، وأنهم فضلًا عن رقصهم مع الشياطين ومجامعتهم لهم كانوا يجلدون الضفادع الضخمة ليرغموها على إراقة سائل لزج ضارب الى الخضرة ليصنعوا منه مراهم ومساحيق . واستمر فن السحر قرونًا كثيرة ولم يشك القضاء في أثناء ذلك في صحة ما يقص عليهم من وجود طقوس سحرية غير مدققين في السبب الذى يدفع كثيرًا من الناس الى بيع روحهم الى الشيطان تلقاء لذات دنيئة كأكل الجيف ليلًا في أرض بور ، وكيف يرتابون من ذلك والمتهمون كانوا يقرون بجناياتهم ؟ ولهذا الاقرار كانوا يحرقون السحرة من دون أن يبكتهم ضميرهم ، وقد حرقوا في دوكية ( لورين ) وحدها أربعمئة ساحر في عشرين سنة

(١) الدهق والعدراء من ضروب العذاب لجل الانسان على الاقرار بامر — الناصر



وليس من الانصاف أن نعزو الى من ذهبوا ضحية السحر او ما شابهه من المعتقدات مزاجاً نفسياً بعيداً كل البعد من مزاج رجال الوقت الحاضر ، لأن سذاجة هؤلاء عظيمة كسذاجة اولئك وإن بدلت شكلها ، فالسحرة في القرون الوسطى وسحرة السياسة ذوو الوعود الخلابه الوهمية في هذه الأيام ومستخدمو الأرواح وزاجرو الطير وضاربو الرمل والنومون تنوياً مغنطيسياً جميعهم من فصيلة واحدة ، فليس ما هو مستحيل في هذا العالم الخادع ولا فرق بين ما فيه من التهموس وبين الاحلام التي نراها أحياناً في المنام .

نعم ، أخذ البشر يتحرر قليلاً من ربة تلك المنطقة الخيفة ، ولكن بما أن هذا الخلاص حديث غير تام فان قوة تأثير الوراثة ترغم البشر على العودة الى تلك المنطقة على الدوام ، واذا تقلت المرء بعد مجهود كبير من ميدان المعتقد فانه لا يلبث أن ينجذب اليه وقد جرب ذلك كثير من العلماء بأنفسهم . فلما تذرعوا بوسائلهم ومناهجهم الخاصة ظنوا أنهم قادرون على التخلص من المؤثرات التي يتهوس بها ذوو النفوس الضيقة ، غير أنهم سرعان ماخذعوا مثل أبسط المعتقدين ولم تنفعهم وسائلهم العلمية الا باللباس بعض الأوهام شكلاً غير حقيقي .

### ٣ — السحر في الازمنة الحاضرة وحوادث تجسيم الارواح

يظهر أن الايمان بالسحر قد تلاشى أمام تقدم الافكار العلمية ، فلما جرّد السحرة من نفوذهم خسروا اعتبارهم الا في بعض القرى . غير أن حب الاطلاع على الاسرار والاحتياج الى التدين وأمل الحياة بعد الموت هي مشاعر قوية لا تموت أبداً ، ولذا رجع السحر القديم باسم جديد من دون أن يطرأ على الأساس تغيير كبير ، فهو يدعى اليوم تجسيم الأرواح واستدعاؤها . ويسى العرافون وسطاء وتدعى الآلهة أرواحاً احقر العلماء هذا المعتقد الجديد زمنياً غير قصير ، ولكننا نرى أنفسنا منذ عشرين سنة إزاء حادث مفاجئ ، وهو أن اساتذة عبقريين أصبحوا ايدافعون بحماسة عن جميع أنواع السحر ، على هذا الوجه نسمع أن بعض علماء تاريخ الانسان الطبيعي

المشهورين مثل ( لومبروزو ) يقولون مؤكدين أنهم استدعوا الأرواح وحادثوها ، ونرى بعض علماء الكيمياء مثل ( كروكس ) يقولون إنهم عاشوا شهوراً طويلاً مع أحد الأرواح ، ونسمع بعض أساتذة علم وظائف الأعضاء مثل ( ريشه ) يزعمون أنهم شاهدوا محارباً على رأسه خوذة يخرج من جسم فتاة ، ونرى بعض علماء الطبيعة مثل ( دارسونفال ) يدعون أن وسيطة قد تصرفت بثقل احد الأشياء حسبما أراد .

لا ريب في أن هنالك علماء ليسوا أقل شهرة من أولئك ينكرون تلك المشاهدات التي يقولون إن التهوس مصدرها ويستخطون على رجوع الناس الى دور السحر والخرافات ، إلا أن الجمهور المتعلم يبقى حائراً أمام هذه المتناقضات وهو يسأل : أمن المحتمل أن يتيه اولئك العلماء في دياجير الضلال ، ولماذا يقول بعض العلماء بصحة أمور يزعمون أنهم شاهدوها مع أنه لم يشاهدها البعض الآخر على رغم تذرع هؤلاء بمثل ما تذرع به اولئك من الوسائل والاحوال ؟

لا يمكننا إدراك ذلك إلا إذا تعمقنا في البحث عن كيفية تكوين المعتقدات وعن شأن التلقين والعدوى في الجماعات . ومما يجدر ذكره أن الوهم قد يشتد في بعض الاحوال حتى يختلط بالحقيقة .

ولكى اثبت سذاجة بعض العلماء المتناهية بعد أن يدخلوا في ميدان المعتقد أذكر حادثة تجسيم الأرواح التي أمعنوا في درسها ، فما هو تجسيم الأرواح ؟ قال الدكتور ( ماكسويل ) : « إن التجسيم هو عبارة عن قدرة الروح - سواء أ كانت روح ميت أم روح حي - على إفراز سائل من أعضاء الوسيط لا يمكن وزنه قابل للتكاثف ، فهذا الجوهر الذي يتحول الى مادة كثيفة يكتسى أشكالاً مختلفة حسبما تريده الروح ، وفي الغالب تكون هذه الأشكال مماثلة لجسم تلك الروح . »

ويرى الروحانيون أنه يحيط بجميع الاعضاء غشاء من جوهر لطيف ، أي إن للإنسان - عدا جسمه المادي - جسماً سماوياً يفترق أحياناً عنه بعد الموت ، فهذا الجسم السماوي يتجسم جسماً مادياً عند ما يستعير من أحد الأجسام الحية - كجسم الوسيط مثلاً - عناصر مادية ، ومن الطبيعي أن يكون ايضاح الروحانيين مبهماً مختلفاً باختلاف نخيلة كل واحد منهم ، وإنما الذي نستنبطه من أقوالهم في مجموعها

هو أنه قد يظهر بفتة من الجسم الخى جسم آخر كالجسم الاول في اعضائه وهيئته. فان ( كاتي كينغ ) الذى أخرجه الكيماوى ( ويليام كروكس ) كان له قلب ذو نبض معتدل وكانت رثنا الانسان ذى المففر الذى أخرجه ( ريشه ) تفرزان حامض الفحم كبقية الناس ، ولو أن هذين العالمين الشهيرين وغيرهما من العلماء الذين سنتكلم عنهم لم يذهبوا ضحية الغش والتدليس لحق لهم أن يفتخروا بأنهم شاهدوا معجزات كالتى أخرج بها ربُّ سفر التكوين حواء من جسم آدم .

ومن دواعى الأسف أن تلك الأشباح كلما بُحث فيها بحثاً دقيقاً تبين أنها صادرة عن تدليس ، ولو لم تفر كثيراً من اولى النفوس السامية لالتزمنا الصمت عنها .

إن منشأ أوهام العالمين المذكورين وغيرهما من العلماء الذين قالوا مثل ( لومبروزو ) إنهم استدعوا الأموات وحادثوهم هو التلقين والتدليس ، ويمكننا أن نطلع على تأثير التدليس بما وقع حديثاً ( ميلر ) الشهير الذى أظهر أشباحاً كثيرة تكلمت مع الحضور ولا مستهم ، غير أن ( ميلر ) الذى اعتمد على سذاجة الحضور المتناهية تراخى فى اتخاذ بعض التدابير الاحتياطية فافتضح أمر تدليسه فى الحال واضطرت صحف استدعاء الأرواح التى نشطته فى البداية الى الاعتراف بخطئها وضلالها .

وليس ما عرض ل ( لاناوث ) بأقل من ذلك ، فقد اشتهر أمر ( اناروث ) فى برلين حتى اكتشف بعض الشرط الماهرين حيلها فرفعوها الى القضاء فتحكم عليها بالسجن ثمانية عشر شهراً ، وقد أطنب الدكتور ( ماكسويل ) فى بيان حكايتها وانى اقتطف منه العبارات الآتية وهى :

« كانت هذه الوسيطة تكوّن فى المجتمعات العامة الحافلة حسب طريقة تجسيم الأرواح أزهاراً فكانت هذه الأزهار تتساقط على أطرافها وبين يديها وتظهر فجأة على أكتاف الحاضرين ، وقد استمرت على هذا الأمر سنوات طويلة فأوجبت زيادة عدد القائلين باستدعاء الأرواح وتجسيمها كثيراً فخشى البلاط عاقبة الأمر ، وقد اتفق فى احدى اللبالي أن ألقى بعض الشرط أنفسهم على تلك الوسيطة فى احد

المجتمعات فرأوا أن الأزهار التي زُعم أنها تتكون على الوجه المذكور ليست بالحقيقة سوى أزهار طبيعية مخبأة تحت ثوبها .

والوسيطه ( اوزايا ) التي دعاها « معهد العلوم النفسية في باريس » كي يطبق طريقة تجسيم الأرواح في اجتماعات كثيرة لم تجرؤ على فعل ذلك إلا قليلاً نظراً لشعورها بمراقبة الناس لها مراقبة شديدة ، غير أنه اتفق في إحدى المرات أن قدرت على تخليص يديها من أيدي المراقبين فحوطت رأس أحد الحضور بذراع قالت انها ذراع أحد الأشباح مع أن مصدر تلك الذراع الحقيقي لم يلبث أن عُلم .

وعند ما أقامت الوسيطه المذكورة في مدينة ( نابولي ) وأحست أن يد المراقبة والاحتراز غير شديدة فيها ورأت أنها تشتغل بين أناس ذوى اتكال وتسليم أنت بالفرائب :

قامت هنالك باتمام الحوادث المعجبية التي سأقصها في حضرة الاستاذ ( بوتازى ) الذى هو من أفضل علماء ايطاليا وفي حضرة كثير من علية القوم ، وقد اقتنع الاستاذ المشار اليه ومعاونوه بأنه من الممكن أن يخرج من جسم الوسيطه ( اوزايا ) ذراع ويد غير منظورتين تستطيع بهما أن ترفع خواناً وزنه اثنان وعشرون كيلو وأن تنقل أشياء كثيرة من محلها ، وهكذا سلّم ( بوتازى ) المتخصص بعلم وظائف الاعضاء بأن أعضاء لا تدركها الابصار قد تتكون بغتة وتقوم بأفعال كالتى تقوم بها أعضاء الانسان العادية .

ثم قال ( بوتازى ) إنه رأى مع معاونيه - عدا الذراع واليد غير المنظورتين - رأساً منظوراً يخرج من جسم الوسيطه وأيدياً وأصابع منظورات ، وأن هذه الأيدي - منظورة كانت أم غير منظورة - لمست الحاضرين لمساً خفيفاً وأنها وضعت على الخوان طنبوراً وكثيراً من الأدوات غير البعيدة من الوسيطه وأن هذه أوقعت بيدها المنظورة على آلة الطرب البعيدة منها ستين سنتيمتراً ودورت بها زر مصباح كهربائى ، وقد ختم ( بوتازى ) كلامه بقوله إنه شاهد في الاجتماع نفسه خروج وجهين بشريين شاحبي اللون من الوسيطه .

وروى الدكتور ( فينزانو ) والاستاذ ( مورسيللى ) وهما من علماء ايطاليا

المعروفين أن تلك الوسيطة أتت بأمر مماثلة لما ذكرنا ، ومنها « خروج امرأة تضم بين ذراعيها طفلاً ذا شعر قصير » وعند ما سئلت الوسيطة المذكورة عن تلك المرأة أجابت « أنها أم مدام افيلينو وأن الطفل حفيدها » ، ومما ذكره ذاك العالم أن بهو الاجتماع كان آنذ منوراً بغاز كثيف ، وقد قصدنا بذلك أن يبيننا أن النور لا يمنع الأشباح من الظهور كما يزعم مستخدمو الأرواح ، وعندى أن الأشباح تظهر في كل حال إذا كان الحضور مشبعين من ايمان شديد ، أقول ذلك وأنا أعتقد مع الوسطاء أن الظلام اليهيم أنفع من النور في نمو المعتقد وانتشاره .

لقد اختلفت نتائج التجارب التي قامت بها الوسيطة ( اوزايا ) باختلاف البلدان والمشاهدين ، فكانت هذه النتائج في ايطاليا خارقة للعادة ولم يأت السحرة الذين جاء ذكرهم في الأساطير بمعجزات أعظم منها ، وقد تجلى نجاحها في فرنسا بحسب البيئات ومزاج الحاضرين النفسى ، فكان باهراً في مجالس العوام وضعيفاً في محافل العلماء ، وأما في انكلترا فلم تؤد تلك التجارب الى نتيجة ، ذلك لأن اللجنة التي عينت لفحص الحوادث المذكورة حكمت بأنها قائمة على التدليس .

صرح الموسيو ( دارسونفال ) في حديث تناقلته الصحف أنه يعتبر حوادث تجسيم الأرواح جميعها تدليساً وشعوذة ، وبين معهد العلوم النفسية أن حوادث تجسيم الأرواح التي فحصها لم تكن خالية من شائبة الغش والحيلة ، وقد توصل الموسيو ( داستر ) العضو في المجمع العلمى واستاذ علم وظائف الأعضاء في كلية ( الصور بون ) الى مثل هذه النتيجة ، إذ اختبرت معه في بيتى الوسيطة التي جربها معهد العلوم النفسية ، فرأينا في وسط النهار يداً تخرج من رأسها مرات عديدة ، ولكن لما راقبنا كتفها بجهازى الذى اعدده لتتبع جميع الحركات ثبت لدينا أن تلك اليد هي بالحقيقة يد الوسيطة الطبيعية ، وحينما تنبأت ( اوزايا ) بأنها صارت محلاً للشبهة والارتباب انقطع ظهور اليد المذكورة انقطاعاً تاماً .

إن نتائج هذا الفصل هي من الواضح بحيث لا تحتاج الى تفصيل ، فالواقن يبقون موقناً والمرتاب يظل مرتاباً . ولا شأن للعقل في ميدان الايمان .

٤ — ما هو السبب في تكوين المعتقدات السحرية :

تبين مما تقدم شأن التلقين والعدوى النفسية في الحوادث الخارقة للعادة القائمة على السحر وتأثيرهما في أرباب النفوس العالية .

غير أن ذلك الشرح لا يكفي ، فلادراك سر المناهج الدينية التي سارت عليها الشعوب في غضون القرون يجب أن لا نفسر بالعقل أموراً لم يملأ العقل أبداً كما أنه يجب أن نعد أنواع السحر كلها مظهرًا لروحنا الدينية التي لا تفارقنا والتي بينا قوتها وسلطانها .

وما مؤسسو الأديان والرقاة والسحرة والعرافون وجميع ناشري الأوهام التي جذبت قلوب البشر أوهالتهما في كل زمن إلاّ قساوسة إله مهيمن يلوح لنا أن عبادته ستظل أبدية ، فاذا نظرنا الى ما أقيم من المباني المقدسة منذ ثمانية آلاف سنة في مختلف الأقطار والأمصار وسمعنا في اكتناه القوى الخفية التي دفعت الناس الى تشييد المعابد والهياكل والكنائس والمساجد نرى أن سببها الأمل الذي هو إله الأمم الواحد وإن اختلفت الأسماء .

### الفصل الثالث

طرق البحث التجريبي في بعض المعتقدات وفي أنواع الحوادث التي زعموا أنها خارقة للعادة .

١ — نقص طرق الاختبار العادية .

إن الأوهام التي ذهب ضحيتها العلماء الذين درسوا حوادث استخدام الأرواح ثبتت لنا أن طرق الاختبار المفيدة في ميدان المعرفة لا تنفع في ميدان المعتقد ، نقول إنها لا تنفع لأن العالم يرى نفسه حينئذ في أحوال استثنائية يجب عليه فيها أن يبطل عمل التدليس المتوالى الذي لا صلة بينه وبين تجارب العلم العادية وأن يقاوم الأوهام التي لُقِنها .

فلكي نصل الى بعض النتائج يقضى تجديد طريقة البحث في الحوادث التي يجدر اتخاذها أصلاً لبعض المعتقدات ، وبما أن هذا الموضوع يخرج قليلاً من دائرة هذا الكتاب فأننى اكتفى بإيجاز السبب في كون الطرق المزاولة حتى الآن لا قيمة لها مبدئياً المواضيع التي تفيد فيها طريقة الاختبار العادى .

ونلاحظ قبل كل شيء أن المؤمنين بحوادث السحر يقولون انها لا تقع متى اردنا ، إذ ليس على الآلهة الموجبة لها أن تسير حسب أهوائنا ، فالمشترى يرسل الصواعق متى شاء وإله البحر يثير الموج ويسكنه غير ملتفت الى دعاء الربانية والملاحين .

غير أن استحالة التنبؤ باحدى الحادثات لا يمنع الانسان من فحصها فحصاً علمياً عند ظهورها ، ولذا نرى أن الصعوبة التي لاحظناها ليست على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة الى الصعوبات التي سوف نلمع اليها .

٢ — قيمة الشهادة والاختبار في البحث في المعتقدات .

الشهادة هي أصل البحث في التاريخ ، والاختبار هو المرشد الهادى في مسائل العلم ، وأما في أمور السحر فلا قيمة للشهادة ولا ينتفع بالتجربة والاختبار الا في أحوال مستثناة ، فما هو السبب في رفض الشهادة حتى عند تواتر الروايات وتوافقها ؟ أجيب عن ذلك بأن تاريخ أغلب حوادث السحر يثبت لنا أن الوفاً من الشهود ذكروا أنهم شاهدوا وقوع أمور ظهر بعدئذ أن مصدرها تهوس الأفراد أو الجوع ، ومن تلك الحوادث اتفاق الشهادات — في دعاوى قضائية عديدة أقيمت في القرون السابقة — بأن كتائب السحرة اجتمعت بالجن بين الرياح ، فمع أن حوادث التاريخ قلما تجد دعائم مثل تلك تستند اليها لإثبات صحتها فإنه لا يجرؤ اليوم أحد على المناضلة عن حوادث السحر ، وليس الآن حظ المعجزات التي شاهدها مئات من الناس في القرون الغابرة بأحسن من حظ تلك من حيث صحتها وثبوت وقوعها . وعليه يجدر بنا أن لا نعلمد على الشهادات ولا على الاختبار الفردى في درس الحوادث الخارقة ، فالتلقين هو المصدر الدائم لهذه الأمور ، ويؤثر التلقين

في الشاهد على الخصوص بأن يجعله يتوهم أنه يحق وقوع إحدى الحوادث ، حينئذ يستحوذ الهوس عليه من كل جانب فيعتقد أنه يشاهد حقائق لا ريب في صحتها ، فالتصغير إلى ما يتقصه علينا المؤمنون خوفاً من أن يستولى الغم والحزن عليهم ولكن لنجسد في أنفسنا ما يحدثوننا به من قصص الخوارق للعادة .

تجلى لنا صعوبة البحث في الحوادث الخارقة عند ما نعلم أنه ليس من السهل أن نختبر أبسط الأمور اختباراً دقيقاً ، قال الاستاذ ( بونيس ) : « إن تحقيق الحادثة الواحدة غير هين فنحن نميل بطبيعتنا إلى تشويه ما نشاهده من الأمور على رغم أنوفنا وجعله ملائماً لأفكارنا الشخصية وعاداتنا النفسية والطرز الذي ننظر به إلى العالم . »

٣ — قيمة تجربة الفرد وتجربة الجماعة .

بعد أن تقضنا أمر الشهادة والاختبار لم يبق لدينا شيء آخر سوى التجربة فالتجربة سهلة في المواضيع العادية ، وأما المواضيع التي ينظر إليها من خلال المعتقد فإن التجربة في الغالب تؤيد ما فيها من خطأ وضلال بدلاً من كشف حقيقتها ، نعم قد يستعين المرء بالتجربة ، ولكن ما الفائدة في تطبيقها على أمور خفية غير منظورة ؟ فتدفع الرجل بآلة يحقق بها تنقل الشيء في وقت يقلبه الوسيط من وراء حجاب لا يؤدي إلى تدقيق نافع .

ولصعوبة التجربة في مسائل السحر يجتمع العلماء بعضهم على بعض كي يتوصلوا إلى نتيجة حاسمة فيها ، فهذا الاجتماع لا يجدي نفعاً ، لأن العلماء وهم مجتمعون يلتقن أحدهم الآخر فينقص ما فيهم من ملكة الانتقاد ، وبعد أن ينخفض مستواهم النفسي على هذا الوجه يتجهون إلى نتائج غير صحيحة ، ولا أظن أن اكتشافاً كبيراً تم على يد جماعة حتى الآن ، فإذا اكتُشف شيء ينير السبيل في أمر السحر فإن ذلك لا يكون إلا من قبل عالم على انفراد .

ولم يؤدي تحقيق أمور السحر في انكلترا وفرنسا وإيطاليا إلى شيء جديد سوى تأكيد ما ذكرناه من الملاحظات أي أن الوسيط الواحد في هذه البلدان عدَّ بحسب نفسية الحضور وقابليتهم للتأثر من التلقين إما مدلساً وإما بالعكس ذا قدرة



كالتى عزاها الناس فى الماضى الى الشيطان ، واكثر تلك التحقيقات أهمية — سواء من جهة ما أنفق فى سبيلها من مال وزمان أو من جهة شخصية المجرىين البارزة — هو التحقيق الذى قام به معهد العلوم النفسية فى باريس ، فعلى رغم الخمسة والعشرين الف فرنك التى بذلها والثلاثة والأربعين اجتماعاً التى عقدها فى هذا السبيل لم يتوصل المعهد المذكور الا الى نتائج ضئيلة ، ولم يتفق الحاضرون على حادث ظهر فى الاجتماعات المذكورة فينوروا المسئلة ولو قليلاً .

٤ — ضرورة تحليل الحوادث والتدقيق فى كل عنصر من عناصرها على حدته — تطبق ذلك على حادثة الرفع

أن الفشل الذى أصاب تحقيق معهد العلوم النفسية يثبت لنا ضعف قيمة طرق البحث الحاضرة ، وعندى أنه يجمل بالباحث أن يحصر نظره فى تدقيق حادث واحد حتى يظفر بنتيجة بدلاً من أن يشعب ذهنه الى كثير من الحوادث دفعة واحدة، فلما لم يدرك احد فائدة هذا النهج رأيت أن اطبقه بنفسى على احدى الحوادث وهى منفردة اعنى حادثة رفع احد الأجسام من غير أن يامسه شىء ، وبعد أن عاينت الوسيطة ( اوزايا ) مستعيناً بالاستاذ ( داستر ) بقى فينا بعض الشك فى أمرها مع أنه ليس فى حادثة الرفع ما ياباه العقل ، اذ قد يتصف الوسيط بقوة خاصة يقدر بها على جذب الأشياء كما يجذب المغناطيس الحديد ، غير أننا رأينا قبل أن نتباحث فى شأن تلك القوة أنه يقتضى اثبات وجودها قبل كل شىء .

ولكى ادعم شكوكى فى امكان وقوع حوادث الرفع عزمت على مراجعة جميع الوسطاء الذين يزعمون أنهم قادرون على رفع الاشياء من غير لمس ، فخصصت مع البرنس ( رولان بوناپارت ) احد اعضاء مجمع العلوم والذكور ( داريه ) مدير مجلة العلوم النفسية جائزة قدرها الف فرنك تعطى للوسيط الذى يستطيع أن يرفع شيئاً دون أن يمسه ، وقد نشرت خبر هذه الجائزة مع مقالة فى جريدة ( الماتن ) التى هى من أهم الصحف ليطلع عليها الوسطاء فتناقلت اكبر جرائد العالم تلك المقالة .

أن التجربة التى اقترحتها ستكون دليلاً قاطعاً لاجدال فيه عند تحقنها ، لأننى

اشترطت أن تقع نهاراً في مختبر الاستاذ ( داستر ) في كلية الصور بون وفي حضرة اثنين من المشعوذين وفوطوغرافى لأخذ تفاصيل التجربة بالصور المتحركة وأربعة من اعضاء المجمع العلمى ليكونوا شاهدين على الكيفية التى تقع بها التجربة فقط .

ولم يمكن الاعتراض على تلك الشروط بأن حوادث الرفع لا تقع الا فى الظلام بعد أن صرح اكثر السحرة فى الوقت الحاضر بأنهم لا يرون فرقاً فى ذلك بين الليل والنهار وبعد أن نصَّ الموسيو ( ما كسويل ) فى كتابه على إمكان وقوع حوادث الرفع فى وسط النهار وبعد أن قال الموسيو ( بواراك ) مدير المجمع العلمى فى ( ديجون ) إنه جذب خواتماً مرات عديدة فى النهار دون أن يمسه ، ولماذا لم يسع الموسيو ( بواراك ) فى نيل جائزة النى الفرنك وفيه تلك القدرة ؟

اعلانى للجائزة المذكورة ادى الى اخذى بضع مئات من الرسائل ، الا أنه لم يحضر لكسبها سوى خمسة وسطاء ، وقد اخبرتهم بالشروط المذكورة آنفاً وعاهدتهم على اقامة الاجتماعات التى يطلبونها فوعدونى جميعهم بالحضور فى اليوم المعين ، ولكن لم يأت احدٌ منهم فى الأجل المضروب .

ومع أن الوسيطة ( اوزايا ) عجزت عن إمالة كفة ميزان الرسائل بعد أن روقبت مراقبة جدية فإن مستخدمى الارواح لا يزالون يدعون مؤكدين بأن الوسطاء يتدرون على رفع ما وزنه مثلاً كيلو من غير لمس ، قال الاستاذ ( مورسيللى ) : « لا شك فى صحة حادثة رفع الاخونة ، فالخوان قد يرتفع دون أن يمَسَّ ويبقى معلقاً مدة ثمان وسبعين ثانية ، على هذا الوجه استطاع وسيط شاب شاعر أن يحرك خزانة وزنها ١٨٠ كيلو . »

وأنا لنأسف على كون الشاعر الشاب - الذى استطاع أن يزحزح ١٨٠ كيلو من غير أن يمسه - لم يسع فى نيل جائزة النى الفرنك برفعه بضعة غرامات فقط .  
واظنتى اتيت بخدمة جليلة بأثباتى ندره حوادث الرفع على فرض تسليمنا بإمكان وقوعها ، وهو امر لم نعتز قط على ما يؤيده .

وقد اراد معهد العلوم النفسية أيضاً أن يحقق حوادث الرفع فعانى كثيراً من

المتاعب في ذلك السبيل ، ومن دواعي الأسف أن ما أتى به من التجارب والصور المؤيدة لتلك الحوادث لا تقنع أحداً .

وما أسعد حظ علماء إيطاليا ، فقد رأوا أيدياً روحانية ترفع الوسيطة ( اوزايا ) في الهواء ، وبعد أن نال ( لومبروزو ) شرف المحادثة مع شبح أمه أيقن بصحة ما وقع ، وهذا ما قاله في حديث نشرته جريدة ( الماتن ) : « نعد صعود ( اوزايا ) - التي كانت جالسةً مربوطة اليدين والرجلين ربطاً وثيقاً - على الخوان رويداً رويداً من الأمور الخارقة للعادة وما رأينا في أثناء صعودها سوى يدين روحانيتين آخذتين بابطيتها لتساعداها على ذلك . »

غير أن الروح التي أعانت يديها الروحانيتين ( اوزايا ) على رفع نفسها أو على رفع اخونة ثقيلة بسهولة لم تعضداها عندما أخذ بعض المرتابين يفحصون الأمر فخصاً جدياً ، كانت هذه الوسيطة تميل في معهد المعلوم النفسية كفة ميزان الرسائل دون أن تمسها فأخذ الحضور يعتقدون صحة ذلك ، وفي تلك الاثناء لاح لأحدهم أن مصدر الميل ناشئ عن شعرة تمسكها الوسيطة بين اصابعها فكسى الكفة وسأثر الميزان بسواد الدخان ليظهر عليه كل أثر للشعرة عندما تمسه ، ومنذ تلك اللحظة لم تستطع ( اوزايا ) أن تحرك كفة الميزان ولو مرة واحدة من غير أن تلمسها .

وقد جربت ( اوزايا ) أن تغير وزنها أمام معهد العلوم النفسية ، وفعالاً دل الميزان على نقص في الوزن غير قليل ، إلا أنه ثبت أنها أثرت بيديها في عقرب الميزان .

ثبت مما تقدم أن حادثة الرفع التي هي ابسط ما يحدث عنه مستخدمو الأرواح ليست حقيقية ، وما اتينابه من البحث والتدقيق في المذهب الروحاني لم يخل من فائدة ، فقد دلنا على انتشار دين جديد اعتنقه عدد غير يسير من أفاضل العلماء الذين لم يستطيعوا العيش من غير أن يتمسكوا باحد المعتقدات ، فالآلهة قد تزول أحياناً ولكن النفسية الدينية لا تموت أبداً .

• من هو جدير بالبحث في الأمور الروحانية ؟

الآن أصل الى مسألة ذات بال يجب الاسهبان في بيانها ، وأعنى بها وصف الاشخاص الذين يستطيعون أن يحققوا الحوادث الروحانية .

فمن الخطأ الشائع بين الناس زعمهم ان العالم الاختصاصى قادر على اختبار أمور بعيدة من دائرة معرفته ولا سيما الأمور التي للوهم والتدليس شأن كبير فيها ، فالعلماء لما كانوا عاشرين خالصى النية صادقى الطوية موطنين أنفسهم على تصديق ما يشاهدونه بمساعدة آلائهم الفنية اصبحوا بالحقيقة اكثر الناس تعرضاً للحيلة والخداع ، أثبت ذلك بالمثال الآتى الغريب الذى نشرته مجلة « تقويم العلوم النفسية » واليكه :

« دعا الموسيو ( دافى ) اليه عدداً غير قليل من كبار أهل النظر وفيهم عالم من أشهر علماء انكلترا هو المستر ( والاس ) وقدم لهم أشياء لمسوها بأيديهم وختموها كما شاؤوا ثم أجرى أمامهم جميع ظواهر هذا الفن من تجسيم الارواح والكتابة على السبورة وغيرها ، وكتبوا له شهادات قالوا فيها إن المشاهدات التى وقعت أمامهم لاتنال الا بقوة فوق قوة البشر فلما صارت الشهادات فى يده قال لهم إن ما فعله شعوزة بسيطة جداً ، قال راوى الحادثة : والذى يوجب الدهش والاستغراب فى بحث الموسيو ( دافى ) ليس إبداعه ومهارته فى الحركات التى قام بها بل ضعف الشهادات التى كتبها اولئك الشهود الذين كانوا يجهلونها فقد ذكروا روايات كثيرة واقعية كلما خطأ ولو صح وصفهم الحوادث التى يروونها لتعذر تفسيرها بالشعوزة ، على أن الطريقة التى استنبطها الموسيو ( دافى ) بسيطة يدهش الإنسان لبساطتها من جرأته على استعمالها ، ولقد كان له من التأثير فى افكار جماعته ما جعلهم يرون ما لم يروا . »

ذلك شأن التلقين على الدوام ، فتأثيره فى ذوى النفوس السامية الذين يتذرعون مقدماً بالحذر والاحترار يثبت ماله من السلطان الكبير .

إذاً لا يقدر العلماء أن يحققوا حوادث استخدام الأرواح تحقيقاً شافياً . فأولو النظر الذين يستطيعون ذلك هم الذين تمرنوا على خلق الأوهام وإيقاع الناس فيها أعنى المشعوذين وإنا لنحزن على كون معهد العلوم النفسية لم يدرك ذلك ، فلو

استعان هذا المعهد ببعض المشعوذين لما أنفق خمسة وعشرين الف فرنك في سبيل تجارب لا طائل تحتها .

ومن الأمور المعلومة أن المؤمنين يرتابون بالمشعوذين ارتياباً شديداً خوفاً من تبديد ما ران على قلوبهم من الاوهام ، فلما اقترح الاستاذ ( بينيه ) على معهد العلوم النفسية إحضار مشعوذين ماهرين لكشف الغطاء عما استحوذ على النفوس من الاضاليل عدل المعهد المذكور عن دعوته لحضور الاجتماعات كما جاء في رسالة أرسلها ذلك الاستاذ الى .

ولا يسعنا الا أن نأسف على كون ذلك المعهد لم يرمح الى دعوة المشعوذين ، والآفة هي العلة التي تبرر رفض المعهد المذكور للاستعانة بأولئك المشعوذين الذين هم وحدهم يقدرون على ابطال عمل الحيل ؟ وكيف لم يشعر أعضاء اللجنة بضرورة الاستفادة من خبرة أناس تعودوا إيهام الناس ؟ ، ولقد اثبت الانكاييز أنهم على جانب كبير من الصواب ، إذ اختارت جمعية المباحث النفسية في انكلترا مشعوذاً يسمى ( مسكلين ) لاكتشاف حقيقة الوسيط الذي اختبره معهد العلوم النفسية في باريس ، فاثبت هذا المشعوذ تدليس ذلك الوسيط .

حقاً إن طرق البحث في الحوادث الخارقة تتطلب شروطاً خاصة كما بينت ، فلما جهل كبار أهل النظر هذه الشروط وقعوا في ضلال مبين

## الفصل الرابع

بحث في بعض الحوادث اللاشعورية التي هي مصدر المعتقدات

١ — تأثير الايمان في الاعضاء والشفاء .

سأذكر بين المباحث القائمة على التجربة تأثير بقايا اجساد القديسين والحج والمياه ذات المعجزات الخ. والمؤمنون من كل دين يسمون بان هذه الاشياء قادرة على الشفاء . يؤيد ذلك ما عُلِقَ على جدران معابد الآلهة من الذخائر المنذورة منذ القرون الغابرة .

ومن المحقق أن حجج ألوف من المؤمنين سواء الى ( مكة ) أو الى ( لورد ) أو الى ضفتى نهر ( الغانج ) لم يكن عبثاً في كل وقت ، فعندما يحرك الايمان الشديد قوى اللاشعور الخفية تبدو هذه القوى في الغالب أنها اشد تأثيراً من الوسائل التي يتذرع بها علم الطب لمداواة الامراض ، وما اعتقد أنه يفتح أفقاً واسعاً غير منتظر في علم وظائف الأعضاء هو إيضاح درجة تأثير التلقين الناشئ عن الصلوات وبقايا اجساد الأولياء والتعاويذ والتائم في الأعضاء .

لا ريب في أن هذا البحث المهم لا يكون جدياً قبل أن يمضى وقت كبير ، إذ لم يبحث حتى الآن عن الشفاء القائم على تأثير الخوارق غير أناس مرتابين متصلبين في ارتياهم أو مؤمنين أعمى الايمان بصائرهم ، فما أن هاتين الصفتين متساويتان في شل قوة الاختبار في الإنسان ولا يلبث المرتاب في تلك المواضع أن يكون في بعض الأحيان معتقداً من حيث لا يشعر لم يسهل الوصول الى حقائق واضحة فيها .

ولقد بقيت جميع تلك الامور - وهي مجحودة أو مسلم بها على غير دليل تجريبي - مقصاة في ميدان المعتقد غير جديرة بالاهتمام ، وما كان يلوح للأعين شيء أكثر استحالة من تحقيق وعود المبشرين القائلين بتأثير المياه والمساحيق العجيبة وبقايا القديسين وخواتم السحر الخ .

إلا أن المباحث العصرية في التلقين دلتنا على أن تلك المزاعم ليست عبثاً ، إذ

أدت في الغالب الى شفاء في الجسم وزيادة في قوته ومنحت القلوب شجاعة واحيت في النفوس آمالاً . وهكذا ظهر لنا أن الحقائق العلمية ليس فيها ما في الأضاليل من فائدة في بعض الأوقات .

وعمل في الأعضاء من قوى مجبولة تعمل عملها بتأثير الخيال ؟ لم يستطع أحد حتى الآن أن يجيب عن هذا السؤال جواباً قاطعاً ، ومع ذلك يمكننا أن نأتى بالفرضية الآتية هي : إن الخيال لما كان صادراً عن أحوال عضوية فان استمراره قد ينعكس على تلك الاحوال فيؤثر فيها ، ولهذا يكفي لنيل الشفاء احداث خيالات نفسية شديدة .

وقد علم ذلك الأمر منذ زمن بعيد ، فقد أشار الفيلسوف الايطالى ( بومباناى ) في رسالة نشرها سنة ١٥٢٥ الى أن عظاماً للحيوانات بيعت على أنها من أجساد القديسين المشهورين كانت تشفى الناس كهظام هؤلاء القديسين الحقيقية ، ثم إن الشفاء بفعل الايمان قد استعان به الطيب الشهير ( شاركو ) في أيامنا الحاضرة مرات عديدة .

٢ — الأوهام الناشئة من تلقين الفرد وتلقين الجماعة .

للتلقين سلطان عظيم على النفوس ، فيه أمن مدة سنتين أفاضل علماء الطبيعة - الذين أشرنا اليهم آنفاً - بوجود أشعة خاصة لم تلبث أن اختفت بعد أن علموا أنها عبارة عن أوهام ، وهو الذى يجعل الناس يسامون بصحة حوادث مستحيلة كتجسيم الأرواح بغتة ، على هذا الوجه اعتقد الكيماوى الشهير ( كروكس ) خروج شبح ( كافي كينغ ) من الوسيطة مع أن هذا الشبح لم يكن غير الوسيطة نفسها ، وقد قبض أخيراً على هذه الوسيطة في برلين عند ارتكابها جرم التدليس الذى كانت تبثله أوهمت العالم الانكليزى المشار اليه .

أفلا يوجد في العالم أناس ذوو قدرة عظيمة على التلقين يستطيعون أن يؤثروا بها في من يحيط بهم من الناس تأثيراً كبيراً ؟ يظهر أن بعض الحوادث تؤيد ذلك ، ومنها حوادث الرفع التى يأتى بها الوسطاء أمام الجمهور قائلين إنهم اقتبسوها من دراويش الهند .

والتقنين في الأمور الروحانية تأثير عظيم الى الغاية ، وقد اعترف بذلك دعة المذهب الروحاني من أنفسهم ، فقد قال ( ماكسويل ) : « يلقت الحاضرون بعضهم بعضاً فلا يلبثون أن يكون عندهم هوس جامع ، ومما سمعته أن أحد الحضور أشار الى أنه يرى نوراً في جهة معينة فالتفت الباقيون ورأوا ما رآه ، ثم أعلن رجل أنه يشاهد صورة فتشاهد الآخرون ما شاهدته ، هذا هو هوس الجماعة ، وقد أيدت لي تجاربي الشخصية أن حاسة البصر هي أكثر الحواس استعداداً لقبول الانطباعات الوهمية . »

للتقنين في بعض الاحيان تأثير خارق ، فقد بلغ في إغوائه للسحرة في القرون الوسطى مبالغاً جعلهم يرضون مطمئنين بحرقهم كتكفير عن خطيئاتهم الخيالية ، ويلوح لنا أن مزاج المختبرين النفسى في الوقت الحاضر - ومنهم أفاضل العلماء - يقرب من مزاج اولئك السحرة من هذه الجهة ، لأننا على رغم ادعائهم بأنه لا سبيل للوهم فيهم الا في أحوال شاذة نراهم عاجزين عن التفلت من حكمه ، فليس من الهين أن يتحرر الانسان من ربة المعتقد ، وكلما حاول ذلك عاد اليها بفعل التقنين الذى يستولى على عقله وبصيرته .

وقد أوضح الأستاذ ( غراسيه ) هذا الأمر ايضاحاً جيداً حيث قال : « إن من الأمور الغريبة ما يطراً على المختبرين من أحوال غير طبيعة عندما يحاولون درس ذلك ، فبعد أن أوضح ( لومبروزو ) في مذكراته تجارب علمية دقيقة في أمور الطب أخذ يشرح فيها صحة ظهور الأموات ومناجاتهم ورفع الاشياء من غير أن تمس كدور ان ( هوم ) حول نوافذ أحد القصور دوراناً أفتقياً من دون أن يلمس شيئاً وكرفض أخوى ( روفو ) الصغيرين خمساً وأربعين كيلومتراً في مدة لا تزيد على خمس عشرة دقيقة وكتقمص الأرواح لقسم من جوهر الوسيط تقمصاً موقتاً كي تبدو تامة الأعضاء ، وهكذا نرى أن خيرة العلماء ينسون قواعد العلم ومناهجه حينما يكونون إزاء حوادث السحر . »

ولكن هذا الاستعداد النفسى يختلف باختلاف الأفراد والشعوب ، فقد أتى الوسيط الواحد بنتائج مختلفة في انكلترا وفرنسا وايطاليا أى إن هذه النتائج كانت كالعدم في انكلترا ومتوسطة في فرنسا وباهرة في ايطاليا .



ويتجلى ما لتلتين بعض الوسطاء للحضور ومنهم العلماء من التأثير الكبير بمطالعة تقرير معهد العلوم النفسية في باريس الباحث عن الوسيطة ( اوزابيا ) ، واليك المثال الآتي الذي نقله منه : « رجت الوسيطة ( اوزابيا ) الموسيو ( دارسونفال ) أن يرفع الخوان المستدير فرفعه بسهولة ثم منعه من الرفع فلم يقدر على زحزحته ثم وضعت يدها على الخوان فرفعه بدون صعوبة ، ثم قالت للخوان كن خفيفاً فرفعه على وجه أسهل من ذي قبل . »

ثبتت هذه التجربة تأثير بعض الوسطاء في الناس بواسطة التلقين ، ومع ذلك سألت مستغرباً عن تسليم ذلك العضو في الجمع العلمي بأن أحد الناس قد يكون ذا قدرة خارقة يستطيع أن يغير بها وزن الأجسام تغييراً متفاوتاً الى الغاية من دون أن يخطر بباله أن يحقق الأمر بالميزان ، نعم حاول معهد العلوم النفسية أن يعيد تجاربه مرة أخرى ، إلا أنه أجراها في أحوال اعترف بأنها لا تنشئ طائفة في النفس ، فمثل تلك الحادثة يقتضى تكريرها ألف مرة لا مرة واحدة .

ويحتمل أن الوهم قد استحوذ على الموسيو ( دارسونفال ) عند ما تصور بتأثير تلقين ( اوزابيا ) أنه حقق تغيير وزن الشيء الواحد كما استحوذ عليه وقما توهم وجود أشعة ( X ) فالقى عنها محاضرة حماسية قال فيها بصحة جميع حوادثها المزعومة ، فالسهولة التي لُقِّنَ بها جميع علماء الطبيعة الفرنسيين فيما يتعلق بتلك الأشعة هي من الأدلة البارزة التي يُستدل بها على عظم شأن التلقين في تكوين المعتقدات .

٣ — تحول الارواح الفردية الى روح جامعة .

إن مبحث تكوين روح الجموع هو أحد مباحث علم النفس الغامضة التي يجب الإكتفاء إزاءها بالملاحظة والمشاهدة ، وما يمكننا أن نقوله في ذلك هو أن الجموع ذات وحدة في المشاعر لا في الذكاء ، وما في المشاعر من الاستعداد للانتقال بالمدوى يوضح لنا السبب في كون الناس عند ما يجتمعون يكتسبون ما تتصف به الجماعة من صفات وأخلاق أي تتكون في الاجتماع المذكور روح جامعة على الفور فيظهر فيه زعيم ومسوسون .

وما هو كنه تلك العدوى ؟ أشعاع ذو طبيعة خاصة أم شيء آخر ؟ يستحيل علينا أن نجيب عن ذلك ، ويصعب علينا أيضاً أن نكتشف طريقة تجريبية تؤدي الى حل المسئلة المذكورة ، فتكوين روح الجماعات وتطورها وانحلالها عبارة عن الغاز في علم النفس ، وكل ما يقوله علم النفس هو أن روح الجموع ذات تأثير جوهري في حياة الأمم .

؛ — انحلال الذات .

تكلمت عن هذه الحادثة في فصل سابق ، فعندى أن الذات هي ثمالة تنتقل بالإرث ملتحمة الأجزاء على قدر الإمكان ، إلا أن كثيراً من المؤثرات كالتنويم المغناطيسى وملازمة الوسطاء والحوادث الثورية الشديدة الخ تحل تلك الثمالة فتألف من أجزائها ذات جديدة موقته تختلف بأفكارها وأقوالها وأعمالها عن الذات الأصلية اختلافاً تاماً ، وقد طبقت هذه النظرية على بعض رجال الثورة الفرنسية الذين لم يبد منهم قبل نشوبها ما يدل على ما سيقترفونه فيها من الآثام والذين لم يدركوا كنهه المحرض لهم على ذلك بعد سكونها .

## الفصل الخامس

كيف تستقر النفس في دائرة المعتقد وهل  
من حد للسذاجة وسرعة التصديق ؟

١ — معرفة العلماء ومعتقدهم .

أود أن أزيد الأدلة التي جاءت في هذا الكتاب إثباتاً وتأييداً ، ولذا أبحث بحثاً موجزاً عن الكيفية التي يترك بها أرباب الملكات العلمية دائرة المعرفة عند ما يدخلون دائرة المعتقد بفعل أنواع المنطق التي شرحناها في الفصول السابقة .

لإدراك السبب في كون كثير من أكابر العلماء الذين تعودوا تجارب العلم الوثيقة لا يلبثون أن يؤمنوا ببعض الخوارق كتجسيم الأرواح يجب أن لا ننسى أن المنطق العتلى والمنطق الدينى يبقيان فى النفس الواحدة مهما تكن ، فدوائر العقل والتدين والعاطفة مستقل بعضها عن بعض وتكون مصادر الايمان مختلفة بحسب الانتقال من احدى تلك الدوائر الى الأخرى .

إن الارتباب فى دائرة العقل هو القاعدة ولا دليل فيها غير التجربة والاختبار ، وأما فى دائرة المعتقد حيث يسيطر المنطق الدينى فلا حد للسذاجة وسرعة التصديق ، ولكن كيف يترك العالم المرتاب دائرة العقل ليدخل فى دائرة المعتقد ؟ يدل الواقع على أنه يدخل فيها غير مختار وإن كان لا يعدل عن تجاربه ، وبما أن الايمان يدخل فى قلبه على وجه غير شعورى من حيث لا يعلم فإن تجاربه تتطور على شكل يتأيد به إيمانه الجديد وتسير على ما يلائم معتقده لا إرادته ، يؤيد ذلك تاريخ الأديان المفعم بخوارق العادات .

٢ - كيف يصبح العالم مؤمناً ؟

لنفرض أن عالماً كثيراً الشك والارتباب أراد أن يبحث فى حوادث السحر بحثاً تَجْرِيْبِيًّا ، فيجب عليه قبل كل شىء أن يلازم مكان السحرة حيث تتجلى تلك الحوادث أى أن يزج بنفسه بين أناس مجتمعين فى وسط مظلم ، وبعد أن ينتظر طويلاً يسمع ضوضاء وزُحُولاً فى الأمتعة ويؤكد له مجانبوه أنهم يرون وميضاً وصوراً تقمصتها أرواح الخ ، ولما كان هذا العالم متصلباً فى ارتيابه فإنه يخرج من دون أن يطرأ شىء على شكوكه .

ومع ذلك فإن أموراً تفرع ذهنه بعد الاجتماع المذكور ، فيلوح له أنه سمع فيه ضوضاء غريباً وأن مجانبيه - وهم من أشرف الناس - رأوا وميضاً وشاهدوا الأمتعة تنتقل من غير أن يمسه الوسيط ، فيرغب فى الحضور مرة أخرى للبحث عن أسباب تلك الحوادث .

يعود الى الاجتماع فيكون هدفاً للتلقين والعدوى النفسية ثم تستحوذ عليه

الوساوس والشبهات ، فيرى أنه لا بد من أن يكون شيء خلف الحوادث المذكورة التي سلم بصحتها عدد غير قليل من العلماء ، ثم يعود الى الاجتماع مرات عديدة فتستأنف تلك المؤثرات النفسية عملها فيه فيتدرج الى فقد ارتيابه حتى تغيب ملكة الانتقاد فيه فيدخل في دائرة المعتقد راسخ الايمان .

ومع ان ذلك التدرج دليل على تقهقر منطقته العقلي لا يعترف بالواقع فيأتي بتجارب جديدة مستعيناً بآلاته وأدواته العلمية وينصب حائل لاصطياد الأشباح ، ولكن لما كانت الأشباح أمراً لا تتاله يد المراقبة فان تجارب العلم قلما تنجح في شؤونها ، حينئذ يكتفى العالم بظواهر الأمور وتفوته عوامل التدليس مهما تكن ظاهرة ، وهكذا حتى يتم قهر منطقته العقلي فيعلن العالم ايمانه بالمعتقد الجديد على رؤوس الأشهاد ، على هذه الصورة تمت مباحث كثير من العلماء في الوقت الحاضر ، ومن هؤلاء العلماء الاستاذ الشهير ( لومبروزو ) الذي كان شديد الارتياب عند ما باشر تدقيقاته فاصبح شديد الايمان في نهاية الأمر كما يشهد بذلك كتابه الأخير .

تبين مما سبق كيف أن العلم لا يقدر على تحرير الانسان من أوهام المعتقد ، ولو طبقنا أحكامنا على انتشار الأديان التاريخية لاتضح الأمر أكثر من تطبيقها على أمور السحر ، فالأديان تذيب في الغالب بين أناس بسطاء عاطلين من ملكة النقد عاجزين عن التعقل والتجربة والاختبار ، وفي هؤلاء الناس قد تؤثر عوامل الايمان ولا سيما النفوذ والعدوى النفسية أكثر مما تؤثر في العلماء الذين يتدربون بوسائل يمكنها أن تقيهم فعل هذه العوامل ، نقول قد تؤثر لأننا نعلم أن العالم والجاهل وإن اختلفا من الوجهة العقلية يتقاربان من الوجهة الدينية والعاطفية في أغلب الأوقات ، وقامتا تكون معتقدات العالم الشهير الدينية والسياسية والاجتماعية أعلى من معتقدات أحقر الرعاة .

٣ — حدود السذاجة وسرعة التصديق .

يدلنا هذا الفصل والفصول السابقة على أنه لا حد للسذاجة وسرعة التصديق في ميدان المعتقد وأنه لا فرق فيه بين العالم والجاهل ، فالعالم الذي يشك في الكسور

العشرية قد يؤمن من غير صعوبة بخروج محارب على رأسه خوذة من جسم أحد الوسطاء وبمشيه في إحدى التيعان وبتهريضه نفسه للحضور كي يجسوا نبضه ويعتقدوا أنه ليس شبحاً فارغاً أو غازاً لا يمكن مسه .

ولا قرار لسرعة التصديق والسذاجة فقد جاء في عدد من مجلة استخدام الارواح التي يديرها أحد اساتذة كلية الطب في باريس ما يأتي : اولاً حكاية وسيط رفع ساعة كبيرة من غير أن يمسه ، ثانياً صور بعض الارواح ، ثالثاً البحث عن جن يسكنون الغابات ، رابعاً قصة أربعة اشباح أنشئت نشيد ( المرسيلياز ) الخ .

إذاً لا يفضل العالم الجاهل من حيث سذاجته وسرعة تصديقه ، فالسذاجة المتناهية هي حال نفسية قد تهيمن علينا جميعاً عند ما نخرج من دائرة المعرفة لندخل في دائرة المعتقد .

حقاً إن بضاعة العلم مزجاة ، فهو لا يوضح لنا سوى عدد يسير من الأسرار المحيطة بنا ، الا أنه يقول إن الحوادث تابعة لنواميس ثابتة غير متقلبة .

وما تخلص البشر من الهمجية النفسية الأولى إلا بعد أن ضرب بالخرافات والاساطير القديمة عرض الحائط وصار لا يخاف سلطان المشعوذين والخوارق والسحرة ، ولم يكتشف مستخدمو الأرواح في كل جيل حقيقة مجهولة مع أن طرق العلم ومناهجه تُخرج من العدم عالماً مؤلفاً من العجائب ، فلترك زمر الاشباح والأرواح التي هي بنات الليل الى أرباب النفوس المريضة ولتنظر الى النور الذي يتبدد أمامه جيش الظلام .

لا جدال في هذه النتائج ، غير أنها لم تحل المشكلة من جميع وجوهها ، فجميع الناس في كل زمن سُكبوا في قالب المعتقد الذي هو ضروري لحاجات النفس الأبدية ، ذلك لأن العلم يحرم على نفسه الخوض في مصير الدنيا مع أن النفس ترى مثلها الأعلى وآمالها في هذا المصير ، فالنفس تفرع على الدوام باب حصن الأسرار الحصين أملاً في اكتشاف سبب الأشياء ومصيرها ، وبما أنها لم تقدر حتى الآن على فتح ذلك فانها ملأت الحصن المذكور بأوهام وأحلام .

فلا تقل بيطان تلك الجهود ، لأن المعتقدات التي هي بنتها قد أورثت التلويب سلواناً وأنارت لها سبل الحياة ، وها هو العلم القليل التسامح في الماضي أخذ يحترم المبادئ الخارجة عن منطقة نفوذه ، فالعلم والمعتقد اى العقل والمشاعر ينتسبان الى معتادين مستقلين لا يؤثر احدهما في الآخر .

والعالم الذى سوف يعالج هذا الموضوع بعد الف سنة لا أدري كيف يرى نفسه إزاء حوادث مشابهة لحوادث الوقت الحاضر أفيأتى ببيان صريح عن علة العلل ام لا ، وانما لا اشك فى انه سينص على آلهة ومعتقدات جديدة مهيمنة على البشر الذى لا غنية له عنها .

---

## الخرصة

إن من أهم المسائل الأساسية التي أشرنا إليها في أوائل هذا الكتاب هو البحث عن الكيفية التي يؤمن بها أولو العقول الراجحة في كل جيل بمعتقدات لا يؤيدها دليل ، ولو كان أمر المعتقد إرادياً عقلياً كما جاء في رسائل علم النفس سابقاً لما مست الحاجة الى طرق باب ذلك البحث ، غير أن تحليل العناصر التي يقوم عليها المعتقد وثبوت كونه غير شعورى قائماً على مبادئ دينية عاطفية مستقلة عن العقل والإدارة قد فتح باباً جديداً للدرس والتنقيب .

وإذا لم يكن العقل منشأ المعتقد فإنه لقادر على المجادلة في أمره واكتشاف ما فيه من خطأ وضلال ، ومع ذلك نسأل لماذا يهيمن المعتقد على الناس على رغم مناقضته لأكثر الأدلة وضوحاً والمعقولات جلاء ؟ وقد اجبنا عن هذا السؤال عند ما بحثنا عن تأثير بعض العوامل — أى النفوذ والتوكيد والتكرار والتلقين والعدوى — في ميدان اللاشعور ، فهذه العوامل التي لا سلطان للعقل عليها تؤثر حتى في العقل وتمنعه من الاعتراف بالبدهييات .

وقد اثبتنا قدرة هذه المؤثرات على تكوين المعتقدات ببياننا عملها في أعرق الناس علماً ، اذ رأينا كثيراً من علماء الطبيعة الماهرين يفحصون فحماً تجريبياً أشعةً تكونت في مخيلتهم بفعل التلقين وشاهدنا علماء هم أعضاء المجمع العلمى يعرضون مبالغاً وافرأ جائزة لمكتشف تلك الأشعة التي لم تلبث أن ظهر بطلانها حينما تخلص بعض الخبراء من ربة التلقين فصاروا لا يرون طيفه ، وقد اوردنا عليه كثيراً من الامثلة والفرق الوحيد بين المعتقد العلمى الناشئ عن تلك المؤثرات والمعتقدات الدينية والسياسية والروحانية الصادرة عنها أيضاً هو أن الخطأ في المسائل العامية يزول سريعاً

بجاول المعرفة مكان المعتمد مع أن الاختبار والعقل والتجارب تبقى لا عمل لها إزاء المبادئ العاطفية والدينية .

ثم حققنا أنه لا حد للسذاجة وسرعة التصديق في ميدان المعتقدات الروحانية وأنه لا فرق في ذلك بين العالم والجاهل ، وأرجو أن اكون - بأثباتي كيف يؤمن اصحاب النفوس العالية بمعتقدات لا فرق بينها وبين اساطير الاولين - قدرت على ايضاح حال روحية لم تشرحها رسائل علم النفس حتى الآن .

وهكذا توصلت الى ناموس فلسفي مهم وهو أن مبادئنا تشتق من أنواع المنطق المختلفة لا من مصدر عقلي مشترك ، فمن تغلب احد هذه الانواع على الاخرى أو من تصادمها ظهرت اكبر حوادث التاريخ .

وريثاً يكتشف العلم حقائق الكون الثابتة المستترة خلف ظواهر الأمور يجب علينا أن نكتفي بالحقائق التي تستمرها نفوسنا الآن . فكل ما نعرفه حتى الوقت الحاضر هو أننا مسيروا بثلاث حقائق « أعني : الحقائق العاطفية والحقائق الدينية والحقائق العقلية » وأنه لا قياس مشترك بين هذه الحقائق الصادرة عن انواع المنطق المختلفة .



# فهرس

صفحة

## الفصل الثاني

- تقلبات الحس هي أساس حياة الفرد وحياة المجتمع
- ١ — حدود الشعور بالآلم والآلم ٢١
- ٢ — تقلبات الحس في الفرد وشأنها في الحياة الاجتماعية ٢٣
- ٣ — ما ينشأ عن تقلبات الحس في المجموع من تبدل في المثل الاعلى والمعتد ٢٤

## الفصل الثالث

- دوائر الحركات الحيوية والنفسية
- الحياة الشاعرة والحياة اللاشاعرة
- ١ — دوائر الحركات الحيوية والنفسية ٢٥
- ٢ — النفسية اللاشاعرة ومصادر الالهام ٢٦
- ٣ — اشكال اللاشعور . اللاشعور الذهني واللاشعور العاطفي ٢٨

## الفصل الرابع

- الذات العاطفة والذات العاقلة
- ١ — الذات العاطفة والذات العاقلة ٢٩
- ٢ — مظاهر الحياة العاطفة . الانفعالات والمشاعر والحرس ٣٣
- ٣ — ذاكرة المشاعر ٣٥
- ٤ — اشتراك المشاعر واشتراك الافكار ٣٦
- ( ١٣ ) الآراء

صفحة

## مقدمة المترجم

٣

## الباب الاول

المعتد والمعرفة

## الفصل الاول

دائرة المعتد ودائرة المعرفة

- ١ — صعوبة تفسير المعتد ٥
- ٢ — ماهو الفرق بين المعتد والمعرفة ٧
- ٣ — شأن المعتد وشأن المعرفة ٩

## الفصل الثاني

طرق البحث في علم النفس ١١

## الباب الثاني

ميدان الآراء والمعتقدات النفسية

## الفصل الاول

عوامل الحركة — الآلم والآلم

- ١ — شأن الآلم والآلم ١٦
- ٢ — صفات الآلم والآلم المنقطعة ١٧
- ٣ — الرغبة نتيجة الآلم والآلم ١٨
- ٤ — الآلم هو الآلم المرجوة ١٩
- ٥ — المادة هي ناظمة الآلم والآلم ١٩
- ٦ — اعتبار الآلم والآلم حقيقتين نفسيتين اساسيتين ٢٠

صفحة

### الفصل الثالث

#### المنطق العاطفي ومنطق الجموع

- ١ — المنطق العاطفي ٥٥
- ٢ — مقارنة بين المنطق العاطفي والمنطق العقلي ٥٦
- ٣ — منطق الجموع ٥٨

### الفصل الرابع

#### المنطق الديني

- ١ — اوصاف المنطق الديني ٥٩
- ٢ — خلق التدين أساس المعتقدات ٦١

### الفصل الخامس

#### المنطق العقلي

- ١ — عناصر المنطق العقلي الاساسية ٦٢
- ٢ — شأن المنطق العقلي ٦٤
- ٣ — ظهور المنطق العقلي متأخراً بفعل الانسان ضد الطبيعة ٦٦

### الباب الرابع

#### العراك بين أنواع المنطق

#### الفصل الاول

#### التصادم بين المبادئ العاطفية

#### والمبادئ الدينية والمبادئ العقلية

- ١ — العراك بين أنواع المنطق في الحياة اليومية ٦٧
- ٢ — التصادم بين المبادئ العاطفية والمبادئ العقلية، تأثير الافكار في المشاعر ٦٨
- ٣ — تنازع المشاعر، العوامل الزاجرة ٧١

صفحة

### الفصل الخامس

#### عناصر الذات ، امتزاج المشاعر

#### التي يتألف الخلق منها

- ١ — عناصر الخلق ٣٧
- ٢ — اخلاق الشعب الجامعة ٣٨
- ٣ — تطور عناصر الخلق ٣٩

### الفصل السادس

#### انحلال الخلق وتقلبات الذات

- ١ — التوازن بين عناصر الخلق ٤٠
- ٢ — تقلبات الذات ٤١
- ٣ — عناصر الثبات في الذات ٤٢
- ٤ — صعوبة التنبؤ بما ينشأ عن الخلق من سير وحركة ٤٣

### الباب الثالث

#### أنواع المنطق المسيرة لآرائنا

#### ومعتقداتنا

### الفصل الاول

#### تقسيم المنطق

- ١ — هل للمنطق أشكال متنوعة ؟ ٤٦
- ٢ — أنواع المنطق الخمسة ٤٦
- ٣ — اقتراح أنواع المنطق ٤٨

### الفصل الثاني

#### منطق الحياة

- ١ — شأن منطق الحياة ٤٩
- ٢ — الفرائز ومنطق الحياة ٥١

صفحة	
٨٩	٢ — الانطباعات الاولى
٩٠	٣ — الاحتياج الى التفسير
٩٠	٤ — الالفاظ والصيغ والصور
٩١	٥ — الأوهام
٩٢	٦ — الضرورة

### الفصل الثالث

لماذا تختلف الآراء ولماذا لا يقدر

العقل على تقويمها

١	١ — اختلاف الامزجة النفسية يورث
٩٣	اختلاف الآراء
٩٤	٢ — عناصر تقويم الآراء
٩٥	٣ — شأن العقل في تكوين الآراء
٩٥	والاحكام المهمة
٩٧	٤ — شأن العقل في تكوين الآراء
اليومية	

### الفصل الرابع

تقويم الآراء بالتجربة

٩٩	١ — التجربة في حياة الامم
١٠٠	٢ — صعوبة ادراك العوامل التي هي
سبب التجربة	

### الباب السادس

آراء الجموع ومعتقداتها

### الفصل الاول

تكوين الآراء بتأثير الجموع

١٠٤	١ — تأثير العرق في المعتقدات
١٠٦	٢ — تأثير البيئة في الزمر الاجتماعية
١٠٧	٣ — تأثير المادة

صفحة

### الفصل الثاني

العراك بين أنواع المنطق في

حياة الأمم

٦	١ — نتائج كسر الزواجر الرادعة
٧٢	للمشاعر في الحياة الاجتماعية
٢	٢ — المبادئ الدينية والمبادئ العاطفية
٧٤	في حياة الامم
٣	٣ — التوازن وعدمه بين أنواع المنطق
٧٥	في حياة الأمم

### الفصل الثالث

ميزان العال

٦٧	١ — الميزان النفسى ، السير والحركة
٧٨	٢ — شأن الارادة في ميزان العال
٧٩	٣ — كيف يؤثر المنطق العقلى في
ميزان العال	

### الباب الخامس

آراء الأفراد ومعتقداتهم

### الفصل الاول

العال الباطنية للآراء والمعتقدات

٨١	١ — تأثير علل الآراء والمعتقدات
٨٢	٢ — الخلق
٨٣	٣ — المثل الأعلى
٨٤	٤ — الاحتياجات
٨٥	٥ — المنفعة
٨٦	٦ — الحرس

### الفصل الثاني

العوامل الخارجية للآراء والمعتقدات

٨٧	١ — التلقين
----	-------------

صفحة

- ٢ — امثلة مختلفة على العدوى النفسية ١٢٥  
 ٣ — سلطان العدوى النفسية ١٢٦  
 ٤ — شأن العدوى في انتشار المعتقدات  
 الدينية والسياسية ١٢٧

### الفصل الثالث

#### الطراز

- ١ — تأثير الطراز في عناصر الحياة  
 لاجتماعية ١٢٨  
 ٢ — قواعد الطراز، الطراز مزيج من  
 عناصر عاطفية وعناصر عقلية ١٢٩

### الفصل الرابع

#### الجرائد والكتب

- ١ — تأثير الجرائد والكتب ١٣١  
 ٢ — الاقناع بطريقة الاعلان ١٣٢

### الفصل الخامس

#### جريان الآراء وثوراتها

- ١ — جريان الآراء ١٣٤  
 ٢ — ثوران الآراء ١٣٦

### الباب الثامن

#### حياة المعتقدات

#### الفصل الاول

#### صفات المعتقد الاساسية

- ١ — المعتقد احتياج نفسي مهيمن ١٤٠  
 ٢ — عدم التسامح في امر المعتقدات ١٤١  
 ٣ — استقلال الرأي، شأن عدم  
 التسامح الاجتماعي ١٤٢  
 ٤ — اشتداد المعتقد، الشهداء ١٤٣

صفحة

### الفصل الثاني

#### تأثير آراء الجموع ونتائجها

- ١ — صفات الآراء الشعبية ١٠٨  
 ٢ — كيف يبقى شيء من الثبات في  
 الشعب على رغم تقلب آرائه ١٠٩  
 ٣ — قوة الآراء الشعبية قبل الجيل  
 الحديث ١١٠  
 ٤ — زيادة تأثير الجموع الماخضة في  
 تكوين الآراء ونتائج ذلك ١١١  
 ٥ — تأثير الجموع في ثبات بعض  
 العناصر الاجتماعية ١١٤

### الفصل الثالث

#### فناء روح الفرد في روح الزمرة

- ١ — انحلال الجموع الكبيرة وتمحوها  
 الى زمرة صغيرة في الوقت الحاضر ١١٤  
 ٢ — كيف تخلفت روح الفرد من  
 روح الزمرة وكيف تعود اليها ١١٦

### الباب السابع

#### انتشار الآراء والمعتقدات

### الفصل الاول

#### التوكيد والتكرار والمثال والنموذ

- ١ — التوكيد والتكرار ١١٩  
 ٢ — المثال ١٢٠  
 ٣ — النموذ ١٢١

### الفصل الثاني

#### العدوى النفسية

- ١ — اشكال العدوى النفسية ١٢٤

صفحة

## الفصل الاول

تدخل المعتقدات في أمر المعرفة ،

تكوين الأوهام العلمية

- ١ — لماذا نظل المعرفة مشوبة بالمعتقدات ١٦٢
- ٢ — تكوين الاوهام العلمية ١٦٣

## الفصل الثاني

تكوين المعتقد في الوقت الحاضر ،

السحر

- ١ — فائدة البحث التجريبي في تكوين المعتقد ٦٦١
- ٢ — السحر في القرون القديمة وفي القرون الوسطى ١٦٧
- ٣ — السحر في الازمنة الحاضرة وحوادث تجسيم الارواح ١٦٩
- ٤ — ما هو السبب في تكوين المعتقدات السحرية ؟ ١٧٤

## الفصل الثالث

طرق البحث التجريبي في بعض

المعتقدات وفي أنواع الحوادث التي

زعموا أنها خارقة للعادة

- ١ — نقص طرق الاختبار العادية ١٧٤
- ٢ — قيمة الشهادة والاختبار في البحث في المعتقدات ١٧٥
- ٣ — قيمة تجربة الفرد وتجربة الجماعة ١٧٦
- ٤ — ضرورة تحليل الحوادث والتدقيق في كل عنصر من عناصرها على حدته، تطبيق ذلك على حادثة الرفع ١٨٧

صفحة

## الفصل الثاني

ما ينشأ عن المعتقدات من اليقين

وما يقنع به المؤمنون من الادلة

- ١ — ما ينشأ عن المعتقدات من اليقين ١٤٥
- ٢ — الادلة التي يقنع بها المؤمنون ١٤٦
- ٣ — التصادم بين العلم والمعتقد ١٤٧

## الفصل الثالث

الشان المنسوب الى العقل والارادة

في تكوين المعتقد

- ١ — استقلال العقل واستقلال المعتقد ١٤٩
- ٢ — عجز العقل عن التأثير في المعتقد ١٥٠

## الفصل الرابع

كيف تثبت المعتقدات

وكيف تتطور

- ١ — كيف تثبت المعتقدات ١٥٣
- ٢ — كيف تتطور المعتقدات ١٥٤

## الفصل الخامس

كيف تموت المعتقدات

- ١ — دور المعتقدات الخطير والاحلالها ١٥٨
- ٢ — تحول المعتقدات الدينية الى معتقدات سياسية ١٥٩

## الباب التاسع

مباحث تجريبية في تكوين

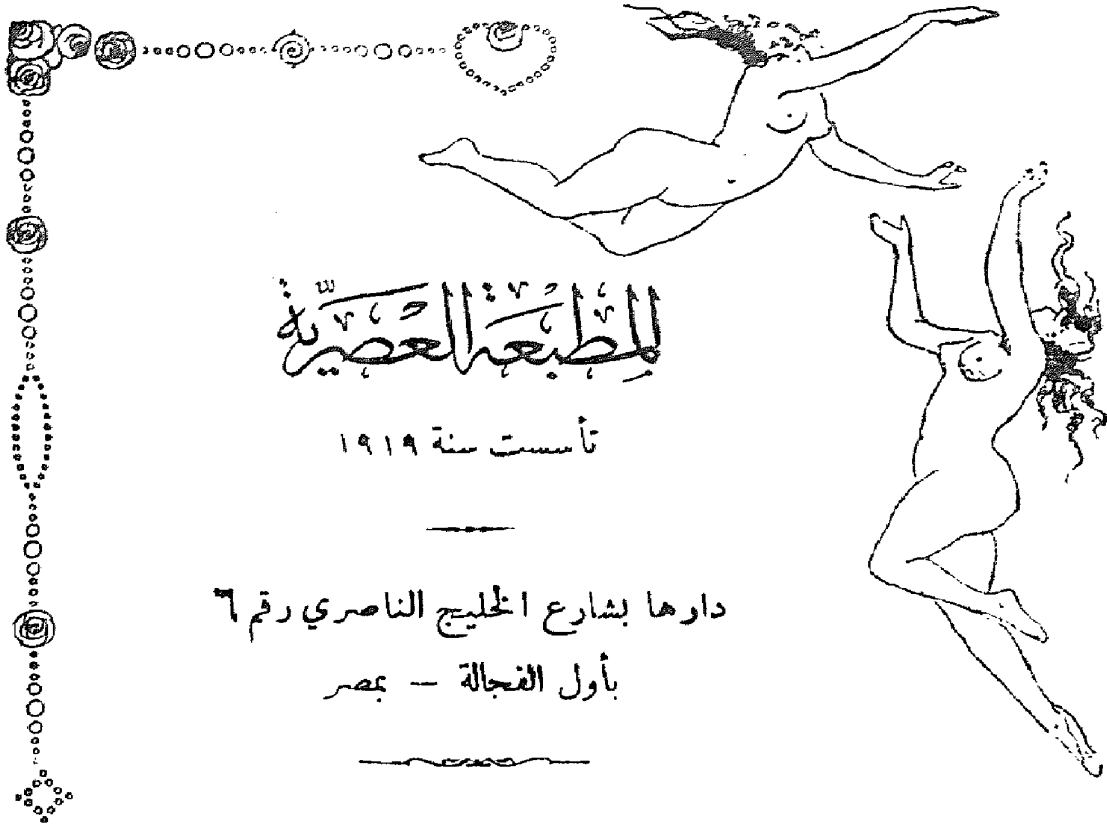
المعتقدات وما ينشأ عنه من

حوادث غير شعورية

<p>صفحة</p> <p>الفصل الخامس</p> <p>كيف تستقر النفس في دائرة المعتقد وهل من حد للسذاجة وسرعة التصديق؟</p> <p>١ — معرفة العلماء ومعتقدهم ١٨٦</p> <p>٢ — كيف يصبح العالم مؤمناً؟ ١٨٧</p> <p>٣ — حدود السذاجة وسرعة التصديق ١٨٨</p> <p>الخلاصة ٩١١</p>	<p>صفحة</p> <p>٥ — من هو جدير بالبحث في الامور الروحانية؟ ١٨٠</p> <p>الفصل الرابع</p> <p>بحث في بعض الحوادث اللاشعورية التي هي مصدر المعتقدات</p> <p>١ — تأثير الايمان في الاعضاء والشفاء ١٨٢</p> <p>٢ — الاوهام الناشئة عن تلقين الفرد وتلقين الجماعة ١٨٣</p> <p>٣ — تحول الارواح الفردية الى الروح جامعة ١٨٥</p> <p>٤ — انحلال الذات ١٨٦</p>
--	--

## تصحيح الخطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢١	٥	ذلك	ذيتك
٧٩	١٩	الحقيين	الحقيقيين
١٠٠	٢٤	على ابتياعها	لا ابتياعها
١١٢	٢٠	على زيادة	لزيادة
١٢٥	٤	تأثيراً	تأثير
١٣٨	١٩	امضاء	إمضاء
١٤٤	٢٤	والألم على	الألم وعلى
١٤٦	٢٣	المشاهل	المشاعل



## للطبعة العصرية

تأسست سنة ١٩١٩

دارها بشارع الخليج الناصري رقم ٦  
بأول الفجالة - بمصر

جميع الكتب المذكورة في هذا الملحق من علمية وتاريخية واجتماعية هي من أجود الكتب العصرية، ومؤلفوها أشهر كتاب الشرق، ومطبوعة آتقن طبع على أحسن ورق، ومزينة بالصور الجميلة، ومغلقة بأجل وأمتن غلاف

يُضاف الى ثمن الكتاب الذي يُطلب ٤ قروش بريد لبلاد القطر المصري و ١٠ قروش للخارج وهذا المبلغ يكفي لارسال ما زنته ٥ كيلوجرام. فيحسن من يرغب في طلب كتاب واحد أن ينتخب من هذه المجموعة النفيسة بعض كتب أخرى فنرسلها كلها معاً ضمن طرد بريد واحد خالصة الاجرة

قيمة الكتب ترسل مقدماً مع الطلب، أو يرسل نصفها ويحول على التكب المرسله بالباقي.

( القرش المصري يساوي ٢ ½ بنسات انكليزية أو ٥ سنتات أميريكانية )

# القَامُوسُ العَصْرِيُّ

انكليزي و عربي

تأليف

الياس انطون الياس

( الطبعة الثانية منقحة وموضحة بالصور )

ان جميع المعاجم الانكليزية وعربية التي تقدمت « القاموس المصري » لم يضعها مؤلفوها لفائدة طلاب اللغة الانكليزية من الشرقيين ، بل وضعوها لطلاب اللغة العربية من المستشرقين ، ولذلك تجدهم يأتون بالكلمة الانكليزية فيذكروا أمامها من البيانات ما يفسر اوضاع الترجمة العربية المقابلة لها وكيفية هجائها في حالاتها المتنوعة ، وجمعها ومفردها ، الى غير ذلك مما لا فائدة منه مطلقاً للطلاب الشرقي . وأول معجم وضع خصيصاً للشرقيين هو « القاموس المصري »

ويطول بنا الشرح اذا ذكرنا مميزات هذا المعجم . واننا ننصح الكل من لم يطلع عليه للان ، مكتفياً بما عنده من القواميس العتيقة ، أن يبادر الى أقرب مكتبة ويفحصه بنفسه فيرى حقيقة ما ذكرناه ويرى الفائدة التي ينالها من اقتنائه

وقد قررته وزارة المعارف العمومية لاستعمال معلمي اللغة الانكليزية والترجمة في كل فصل من فصول مدارسها الثانوية في القطر المصري ، وذلك بخطاب تاريخه مايو سنة ١٩١٤ رقم ٧٧٧ ثنه ٧٠ قرشاً

والطبعة الثانية تمتاز بما لا يقاس عن الطبعة الاولى



# القاموس العصري عربي وانكليزي

مُصَوَّرٌ

تأليف

الياس انطونه الياس

هو معجم لم يُنسج على منواله حتى الآن ، ويمتاز بأسلوبه البسيط ( المسجل في المحاكم المختلطة تحت نمرة ١٦٢ ) الذي ابتكره المؤلف لأجل التوفيق بين الترتيب المصطلح عليه في القواميس العربية والترتيب الهجائي البسيط المتبع في كل القواميس الافرنجية ، ثم تحديد معنى الكلمة العربية أو تفسيرها بكلمة عربية مرادفة لها تمهيداً للذكر الترجمة الانجليزية . إذ بدون ذلك لا يتسنى للطالب أن يتحقق من صحة المقابل الانجليزي للمعنى الخاص الذي يطلبه  
إطلع عليه فتعلم انه اكثر فائدة لك من أي قاموس آخر مادمت من المشتغلين باللغة الانكليزية

عدد صفحاته ٧٠٠ من القطع الكبير ويحوي نحو ٥٢,٠٠٠ كلمة عربية وما يقابلها من الترجمة الانكليزية . وقد قررت وزارة المعارف العمومية لاستعمال معلمي اللغة الانكليزية والترجمة في جميع فصول مدارسها الثانوية في القطر المصري .  
( ثمنه ١٠٠ قرش مصري والبريد )

قَامُوسُ الْعَرَبِيَّةِ

انكليزي وعربي

عدد صفحاته ٣٢٠ وكلماته ١٨٠٠٠

وثنه ٢٠ قرشا

# القاموس الملائكي

انجليزى وعربى وبالعكس ( تأليف اليانز انطون النيس )

وقد قررته وزارة المعارف - وثمانه ٥٠ قرشاً

تأليف الاستاذ نسيان نصر ستار الربطة

بفهميه بالبريدى المتحدة . قد حصل فيه كاتبة زهيرى

الدور بالعصرى واولا سائى لى حبيب ربه سيرا

الكتاب والسما بسجاء واروح لظهور الحديث

الغريبان

ثمانه

( ١٠ قروش مصرية )

## حصان الهشيم

تأليف الكاتب الشهير الاستاذ

ابراهيم عبد القادر المازنى

لا حاجة بنا الى ترغيب القارىء في اقتناء هذا السفر النفيس فمؤلفه اشهر من نار على علم . والكتاب يعدّ درة في تاج المطبوعات العربية . مطبوع طبعاً نفيساً على ورق صقيل وعدد صفحاته ٤٣٠ ولزويجه جعلنا ثمنه ١٠ قروش فقط

# قاموس الجيب

للكليزي وعربي

## عربي وانكليزي

اجابة لطلب وزارة المعارف العمومية قد طبعا قاموسي الجيب الانكليزي عربي والعربي انكليزي في مجلد واحد وجعلنا ثمنه ٣٥ قرشاً - وقد قررت الوزارة لتلاميذ مدارسها الابتدائية

يكنى للتويه بفائدة هذا الكتاب أن نذكر انه طبع  
المترجم للغة  
البلغية انكليزية  
لطلاب  
للمرة الخامسة في بحر عشر سنوات . وكل من بدأ  
دراسة اللغة الانكليزية بواسطته استفاد جداً من سهولة  
اسلوبه ، خصوصاً لأن طريقته الحديثة التي ابتكرناها  
(لا يلاس انطون الياس) للفظ الكلمات الانكليزية بأحرف عربية هي الطريقة التي  
لا يمكن ايجاد أسهل واصح منها  
اشتر نسخة منه ، وجرب أن تتعلم اللغة الانكليزية من دون احتياج الى  
الاستعانة بعلم . ثمنه ١٢ قرشاً والبريد

أعيد طبع هذا الكتاب للمرة الرابعة في  
مدة وجيزة ، وهو مجموعة كبيرة جداً من  
المفردات والجلل والخطابات الأكثر استعمالاً ،  
خصوصاً المفردات والجلل المختصة بالمعاملات  
التجارية والادارية والقضائية ، وبالاختصار  
كل ما يكثر استعماله في الاعمال العمومية ،  
لا يستغنى عنه أي طالب لغة الانكليزية  
(لا يلاس انطون الياس)

فسل من تقدمك في درس هذه اللغة عن هذا الكتاب يخبرك بمغيب فائدته

# قاموس الجيب عرب، وانكليزي

عدد صفحاته ٥٤٠ وكتلته ٢٥٠٠٠

وعمته ٢٥ قرشا

## أناطول فرانس

في مبادله

تأليف جاك بروسون

مع خلاصة كتاب

« محادثات مع أناطول فرانس ، لنيقولا سينفور »  
وزبدة ما قالته الجرائد الفرنسية في فرانس يوم وفاته

نقله الى العربية وصدّره بمقدمة وعلق عليه بعض حواش

كاتب الشرق الاكبر صاحب العطوفة

الامير شكيب ارسلان

من اعضاء المجمع العالمي العربي

وقد حليناه بما يزيد عن المائة والخمسين صورة وطبعناه على ورق جميل  
وجعلنا ثمن النسخة ٢٠ قرشا، وطبعنا منه نسخا قليلة على ورق ممتاز وثنها ٢٥  
قرشا فقط

# نظريّة التطور و أصل الإنسان

تأليف الكاتب الكبير الاستاذ

سلام موسى

ليس بين الالفاظ الآن ما هو اكثر وروداً على اقلام الكتاب والمؤلفين من لفظ « التطور » ولا يمكن قارئاً يحترم نفسه أن يهمل فهم مدلول هذه اللفظة وادراك النظرية التي تقول بها

والتطور ليس نظرية فحسب بل هو نزعة نزعت اليها العلوم والآداب والفلسفة . بل لا يمكن أن نجاري الثقافة الحاضرة ونساير العلماء في آرائهم ما لم نفهم هذه النظرية وتقتنع بها

ليس في العالم العربي منذ أن مات الدكتور شبلي شميل من يدعو الى هذه النظرية بنشاط وهمة مثل الاستاذ سلامة موسى فهو يكتب عنها بأسلوب مفر ويأتي بأمثلة مألوفة تعين القارىء . على فهمها وقد وضع كتاب « نظريه التطور وأصل الانسان » في نحو ثلاثين فصلاً يتضمن النصف الاول من الكتاب فصلاً عن تطور الاحياء الى ظهور الانسان . والنصف الثاني يحتوي على ١٥ فصلاً خاصة بتطور الانسان الجسمي والعقلي والاجتماعي . والكتاب موضح بنحو خمسين صورة فريدة تساعد القارىء على فهم الموضوع



وهي مذكرات فلسفية وأخلاقية

على لسان صمار

إذا قرأت هذا الكتاب وأنت على رأي الناس في قولهم جاهل كالحمار،  
بليد كالحمار، عنيد كالحمار، انتهيت منه وأنت على رأي المؤلف تقول: زكي كالحمار،  
وديع كالحمار، عالم كالحمار  
قدّم هذا الكتاب لابنك أو أخيك أو صديقك الصغير فيشكرك ويستفيد  
وثمنه ٥ قروش مصرية والبريد

## القصص العصرية

مجموعة ممتعة تشمل ٨٠ قصة أدبية غرامية مختلفة المغزى والاسلوب ومحلة  
بكثير من الصور الرمزية و مترجمة بعبارة فصيححة قريبة المتناول لطيفة الاسلوب على  
طريقة أهل الغرب في كتابة هذه القصص المستظرفة التي يتوخى بها الدهن بلذة السيرة  
المحكّية وايصال الفائدة المقصودة الى العقل من طريق تلك اللذة بأسلوب انشائي  
خاص تجتمع فيه السهولة والسلاسة الحاذقة الوصف الى رشاقة المحادثة وظرفها،  
الى حكمة سامية أو عظة كافة عن الشر داعية الى الخير، كما قال نابغة الشعر والنثر  
خليل بك مطران في المقدمة التي كتبها لها

طابع هذه المجموعة في ما يقارب الخمس مئة صفحة ثمن النسخة ١٠ قروش

# رَوَايَتُهُ

## بُحَارُ الدُّلِيَّاتِ

تأليف الروائي الشهير ميشيل زيفاكو

وترجمة الكاتب البليغ الاستاذ طانيوس عبده

ليس الاستاذ طانيوس عبده في حاجة الى التنويه بذكره فهو أعظم من اشتهروا في عالم الترجمة بنقل الروايات الادبية الشيقة الى لغة العرب ، وامتاز على كثير من العربيين بأنه ينقل رواياته في عبارات سلسلة خلابة .

وهذه الرواية من أشهر الروايات التي ظهرت باللغة العربية الى الآن وهي تقع في ثلاثة أجزاء ( بدلاً من ثمانية اجزاء في الطبعة الاولى ) بمجموع صفحاتها ٨٥٠ من القطع الكبير - ومطبوعة على ورق جيد جداً وحرف جميل وتجايد متين وثمان الثلثة اجزاء ٢٠ قرشاً فقط والبريد ( بدلاً من ٤٠ قرش للطبعة الأولى ) وتليها

# رَوَايَةٌ

## الأميرة فونستيا

( كاملة في جزئين كبيرين بدلاً من ثمانية اجزاء صغيرة )

وهي تابعة لرواية باردليان - وثمانها ٢٠ قرشاً والبريد

# روح الاشتراكية

تأليف الدكتور غوستاف لوبون

ونقله الى العربية الاستاذ محمد عادل زعيتر

كتاب اجتماعي يبحث في مبادئ الاشتراكية ونفسية انصارها، وعن كونها معتقداً، وعن اختلافها باختلاف الشعوب، وعمما بين مقتضيات الاقتصاد من التباين، وعن المبادئ الديمقراطية، ورغائب الاشتراكيين، وتطور المجتمعات في الوقت الحاضر، ومصير الاشتراكية. ثمنه ٢٠ قرشاً والبريد

## التربية الاجتماعية

تأليف الاستاذ علي فسكري

أمين دار الكتب المصرية

ظهر هذا الكتاب حديثاً وقد جمع من الحقوق والواجبات والآداب الاجتماعية الشرقية ما يعرف به المرء ماله وما عليه ليهيش في راحة بال واسع حال . وهو أول كتاب في موضوعه، وحبا في تعميم فائدته جعلنا ثمنه ١٠ قروش مصرية والبريد